

مكتبة الجاحظ
إلى عثمان عسرو بن بجر الجاحظ
٢٥٥ - ١٥٠

بمقتضى
عبد السلام محمد حارون

رسائل الجاحظ

المجلد الأول

-
- | | |
|-----------------------------|----------------------------------|
| ١ - مناقب الترك | ٦ - في نقي التشبيه |
| ٢ - المعاش والعاد | ٧ - في كتاب الفتيا |
| ٣ - كتمان السر وحفظ اللسان | ٨ - إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب |
| ٤ - نثر السودان على البيضاء | ٩ - فصل ما بين العداوة والحمد |
| ٥ - في الجلد والمزل | ١٠ - صناعات القواد |

الناشر
مكتبة الفتاحي بالقاهرة

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

رَبُّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبُّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبُّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

كُتِبَتْ إِلَى - حفظك الله - أن أسمى سعيًا حثيثًا في إظهار ما بقي من آثار شيخنا الجاحظ ، وزعمت أنني شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومني لما فرطت في جنب أبي عثمان فيما رأيت .

وما خالك عرفتَ بعض الحق ولم تظهر عليه كله ؛ فإن الحق يبدو أحيانًا في بعض الأمر أبلغ وانحأ ، وفي بعض الأمر يخفى وجهه حثيثًا فما تكاد تبيته إلا بعد التعرف والتصفح . فإني لم أفارق آثار أبي عثمان منذ شذوت ، ولا تزال تلك من همي ووكدى ، ما بين قراءة فيها وتنقيح ، وتجليه وتصحيح ، حتى أجمع منها بين الناس ما يستعليه الجهد ، ويسمح به الزمان .

وقد بمنتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخاما ، بذلت فيها عصارة النفس وماء الشباب ، وكان ذلك لنفسي ضيقًا أعتز به ونشأني به الفبطة ، لما علمت أن المصنفين من الأدباء قد تلقوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

وما كان لي - أيدك الله - إلا أن أعد أصول ما بقي من آثار الجاحظ وأروها ، وأنظر للصورة التي ينبغي أن تبدو فيها . فوجدتني بين خليط من المعلومات والمطبوعات ، ووجدت فيها وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المخفولة « دأمد إبراهيم » ، غنية بآثار الجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون صورة الأدباء .

فرايت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة في مجلدين مستفيدين لما فها رسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لي الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المرفقة التي لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التي كان لها فضل في تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وطرار المجالس للشهاب الخفاجي ، وجمع الجواهر للحصري ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

مجموعة داماد

وهي نسخة الأصل

كان من المهام الجلية التي اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين في الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة في المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التي حوت مقداراً ضخماً من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدني أن أعثر على هذه المجموعة الجلية القدر التي صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة (داماد إبراهيم ^(١)) بتركيا . ورقها في مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفي معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

(١) الداماد في اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه صاحب الخير والحسنات ، الصدر الأعظم
والصبر الأنعم إبراهيم باشا يشتر الله له بالخير ما يشاء وزيراً لحضرت السلطان
الغازي أحمد خان خلعت خلافة إلى انقراض الدورات . »

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بـ نسخة وقفندر داماد إبراهيم باشا نك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن
السادس ، كتبت بالخط النسخي للشرب ببعض قواعد الخط الفارسي ، كما يتضح
ذلك في رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع اغفال
لبعض النقط ، ومع ضبط قليل ذاهب في الندرة .

وهي في ٢٣٩ ورقة ، منها ١٩ ورقة مفقودة في أولها . وبالصفيحة ٢٢ سطراً ،
في كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويبتدئ ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسر ما صنعتته من بدء ترقيم
نسختي هذه برقم (٢٠ ظ) الذي أثبتته في ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام
الأصل التي حرصت على إثباتها في جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك
في مقدمة الرسالة الأولى في ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التي كانت في صدر المجموعة هي « كتاب
حكاية عثمان الحياض في اللصوص ووصاياهم » التي يمز وجود أصل لها . وذلك
أن داود الجليلي في كتابه (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤) ذكر مجموعة من
رسائل للجاحظ كانت محفوظة في مكتبة أمين بن أبوب الجليلي تطابق

في عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها في أولها « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم ». ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلي قد فقدت بعد وفاته ، كما ورد في مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لكرأوس والهاجري ص (و) .
ويبدو كذلك أنه قد تجهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها في النسخة (٢٠ و) أي وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوايتها وجهاً للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالي . وقد أثبتنا هنا بلفظها ، والترقيم لي :

- ١ — كتاب فضائل الأتراك^(١) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
- ٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الممودة .
- ٣ — كتاب كتان السر وحفظ اللسان .
- ٤ — رسالة للعاش وللمعاد في الأدب .
- ٥ — كتاب نحر السودان على البيضان .
- ٦ — رسالة في الجد والمزول .
- ٧ — رسالة في نفي التشبيه .
- ٨ — رسالة في معنى كتابه في الفتيا .
- ٩ — رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح السكاكيب تصنيف أبي عثمان .
- ١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .
- ١١ — رسالة في ذم القواد .

(١) ذكر بروكلمان في كتابه ١١٥: ٣ من الترجمة العربية أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة في النابتة إلى أبي الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والعلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن المجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق الحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة « رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بمباراة أدق : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبيّنت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقض الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ .

وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، بلحق بالثانى منهما (الفهارس الفنية) لها معاً . إن شاء الله تعالى .

المجموعات التي نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما في هذه المجموعة ، أعني مجموعة داماد .

أولاً :

مجموعة فان فلوتن . وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري) . طبعت مطبعة بريل بمدينة لايدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م . وتشمل :

١ - رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جنود الخلافة

ص ١ - ٥٦

٢ - كتاب غر السودان على البيضاء

ص ٥٧ - ٨٥

٣ - كتاب التزييع والتدوير

ص ٨٦ - ١٥٦

وقد قام بإكمال العمل في هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق

دي جويه : M. J. de Goeje

ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبید الله بن حسان . طبعت على هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ - ١٣٢٤ في جزأين :

١ - من كتابه في الحاسد والحسود

١ : ٢

٢ - من كتابه في المعلمين

١ : ١٧

٣ - من رسالته إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وأصحابه

١ : ٩٧

٤ - من كتابه في طبقات الفنانين

١ : ١٢٠

٥ - من كتابه في النساء

١ : ١٣٠

- ٦ — من رسالته إلى الفتح بن خافان في مناقب الترك ١٦٦ : ١
- ٧ — من كتابه في حجج النبوة ٢٧٥ : ١ إلى ١١٧ : ٢
- ٨ — من كتابه في خلق القرآن ١١٧ : ٢
- ٩ — من كتابه في الرد على النصارى ١٤٨ : ٢
- ١٠ — من رسالة إلى أبي الفرج السكاك في المودة والطلاعة ١٩٩ : ٢
- ١١ — من كتابه في استحقاق الإمامة^(١) ٢١٢ : ٢
- ١٢ — من رسالته في استنباز الوعد ٢٢٠ : ٢
- ١٣ — من رسالته في تفضيل النطق على الصمت ٢٢٧ : ٢
- ١٤ — من كتابه في صناعة الكلام ٢٣٨ : ٢
- ١٥ — من رسالته في مدح التجارة وذم عمل السلطان ٢٤٦ : ٢
- ١٦ — صفات الشارب وللشروب ٢٥١ : ٢
- ١٧ — من رسالته في استحقاق الإمامة ٢٦٩ : ٢
- ١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة ٢٩١ : ٢
- وهذه النسخة ينقصها كثير مما في النسخة التيمورية ، ونسخة التحف
البريطاني ، فهي مجموعة من الاختيار مبتورة .

إذًا :

مجموعة محمد ساسي ، وعنوانها (مجموعة رسائل مؤلفها العلامة الشهير
والنهادية الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ) .
طُبعت بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ .
وقد أعاد فيها ما طبع في مجموعة فان فوتين . وضم إليها ثمانين رسالة
أخرى فصارت كلها على الوضع التالي :

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

- ١ - رسالة في الحاسد والحسود ص ٢ - ١٣^(١)
- ٢ - رسالة إلى الفتح بن خاقان في مذنب الترك وعامة جنود الخلافة ص ٢ - ٥٣
- ٣ - كتاب نحر السودان على البيضان ص ٥٤ - ٨١
- ٤ - كتاب التزييع والتدوير ص ٨٢ - ١٤٧
- ٥ - في تفضيل النطق على الصمت ص ١٤٨ - ١٥٤
- ٦ - في مدح التجار وذم عمل الساطان ص ١٥٥ - ١٦٠
- ٧ - في العشق والنساء ص ١٦١ - ١٦٩
- ٩ - في استنجاز الوعد ص ١٧٣ - ١٧٧
- ١٠ - في بيان مذهب الشيعة ص ١٧٨ - ١٨٥
- ١١ - في طبقات المغنين ص ١٨٦ - ١٨٩

رابعاً :

مجموعة يوشع فينكل : J. Finkel

وعنوانها : (ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)
وهو موافق لعنوان مجموعة فن ثورن . طبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ
وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التي كان يصدرها الأستاذ
عبد الدين الخطيب ، إلى قرائها في سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث
رسائل :

- ١ - المختار من كتاب الرد على النصارى^(٢) من ص ٩ - ٣٨
- ٢ - ذم أخلاق الكتاب من ص ٣٩ - ١٥
- ٣ - رسالة القيان من ص ٥٢ - ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة

(٢) وهي من اختيارات عبيد الله بن حسان .

والرسالتان الأخيرتان منشوران عن أصل بمكتبة نور الدين مصفاة
برقم ١٠٠ وهو أصل يعد الآن مفقوداً .

خامساً :

مجموعة ريشر : Rescher اشترت في مدينة شنوتجارت سنة ١٩٣١
وهي مقتطفات وترجمات من آثار الجاهظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له
لم ينشر من قبل ، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .
ولم يتيسر لي الوقوف عليها لأنى لم أعتز عليها في المكتبات العامة بمصر ،
وقد أمكننى أن أتعقب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة منشعبة من كتاب
بروكلمان على الوضع التالى :

- ١ — دراسة لمحتويات البيان والتبيين ص ٢٢ — ٤٠
- ٢ — الرد على النصارى ص ٤٠ — ٦٧
- ٣ — ذم أخلاق الكتاب ص ٦٧ — ٧٨
- ٤ — رسالة القيان ص ٧٨ — ١٠٠
- ٥ — رسالة في المعلمين ص ١٠١ — ١٠٨
- ٦ — في ذم اللواط ص ١٠٨
- ٧ — في مدح النبيذ وصفة أصحابه ص ١١١
- ٨ — حجج النبوة ص ١١٢ — ١٥٩
- ٩ — صناعة الكلام ص ١٥٩ — ١٦٣
- ١٠ — الشارب والمشروب ص ١٦٣ — ١٦٨
- ١١ — استحقاق الإمامة ص ١٦٨ — ١٧٩
- ١٢ — الحاسد والمحسود ص ١٨٠ — ١٨٢
- ١٣ — تفضيل النطق على الصمت ص ١٨٢ — ١٨٦

ص ١٨٦ — ١٨٨	١٤ — مدح التجارة وذم عمل السلطان
ص ١٨٨ — ١٩٤	١٥ — العشق والتسا.
ص ١٩٤ — ١٩٥	١٦ — الوكلا.
ص ١٩٥ — ١٩٦	١٧ — في استنجاز الوعد
ص ١٩٧ — ٢٠٤	١٨ — مذاهب الشيعة
ص ٢٠٤ — ٢٠٦	١٩ — طبقات للفنين
ص ٢٠٧ — ٢١٠	٢٠ — فضائل الأتراك (محتوياته)
ص ٢١٠ — ٢١٢	٢١ — نجر السودان
ص ٢١٢ — ٢٥٥	٢٢ — التزييع والتلوين
ص ٢٥٧	٢٣ — تهذيب الأخلاق
ص ٢٦٧ — ٤٨٤	٢٤ — قطعة من البخله
ص ٤٨٨	٢٥ — الحنين إلى الأوطان
ص ٥٢٧	٢٦ — في ذم القواد
ص ٥٣٣ — ٥٥٠	٢٧ — الحجاب وذمه
ص ٥٥٠	٢٨ — في وصف العوام
ص ٥٥٢ وما بعدها	٢٩ — الأخبار
	ساراً :

مجموعة حسن السندوبى بعنوان (رسائل الجاحظ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر في مقدمتها أنها « متقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكثرها في متناول الأيدي . وهذه الرسائل في التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها
العرف الإخوانيات .

ولم يشر الأستاذ السندوني إلى أصل ما مما نشر عنه هذه المجموعة ،
وتشتمل مجموعته على :

١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ - ١٢ . وقد أتبعها بخلاصة نقض العثمانية
للأبي جعفر الإسكافي ص ١٣-٦٦ . وقد كتبت عنها في مقدمة العثمانية .

٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس ٦٧ — ١١٦

٣ — » » حجج النبوة ١١٧ — ١٥٤

٤ — » » الحجاب ١٥٥ — ١٨٦

٥ — » » التريب والتدوير ١٨٧ — ٢٤٠

٦ — » » استحقاق الإمامة ٢٤١ — ٢٥٩

٧ — » » رسالته في صناعة القواد ٢٦٠ — ٢٦٥

٨ — » » كتابه في النساء ٢٦٦ — ٢٧٥

٩ — » » رسالته في الشارب والمشروب ٢٧٦ — ٢٨٤

١٠ — » » في مدح النبيذ ٢٨٥ — ٢٩١

١١ — » » في بني أمية ٢٩٢ — ٣٠٠

١٢ — » » كتابه في العباسية ٣٠٠ — ٣١٦

١٣ — » » رسائله الخاصة ٣٠٣ — ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في اللودة والخلطة ، وأخرى في ذم الزمان ،
ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبي ذؤاد ، وغيرها
لإبراهيم بن الدبر ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

مجموعة باول كراوس وطه الحاجري ، وعنوانها (مجموع رسائل الجاحظ)
 طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهي نشرة علمية جيدة ، وبها :

- ١ — رسالة العاد والمماش ص ١ — ٣٦
- ٢ — كتاب كتبان السر وحفظ اللسان ٣٧ — ٦٠
- ٣ — رسالة في الجلد والحزل ٦١ — ٩٨
- ٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحد ٩٩ — ١٢٤

وإني لأزجي الشكر صادقاً إلى الأخ السيد (محمد نجيب أمين الخانجي)
 لتيسيره نشر سلسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربي ، مقتدياً
 في ذلك بإلده للعقود له السيد (أمين الخانجي) ، الذي يحفظ له التاريخ سيقاً
 مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التي أولاها عنايته وإخلاصه .

* * *

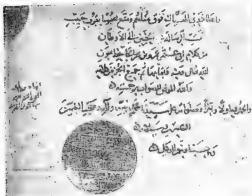
وأما بعد ، فإني أرجو أن أوفق - بعمون الله - حيناً أفرغ من نشر هذه
 المجموعة (مجموعة داماد) محققة على التهج الذي جريت عليه في نشر الحيوان
 والبيان والعنانية - أن أتم نشر ما بقي من رسائل الجاحظ في أجزاء لاحقة .
 والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

عبد السلام محمد هارون

مصر الجديدة في { ٢٣ من جادى الأول ١٣٨٤
 ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ }



سورة الصفحة الأول من مجموعة داماد



الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

١ مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هي الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها في المجموعة « فضائل الأثرak » . وقد اختارت لها العنوان الذي في سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م == مختارات فصول الجاحظ لعبد الله بن حسان . نسخة المتحف البريطاني للأخذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف == الفصول المختارة لعبد الله بن حسان . المطبوعة بهامش كتاب البريد طبعة التقديم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن == ثلاث رسائل للجاحظ نشر فان ثلوثي . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س == مجموعة رسائل للجاحظ نشر السامي .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخوانها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل مابين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبتت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيراً للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذي ورد في النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير التوكل العباسي ، وكان أديباً شاعراً نصيحاً بارع الدكا ، وكانت له خزنة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصب والجلوح ، وكتاب الروضة والزهر . وقد مر مع التوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلعة العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٤٣ - ١٥٤ .

وَقَفَّكَ اللَّهُ (رُشِدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ، وَجَمَّلَنَا وَإِيَّاكَ مَنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [ثُمَّ قَدْ بَصَّذَهُ اللَّهُ ^(١)] ، وَلَا يَكُونُ حَقُّهُ مِنْهُ ^(٢)) الْوَصْفَ لَهُ وَالْعُرْفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ وَالِاقْتِنَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُشْفِ الْغِنَاعِ فِيهِ ، [وَإِيصَالِهِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُحَافَظَةِ فِي الْأَبْلِ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثَبُّتِ فِي تَحْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ ^(٣)] ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ النَّاسَ لِيَكُونُوا عَالِمِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ اسْتَقْوَا التَّوَرُّمَ فِي وَسْطِ الْخُوفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ ^(٤) ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[فَلِذَلِكَ ^(٥)] طَلَبَ النَّاسُ التَّيْبِينَ ، وَلَحَبَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْمَهْلِكَةِ ، وَارْتَغِيَةَ فِي الْمُنْعَةِ ، احْتَمَلُوا رِقْلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهَ الْعَاقِبَةِ . وَلَقَدْ عَلَّمُوا كَثْرَةَ الْوَاصِفِينَ [خَالِ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا ^(٦)] كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعْجَلٌ .

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التَّكْثِيرُ مِنْ م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « لِيَتَّقُوا وَخُوفَ الْوُقُوعِ فِي الْمَضَارِّ » .

(٥) التَّكْثِيرُ مِنْ م ، ف .

(٦) التَّكْثِيرُ مِنْ م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبت ما رأيت من شَفَقِكَ بطاعة إمامك ، والحماية لتدبير خليفتك ،
 وإشفاقك من كل خلل وخلَّة دخل على ملكك وإن دق^(١) ، ونال سلطانه وإن
 صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره :
 ومن خوفك أن يجد المتأول إليه طريقا^(٢) ، والمدو عليه متعلقا : فإن السلطان
 لا يتخلو من متأول ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم
 زار^(٣) ، ومن متعلل متصفح ، ومن معجب برأيه ذى خلل في بيانه ، مواع
 يتهجين الصواب ، وبالعراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأئمة ،
 ووكيل لسكان جميع المملكة : يضع نفسه في موضع الرقيب ، وفي موضع
 الصفح على الخلفاء والوزراء : لا يعذر وإن كان تجاز الشذر واضحا . ولا يقف
 فيما يكون للشك محتملا . ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب .
 وأنه لا يعرف مصادر^(٤) الرأي من لم يشهد موارده ، ومستدبره من لم يعرف
 مستقبله . ومن محروم قد أضفته الحرمان^(٥) ، ومن لئيم قد أفسده الإحسان .
 ومن مستبطن قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضييق ذرعه وقلة
 شكره ، بظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد

٢١ و

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على
 ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالتأول المتعلل الذي يتنس على وتأولا لقيامه على السلطان .

(٣) في الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما في ب . والزارى . من قومه :
 زرى عليه يزرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) في الأصل : « صدق » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) أضفته : جملة على الضمن والحق . وفي الأصل : « أضغه » ، صوابه في
 سائر النسخ .

لو ارتفع السلطان^(١) سالت أياديه البيضى عنده ، ونعمته السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غرّه الإملاء^(٢) ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ . ومن^(٣) صاحب فتنه خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نعان في المزاج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صفوه يقاف الأدب^(٤) ، وأذله الحكم بالحق ، فهو متعيط لا يبعد غير التشنيع ، ولا يتشقى بغير الإرجاف . ولا يستريح إلا إلى الأمانى . ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارس لا خير فيه^(٥) . وخالف لا غنا عنده ، يريد أن يسوى بالكفاية ، ويرفع فوق الحقارة : لأمر ما سلف له . وإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب قديماً بحديث^(٦) . ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الدمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

(١) في الأصل : « لو ارتفع للسلطان » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل و ف : « الأمل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل ون و س .

(٤) الصفر . الياء في الأصل : « صفر » م ، ف : « صفر » . وأثبت ما في

س ، ن .

(٥) الحارس : الكاذب . يقال خرص وخرس واحترس . وزجل خراس :

كذاب . وفي التزليل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن . « حارس » بالهجمة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصله وطيه .

ثم أعلتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإيّاها حطت بحياتك لأشياعه ، واحتججك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، ولكافة لأهل الحق^(١) .

وقد استدلت بالذي أرى من شدة عنايتك ، وقرط أكثرائك ، وتفقدك لأخاير الأعداء^(٢) ، وبخلك عن مناقب الأولياء . على أن ما ظهر من نصحك أم^(٣) ، في جنب ما بطن من إخلاصك .

فامتع الله بك خليفته ، ومنعنا وإليك محبته^(٤) ، وأعادنا وإياك من قول الزور^(٥) . والتقرب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فقال لما يريد .

وذكرت أباك الله أنك جالست أخلاطا من جند الخلافة ، وجماعة من أبناء الدعوة . وشيوخا من حلة الشيعة ، وكهولا من أبناء رجال الدولة ، والمنسويين إلى الطاعة والنصرة ، (والمحبة^(٦)) الدنيوية ، دون محبة الرغبة والرهبة ، وأن رجلا من عرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجلة^(٧) ارتحل

٢١ ط

(١) المسكنة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأم : الشيء اليسير .

(٤) في الأصل : « نجة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل ون : « قبول الزور » .

(٦) التكلفة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجلة » .

الكلام ارتجال مسبقه ، وتفرد به فرداً معجباً^(١) ، وأنه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنه تعسف للمعاني وتهيج على الألفاظ ، وزعم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني ، وتركى ، ومولى ، وعربى ، وبنوى . وأنه أكثر من تحمد الله وشكره على إحسانه ومنته ، وعلى جميع أياديه وسائر نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناس الشباينة ، والأهواء المتفرقة . وأنتك اعترضت على^(٢) هذا التكلم المستبد ، وعلى هذا القائل التكلف ، الذى قسم هذه الأقسام ، وخالف [بين^(٣)] هذه الأركان . وفصل بين أنسابهم^(٤) ، وفرق بين أجناسهم ، وباعد بين أنسابهم^(٥) . وأنتك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعته أشد القذع^(٦) ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شئ يقرب من الاتفاق . وأنتك أنكرت التباعد فى النسب . والشباين فى السبب . وقلت : بل أزعم أن الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحيزي واحد ، وأن [حكم ذلك الشرق ، والقضية على^(٧)] ذلك الضم متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت . وأن الأعراق فى الأصل إيت لا تسكن [كانت^(٨)] راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتعلة عليهم إن

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) فى الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثانية فى سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط

من ف ، م .

(٥) فى الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ما أثبت .

(٦) قذعه قذأ : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) ما بين المعقوفين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا سكن متساوية فإنها متناسبة : وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي وانخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهرًا وأشدَّ خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكّي والمدني ، والبدوي والحضري ، والشامي والجلبي ، واختلاف ما بين الطائي الجبلي والطيائي الشامي ، كما يقال : أن هذيلًا أكراد العرب ، واختلاف ما بين من نزل النطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل التَّجُود وبين من نزل الأنوار .

وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تماثلت غلباً تميم ، وسُفلى قيس ، وعَجَز هوازن ، وفُصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير . وشكأن تماثلت اليمن ، وكذلك في الصور والشان والأخلاق^(١) . وكلهم مع ذلك عربي خالص ، غير مشوب ولا مملّج^(٢) ولا مدرّج^(٣) ولا مزّج^(٤) . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان . من قبل^(٥) ما طبع الله

و ٢٢

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة . والشان والشان . والأخلاق والأخلاق » .

(٢) الملبج : المجهن ، وهو العربي ولد من أمة

(٣) المدرّج : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي . وأنشد :

إذا باهلي عنده حظلية لها ولد منه فذاك المدرّج

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزّج : الدمى ، والمزّج بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه في سائر النسخ .

عليه تلك البرية من خصائص العرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جزيرة ^(١) من الشكل والصورة ^(٢) ومن الأخلاق واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادهما جميعاً عربياً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب ^(٣) لما كانت واحدة عاشتوا في القرية وفي اللغة ، والشمال والممة ، وفي الأنث والحمة ^(٤) ، وفي الأخلاق والسحنة ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفزعوا إفراناً واحداً ، وكان القالب واحداً . تشابهت الأجزاء وناسبت الأخلاق ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفق والمباينة ^(٥) من بعض ذوى الأرحام . جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتظاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان فاطمة من مناكحة بنى إسحاق وهو أحو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبق قحطان - وهو ابن عابر ^(٦) - فني إجماع ^(٧) الفريقين على التناكح والمصاهرة . ومنعما من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق . وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة .

(١) الجزيرة . بالكسر : الناحية . كما في القاموس . ف . ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) في الأصل : « الصورة » مع سقوط الواو بعدها . ووجه من سائر النسخ .

(٣) م . ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنث ، بالتحريك : الأنثى . ف فقط : « الأنثى » .

(٥) م . ف : « وفي البينة » . وفي الأصل : « الشية » . وأثبت . أي سائر النسخ .

(٦) في الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه معطان بن عابر بن شالم بن أرفكشاد .

(٧) في الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتعزيب^(١) ، وأنت أردت الألفة والتقريب .
 وزعمت أيضاً أن البتوي خراساني ، وأن نسب الأبناء نسب آبائهم ،
 وأن حسن صنيع الآباء ، وقديم فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأن
 الموالى بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمس ؛ لأن السنة جعلتهم منهم .
 فقلت : إن الموالى أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنهم عرب
 في المذمى^(٢) ، وفي العاقلة^(٣) ، وفي الوراثة^(٤) . وهذا تأويل قوله « مولى
 القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم »^(٥) ، و « الولاء لحمة كل حمة
 النسب »^(٦) . وعلى شبه ذلك صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار
 الأخنس بن شريق^(٧) وهو رجل من ثقيف ، وكذلك يعلى بن منية^(٨)
 وهو رجل من بعلبوية . وكذلك خالد بن عرفة^(٩) وهو رجل من عذرة

ظ ٢٢

(١) التعزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . في الأصل : « التخريف » صوابه
 في سائر النسخ .

(٢) في الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصة التي تمقل عن القاتل دية .

(٤) م ، ف : الوراثة .

(٥) أخرجه البخاري عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى . والحاكم والبيهقي عن ابن

عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له في الإصابة ٩١ وذكر أنه ممن اختلف في إسلامه .

(٨) في الأصل : « منيه » ، صوابه في سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ .

٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهي أمه ، وهي بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان .
 اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النسب حرمت الصدقة على موائى بنى هاشم : فإن النبي صلى الله عليه وسلم أجراه في باب التزويج والتطهير تجرى مواليتهم . وبذلك السبب قدّم النبي صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب على بنى عبد شمس ، وقرايتهم سواء ، ونسبهم واحد ، لا يقدّم المتقدم ، ولا يؤخّر المتأخّر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « منّا خير فارس في العرب : عكاشة ابن محصن^(١) » . فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك رجل منّا يا رسول الله . قال : « بل هو منّا بالحلف » . فجعل حليف القوم منهم ، كما جعل ابن أخت القوم منهم .

ثم زعمت أن الأثر قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب ، وصاروا من العرب بهذا السبب ، مع الذي باتوا به من الخلال ، وحنوا به من شرف الخصال .

على أن هؤلاء الأثر لم يلب قريش ، ولم يصح عبد مناف . وإمّا في سر بنى هاشم ، [وهاشم^(٢)] موضع العذار من خد الفرس . والعقد من كبة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذهب المصق ، وموضع المنة من البيضة ، والعين في الرأس . والروح من البدن ؛ وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكبر^(٣) ، والمذرة الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الأحمر . فقد شاركوا العرب في أنسابهم ، والموائى في أسبابهم ، وقصّوهم

(١) الإصابة ٥٦٣٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبق بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٣) في سائر النسخ : « الأكبر » .

بهذا الفصل الذي لا يبالغه فصل وإن برع ، بل لا يعشره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قدم .

فرمعت أن أنسب الجميع مقارنة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والناحية ، والحجة للخفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر نجلاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من منافع هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وقصّله^(١) وفسره ، وأنه ألغى ذكر الأثرالك فلم يبرض لهم ، وأضرب عنهم صفحا ، يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جيل . وعن برهان كل صنف : وذكر أن الخراساني يقول : نحن النقباء وأبناء النقباء ، ونحن النجباء وأبناء النجباء ، ومنا الدعاة ، قبل أن تظهر نقابة^(٢) . أو نعرف نجابة ، وقبل للمغالية والمباراة ، وقبل كشف الفيناع وزوال النقبة وزوال ملك أعدائنا عن مستقره ، وثبات ملك أوليانا في نصابه . وبين ذلك ما أمثنا وشردنا ، ونهكنا ضرباً^(٣) وبضمننا بالسيوف الحداد^(٤) ، وعذنا بالويل العذاب .

و ٢٣

وبنا شق الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الانتاعسر النقباء . والسمعون النجباء . ونحن الخندقية^(٥) ، ونحن الكفئية وأبناء الكفئية^(٦) .

(١) بعده في معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة : بالفتح المصدر . وبالكسر الاسم . والنقيب : تعريف على القوم لقدم عليهم الذي يعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهقة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتي .

(٦) م ، ف : « الكنفية وأبناء الكنفية » .

ومنا المستجيبة ومن يهرج الشيعة^(١) ومنا نيم خزان^(٢) وأصحاب الجوزين^(٣)
ومنا الرغندية^(٤) والآذمردية^(٥).

ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد ، وأبدنا العدو بكلٍّ وإدٍ . ونحن أهل هذه
الثقولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومثيت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت
هذه الرياح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصرنا النبي صلى الله عليه وسلم
، أول الزمان ، وأهل خراسان نصرنا ورثته في آخر الزمان . غذانا بذلك
الهاون ونعدونا به أبناءنا ، وصار لنا نسباً لا نعرف إلا به ، وديننا لا نوال
إلا عليه .

ثم نحن على وتيرة واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نعرف بالشيعة ،
ولدين بالطاعة ، ونقتل فيها ونموت عليها . سبانا موصوفٌ ، ولباسنا معروف .
نحن أصحاب الرأيات السود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ،
والذين يهدمون مدن الجبابرة ، وينزعون الملك من أيدي الظلمة . وفيما

(١) ن ، س : « يهرج » م : « الشيعة » .

(٢) ف : « نيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوزين مهلة في الأصل وإلجامها من س ، ن . وفي ف : « الجوزين »

م : « الجوزين » .

(٤) رغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . في الأصل : « الشعيدية »
« ألب » أي سائر السبع . وسيأتي قوله : « ولنا الأصوات التي تسقط منها الجبال » :

(٥) الآذمردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال

الله ذكر اوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقَدَّمَ الْخَبَرُ ، وَصَحَّ الْأَثَرُ . وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ صِفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ مَعْمُورِيَّةً^(١) وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلَيْهَا وَيَسْبُونَ ذُرَارِيَهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَعْتِهِمْ : « شُعُومُ شُعُورِ النَّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرِّهَانِ » . فَصَدَّقَ الْفِعْلُ الْقَوْلَ ، وَحَقَّقَ الْخَبَرُ الْعِيَانَ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا وَذَكَرَ بِلَاءُنَا أَمَامُ الْأُمَّةِ ، وَأَبُو الْخَلَّائِقِ الْعَشْرَةِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ^(٢) ، حِينَ أَرَادَ تَوْجِيَةَ الدُّعَاةِ إِلَى الْإِفْطَاقِ ، وَتَفْرِيقَ شِيعَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ قَالَ :

أَمَّا الْبَصْرَةُ وَسَوَادُهَا فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا عُمَانُ وَصَنَانِعُ عُثْمَانَ ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْ شِيعَتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَشِيعَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَآلِ أَبِي سُفْيَانَ . وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ فَخَرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ^(٣) ، وَخَارِجَةٌ مَارِقَةٌ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الشَّرْقِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ صُدُورًا سَلِيمَةً وَقُوتِيًّا بَاسِلَةً ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَخَامِرْهَا الْأَدْوَاءُ ، وَلَمْ تَعْتَقِبْهَا الْبِدْعُ ، وَهُمْ مَغِيظُونَ مُوتَرُونَ . وَهُنَاكَ الْقَدَدُ [وَالْمُدَّةُ^(٤)] ، وَالْعِتَادُ وَالنَّجْدَةُ .

ظ ٢٣

(١) عمورية : بلاد في بلاد الروم . فتحها المعتصم العباسي سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة في كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يَايَوْمَ وَقَعَتْ عُمُورِيَّةٌ انْصَرَفَتْ عَنْكَ الْمُنَى حِفْلًا مَعْبُودَةً الْحَلَبِ

(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والتصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفي سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذي شروا أنفسهم أي باعوها في سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

ثم قال : [وأنا أنفأ] ^(١) إلى حيث يطلع منه النهار ^(٢) . فكُنَّا خَيْرَ جُنْدٍ
لِخَيْرِ إِمَامٍ ؛ فَصَدَّقْنَا ظَنَّهُ ، وَتَبَيَّنَّا رَأْيَهُ ، وَصَوَّبْنَا فِرَاسَتَهُ .

وقال مرةً أخرى :

أمرنا هذا شرقاً لا غرباً ، ومُقبِل لا مدبر ^(٣) ، يطلع كطلوع الشمس ،
ويبتدئ على الأفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف ^(٤) ، وتناه
الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّخَصَجِيَّةَ ^(٥) ، والدَّاقِيَّةَ ، والدَّكُوَانِيَّةَ ، والراشدية ^(٦) .
ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أَيْتَمَ نَعْرِينَ سِيَارَ . وابن جُدَيْعِ الكَرْمَانِي ^(٧) ،
وشيبان بن سَلَّةِ الخارجي . ونحن أصحاب نُبَاتةَ بن حنظلة ^(٨) ، وعامر بن
مُبارة ^(٩) ، وأصحاب ابن هيرة . قَلْنَا قَدْرَهُ هَذَا الْأَمْرَ وَحَدِيثَهُ ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ

(١) موضعها يابض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » . قط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيث تبلغه الأخفاف » .

(٥) في الأصل ، م ، ف : « الصبيحة » . صوابه في ن ، س .

(٦) الصبيحية : نسبة إلى صبح ، وكان أحد الشكاعين . انظر الحيوان
٣٩٥ : ١ و البخل ، ٤ والطبرى ٩ : ١٣٦ في حوادث سنة ١٣٢ . والداقية ، بدلا في
الطبرى : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبرى في الوضع الذي أشرت إليه .

(٧) هو علي بن - دج الكرماني . الطبرى ٩ : ٩١ ، ٩٧ . والاشتقاق ٣٩٥
٥١ ادر المخطوطات ٢ : ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧ .

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بني كاذب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ و الجمهرة ٢٥٤ . وكان من قواد ابن هيرة .

(٢) - رسائل الجاحظ)

ومنا قاتل مروان^(١).

ونحن قومٌ لنا أجسامٌ وأجرامٌ ، وشعورٌ وهامٌ ، ومناكبٌ عظامٌ ،
وجباهٌ عراضٌ ، وقصرٌ غلاظ^(٢) ، وسواعدٌ طوالٌ .

ونحن أولئك للذكورة ، وأنسلُ بقولة ، وأقلُ ضوئاً وضوءة ، وأقلُ
إناماً وأنقِ أرحاماً^(٣) . وأشدُّ عصباً وأتمُّ عظاماً . وأبداننا أحملُ للسلاح ،
وتجفأفنا^(٤) أملاً للعيون .

ونحن أكثرُ مادةً ، وأكثرُ عدداً وعدةً .

ولو أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ كثَّروا من وراء النهرِ منا لظفروا عليهم بالتدَد .
فأما الأبدُ وشدةُ الأمرِ ، فليس لأحدٍ بعدَ عادٍ وثمودَ والعائلةِ والسكنمانيين
مثلُ أبداننا وأشراننا .

(١) في الطبري ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل
البصرة يقال له « الفود » . في الأصل : « وبنّا قاتل من ولى » صوابه في سائر النسخ
(٢) القصر ، بالتحريك : جمع فصرة ، وهي أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس
قوله تعالى : « إنها ترى بشر ركالقصر » في قراءته بفتح الصاد . في الأصل : « قصص »
وفي ن ، س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإنام : أن تلد اثنين في بطن . وأنقِ أرحاماً .
أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحساباً وأوثق أبداناً » وفي ن ، س :
« وأقل إيامي وأنقِ أرحاماً » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جل به الفرس من سلاح وآلة تنقيه الجراح في الحرب
وفي الأصل : « وخفافنا » وفي سائر الأصول : « وأخفافنا » ، والوجه ما أثبت
وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعبة : « ولا تعرفون الأقيّة ولا السراويلات
ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطرافُ جُمعوا في حَلَبَةٍ واحدة ،
لكنّا أَكثَرُ في العيون ، وأَهْوَلُ في الصدور .

ومتى رأيتَ مواكبتنا وفرساننا ، وبُنودنا التي لا يُعْجَبُها غيرُنا ، علِمْتَ
أَنّا لم نُخْلَقْ إِلَّا لِقَلْبِ الدُّرُولِ ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان .

٢٤ و

ولو أنَّ أَهْلَ الثُّبُتِ ورجالَ الزَّايِجِ^(١) ، وفرسانَ الهند ، وحَلَبَةَ الرُّومِ ، هَجَمَ
عليهم هاشمُ بنُ أَشْناخِجِ^(٢) لما امتنعوا من طَرْحِ السِّلَاحِ والحَرْبِ في البلاد .
ونحنُ أَصحابُ اللَّحَى وأربابُ النُّعَى ، وأهلُ الحِلْمِ والحِجَبَةِ ، وأهلُ
النَّخَانَةِ^(٣) في الرأى ، والبعد من الفَيْشِ . ولنا كِبُودُ الشَّامِ المُعْرِضِينَ لِلْحَرَمِ ،
والمُتَهَكِّينَ لِكُلِّ حَرَمٍ .

ونحنُ ناسٌ لنا أَمَانَةٌ وفينا عِفَّةٌ . ونحنُ نَجْمُعُ بَيْنَ التُّرَاثَةِ والقَنَاعَةِ والصَّبْرِ
على الخِلْمَةِ ، والتَّجْمِيرِ عِنْدَ بَعْدِ الشُّقَّةِ^(٤) . ولنا الطُّبُولُ المَهْوُودَةُ العِظَامِ والبُنُودُ ،
ونحنُ أَصحابُ التَّجَافُيفِ والأَجْرَاسِ ، والبَازِيكَندِ^(٥) والمُيُودُ القُلُولِ ، والأَعْمَادُ

(١) الزايج بفتح الباء وكسر ها : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين .
وفي الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « وزعم تجار الثبت ممن قد دخل الصين والزايج » . م :
« الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل . وإثباتها من سائر النسخ والطبرى
٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) في الأصل : « التجسابة » ، وفي م ، س : « التجانة » ، وأثبت
ما في سائر النسخ . والمراد قوة الرأى وجزائه .

(٤) تجمير الجيش : إيقاؤه في ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء ، يلقي على الكتف . و « باز » في الفارسية =

اللقفة^(١) والشوارب المعقرية ، والقلائس الشاشية ، والخيول الشهيرة^(٢) .
والكافر كوبات^(٣) والطبرزينات^(٤) [في الأكف] ، والحناجر في الأوساط .
ولنا حسنُ الجلسة على ظهور الليل . ولنا الأصوات التي تُسقط منها الخبال .
وليس في الأرض صناعة غريبة من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ،
وإقناع وصنعة^(٥) ، وحقٍّ ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا قرأت فيها
الرواساء^(٦) ، وبرّت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من لبّد وركابٍ ودرع . ولنا مما جعلناه رياضةً
وتمريناً ، وإرهاصاً للحرب ، وتنقيفاً ودربةً المجاورة والمُشَاوَلَة ، [و] للكرِّ

== بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « البار كند »
وفي سائر النسخ : « البار فكند » .

(١) اللقفة : العوجة . وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف :
« والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة واللقفة » .

(٢) في البيان : « والشهيرة : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والقرف
من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب ، وهي القرعة . انظر حواشي البيان
١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس .
مركب من « نبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله مسمى بذلك لالبرام
وضعه بجانب السرج . استنبجاس ٢٧٠ . والعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ .
وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) قرآعه : علاه وعلاه .

بعد السكر : مثل الدُّبُوق^(١) ، والنَّزْوُ على الخيل صفراً . ومثل الطَّبْطَاب^(٢) والصَّوَالِجَةُ الكبير ، ثم رمى المَجْمُعة^(٣) ، والبرجاس^(٤) والطائر الخَطَاف .
فنعن أحقُّ بالأثرية^(٥) ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزعم أن القرية^(٦) تُستَحَقُّ بالأسباب الناجية ، وبالأرحام الشائكة ، وبالقدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، وللدخج الكافي^(٧) بالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، وينوح مالاخ نبح ، وينشد ما أهل بالخج ، وما هبَّت الصُّبا ، وما كان للزيت عاصر : وبالكلام للثبور والقول للثأور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن ذلك من^(٨) آ عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر الملقى ، ونصلها بحفظ الأُمَمِيِّين^(٩) . الذين

ظ ٢٤

(١) فى اللسان : « الدُّبُوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة . »

(٢) الطَّبْطَاب : مضرب الكرة .

(٣) المَجْمُعة : مانصب من الحيوان للرمى والقفل ،

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية

١٨ . فى الأصل و م : « البرجاسب » وفى ف : « البرجاسبار » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤ .

(٦) القرية : القرابة م : « إن تسكن القرية » ف « إن تسكن القرى » :

(٧) م ، ف : « والمدح الباقي » ولعلها : « والمدح الباقي » .

(٨) التكلفة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير

ينتهى فى ص ٢٥ أثبتته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يشكون على الكتب للدونة ، والخطوط المطرسة . ونحن أمحاب التفاخر
والتنافر ، والتنازع في الشرف ، والتعالم إلى كل حكم مقنع وكاهن سجاج
ولنا التعاير بالشالب ، والتفاخر بالنائب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا
وتقيدها أيضاً بالمشور المرسل ، بعد للوزون العدل ، بلسان أمضى من السنان ،
وأرهف من السيف الحسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المَعْرِفُ في الحفاظ كمن
هذا فيه حادث . وهذا باب يتقدم فيه الثالث القديم الطارق الحديث .

وطالاب الطوائل رجالان : سجستاني وأعرابي . وهل أكثر الثقباء ،
إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كأي عبد الحيد قحطبة
ابن شبيب الطائي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك
ابن الحسيم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الدهلي ، وكأبي عمرو لاهز
ابن قريظ التمرّني^(١) ، وأبي عتيبة موسى بن كعب التمرّاني^(٢) ، وأبي سهل القاسم
ابن محاسن المزني ، ومن كان يجرى بحرى الثقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك
ابن الطواف التمرّني .

وبعد فن هذا الذي باشر قتل مروان^(٣) ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن
زيد بن عصبة بن ادري القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : « كان من وجوه
أهل دعوة بني العباس » وفي الأصول : « المزني » .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفي بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن
حزم ٤٠٩ . وللعارف ٤٨ .

(٣) انظر ما سبق في ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة
بين العرب وغيرهم .

قَتَلَ ابنُ ضُبَارَةَ ، ومن قَتَلَ نُبَاتَةَ بنَ حَنْظَلَةَ ، إِلَّا عَرَبَ الدَّعْوَةَ ، وَالصَّمِيمُ من
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ؟! ومن فَتَحَ السَّنْدَ إِلا مُوسَى بنَ كَعْبٍ ، ومن فَتَحَ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَّا مُحَمَّدُ
ابنِ الْأَشْعَثِ ؟!

وَقُلْتُ : وَقَالَ : وَتَقُولُ الْمَوَالِي : لَنَا النُّصِيحَةُ الْخَالِصَةُ ، وَالْحُبَّةُ الرَّاسِخَةُ ،
وَنَحْنُ مَوْضِعُ الثِّقَةِ عِنْدَ الشَّدَةِ . وَعَالُ الْمَوْلَى ^(١) مِنْ تَحْتِ مُوجِبَةِ لِحْجَةِ الْمَوْلَى
بِغَيْرِ فَوْقٍ ، لِأَنَّ شَرَفَ مَوْلَاهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ، وَكِرْمُهُ زَائِدٌ فِي كِرْمِهِ ، وَخَوَلُهُ
سَقَطٌ لِقَدْرِهِ . وَبُودُهُ أَنَّ خِصَالَ الْكِرَامِ كُلِّهَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ : لِأَنَّهُ كُلُّهَا كَانَ
مَوْلَاهُ أَكْبَرُ وَأَشْرَفُ وَأَظْهَرُ ، كَانَ هُوَ بِهَا أَشْرَفَ وَأَنْبَلَ . وَمَوْلَاكَ أَسْلَمَ لَكَ
مَدْرًا ، وَأَرَدْتُ ضَمِيرًا ، وَأَقْلُ حَسَدًا .

وَبَعْدُ فَلَوْلَا لِحْجَةُ كَلِمَةِ النَّسَبِ ^(٢) ، فَقَدْ صَارَ لَنَا النَّسَبُ الَّذِي يَصُورُ بِهِ
الْعَرَبِيُّ ، وَلَنَا الْأَصْلُ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِهِ الْعَجَمِيُّ .

قَالَ : وَالضَّمِيرُ ضُرُوبٌ ، فَأَكْرَمُهَا كُلُّهَا الضَّمِيرُ عَلَى إِقْشَاءِ السَّرِّ . وَالْمَوْلَى
هَذِهِ الْمَكْرَمَةُ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ .

وَنَحْنُ أَخَصُّ مَدْخَلًا ، وَأَطْلَفُ فِي الْخِدْمَةِ مَسْلُكًا . وَنَسَامِعُ الطَّاعَةَ
وَالْخِدْمَةَ وَالْإِخْلَاصَ وَحُسْنَ النِّيَّةِ ، خِدْمَةُ الْأَهْبَاءِ لِلْأَيَّامِ ، وَالْأَيَّامُ لِلْأَجْدَادِ ،
وَهُمْ بِمَوَالِيهِمْ آتَسُ ، وَبِنَاحِيَّتِهِمْ أَوْثَقُ ، وَبِكِفَايَتِهِمْ أَسْرَرُ .

وَقَدْ كَانَ الْمُتَعَمِّرُ ، وَمُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ ، وَعَلِيٌّ بنُ عَبْدِ اللَّهِ ، يَخْتَصُّونَ مَوَالِيَهُمْ
بِمُلْكَةِ الْبَسْطِ وَالْإِنْيَاسِ ، لَا يُبْهَرِجُونَ الْأَسْوَدَ لِسَوَادِهِ ^(٣) ، وَلَا الدَّمِيمَ

(١) م : ه المولى ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ما سبق في ١٢ ص ٧ .

(٣) يهريج النوى : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يشعرون من قدره .

لدميته ، ولا الصناعة الدينية لذاتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ،
ويعلمون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم ، وذلك بخضرة من العمومة
وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد بن حارثة
مولاه ، حين عقده يوم مؤتة على جثة بني هاشم . وجعله أمير كل بلدة
يعلمها^(١) .

ويتذاكرون حبه لأمامة بن زيد ، وهو الحب ابن الحب^(٢) . وعقده
على عطاء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بامر مواليه ، كابي أنسة^(٣) . وشقران^(٤) ،
وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رموس النقياء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

(١) أي يدخلها ويفتحها .

(٢) الثانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسم قيل أنسة أيضا كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما في
جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . و١٠١٠
في خلافة أبي بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن
عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم
في نبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب
الماء عليه في غسله .

أبي مُعَيْط . فلما مناقب الخراسانية . ولما مناقب الموالي في هذه الدعوة ،
ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ،
خدمتهم كباراً وحملاًهم على عواتقنا صفاراً . هذا مع حق الرضاع والخولة ،
والنشوء في الكتاب ، والتقلب في تلك العراض التي لم يبلغها إلا كل
سميد الجذ ، وجبه في اللوك . فقد شاركنا العري في فقره ، والخراساني
في مجده ، والبتوي في فضله ، ثم نفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .
قالوا : ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طياع الدماء ؛ وهم بنا آتس
والينا أسكن ، وإلى لقائنا أحن ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم
أشبه . فمن أحق بالآخرة ، وأولى بحسن النزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه
الخلل فيه .

وقلت وذكرت أن البتوي قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي تخرج الدولة وتطلع الدعوة ؛ ومنها نجم هذا
القرن ، وصبا هذا الناب^(١) ، وتفجّر هذا ينبوع ، واستفاض هذا البحر ،
حتى ضرب الحق بجمرانه^(٢) ، وطلق الآفاق بضياهه ، فأبرأ من الشتم القديم ،
وشفى من الداء العضال ، وأغنى من العيلة^(٣) ، وبصر من العمى^(٤) .

(١) صبا الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجمرانه : استقر وثبت . وأصل الجمران بطن عتق البعير . فإذا
برك البعير واستقر قيل : ألقى جمرانه . وفي حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق
بجرانه » .

(٣) أي بد العيلة وهي الفقر .

(٤) هنا يدهى السقط الذي بدأ في ص ٢١ ، وأثبتته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرُ الخلافة ، والقرار بعد الحولة ^(١) ،
وفيهما بقية رجال الدعوة ، وأبناء الشيعة ، وهى خراسان العراق ، وبيت
الخلافة ، وموضع المادة .

قال : وأنا أعرفُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثر ترددا فيه من جدى ^(٢) ،
وأحق فى هذا الفضل ^(٣) من التولى والعربى . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُسكّر من
الصبر تحت ظلال الشيوف القصار والرماح الطوال ^(٤) . ولنا معاقبة الأبطال
عند تحطم القنا واقطاع الصفائح ^(٥) . ولنا اللواجأة بالسكاكين ، وثأقى الخناجر
بالعيون ، ونحن حماة للمستاحم ، وأبناء المضايق . ونحن أهل الثبات عند
الجولة ، والمعرفة عند الحيرة ^(٦) ، وأصحاب الشهرة ، وزينة العساكر
وحلى الجيوش ، ومن يمشى فى الرُمح ، ويختال بين الصفين . ونحن أصحاب
الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلق ، ونقب المدن ، والضحك على ظلمات
السيوف وأطراف الرماح . ورضخ الجندل . وهشم الغمد ، والصبر على
الجراح وعلى جمر السلاح ^(٧) إذا طار قلب الأعراى ، وساء ظنُّ الخراسانى .
ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع العقل ، وحنة

(١) الحولة . بإلقاء المهمة الفتوحة : التحول والتنقل .

(٢) فى الأصل ون ، س : « وأكثر ترددا من جدى » . وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحق بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل . تماشى فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » ، وفى سائر النسخ : « الحيرة » ،

وأتوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجرة الرمح ، إذا طعنه به فشى وهو يجره .

الطُرف . وثبتَ اقدمين ، وقلة السكتى بجبل العقابين^(١) ، والبعد من الإقرار^(٢) ، وقلة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوار^(٣) وجفاء الأتارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورموس القناطر . ونحن الموت الأحر عند أبواب الثقب . ولنا المواجهة في الأرزقة ، والعبر على قتال الشجون . فقل عن ذلك الخايدية^(٤) ، والسكتية ، والبلائية ، والحربية^(٥) . ونحن أصحاب المكيدات^(٦) وأرباب التيات . وقتل الناس جهاراً في الأسواق والطقات .

ونحن نجتمع بين السلة والراحنة^(٧) . ونحن أصحاب القنا الطول ماكنث رجالة ، والمطاردة القصار ماكنث فرسانا^(٨) . فإن ميراسكننا^(٩) فالحنف

(١) السكتى : التبل والقلب . والعقابان : حشيتان يشبع بينهما الرجل فيجلد . اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من القرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) في « نظم الأصول : « حفة » . بالخاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طاعة منسوبون إلى خلد . وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « مدعى السكتية والحليدية والحربية والبلائية » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى .

(٥) الحربية : سبة إلى الحرية ، بالتصغير . وهى موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان أقوى للشطار .

(٦) هذا ما في ف . وفي سائر الأصول : « المكبرات » .

(٧) السلة : الدعة في السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كين ، وهم الذين يكونون ويخفون في الحرب .

القاضي ، والسهم الذئباف . وإن كنا طلائع فكننا يقوم مقام أمير الجيش .
نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض . ونقاتل
في القرية كما نقاتل في الحلة .

ونحن أفتك وأخشب^(١) ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثغور ،
مع حسن القدود وجودة الخرم ومقادير اللحى ، وحسن العمى ، والنفس المروءة .
وأصحاب الباطل والفتوة^(٢) ، ثم الخط والكثابة ، والنفق والرؤاية .

ولنا بغداد بأسرها ، نكن ما سكتنا ، ونتحرك ما تحركنا . ولدينا
كلها معلقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقصرها لجميع
الديار تبع لها^(٣) . وكذلك أهلها لأهلها ، وفناتها لفناتها ، وخلعها
لخلعها^(٤) . ورؤسائها لرؤسائها ، وصلحائها لصلحائها .

ونحن بعد تربية الخلفاء ، وجيران الوزراء ، ولدينا في أفنية مؤكنا ،
ونحن أجنحة خلفائنا ، فأخذنا بآثارهم ، واحتدبنا على منالهم ، فلسنا نعرف
سواهم . ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحد قط من خطّاب ملوكهم ،
ومن يترشح للاعتراض عليهم . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بالقرب في النزلة
يتمن هذه الخصال فيه ، وهذه الخلال له .

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهي سقط الأصل الذي بدأ في ص ٢٦ س ٦ وإتيانه من سائر النسخ .

(٤) كذا في جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنْ ذَهَبَ حِفْظُكَ اللَّهُ بِعَقَبِ هَذِهِ الْاِحتِجَاجَاتِ ، وَعِنْدَ مَقْلَعِ هَذِهِ
الِاسْتِدْلَالَاتِ ، نَسْتَمِلُ هَذِهِ لِلْعَارِضَةِ^(١) بِمَنَاقِبِ الْأَتْرَافِ ، وَلِلْمَوَازِنَةِ بَيْنَ
حِصَانِهِمْ وَحِصَانِ كُلِّ صَنَفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، سَلَكْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ
سَبِيلَ أَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَطَرِيقَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ فِي الْاِخْتِلَافِ
الَّذِي بَيْنَهُمْ .

وَكِتَابُنَا هَذَا إِنَّمَا تَكَافُّنَاهُ لِنُؤَافِ بَيْنَ قَوَائِمِهِمُ الَّتِي كَانَتْ مُخْتَلِفَةً ، وَلِنُزِيدَ
الْأَلْفَةَ إِنْ كَانَتْ مُؤْتَلِفَةً ، وَلِنُخَيِّرَ عَنِ اتِّفَاقِ أَسْبَابِهِمْ لِنَجْتَمِعَ كُلُّهُمْ ، وَلِنَقْلَمَ
صُدُورَهُمْ ، وَلِنَعْرِفَ مَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ مَوْضِعَ التَّفَاوُتِ فِي النَّسَبِ ،
وَكَمْ مَقْدَارُ الْخِلَافِ فِي الْخُصْبِ^(٢) ، فَلَا يَغْيِرُ بَعْضُهُمْ مَغْيِرَ ، وَلَا يَفْسِدُ عَدُوٌّ
بِأَبْطِلَ مُمُوهُ وَشَبَّاهُ مَرْوَرَةٌ : فَإِنَّ الْمُنَافِقَ الْعَالِيَةَ ، وَالْعَدُوَّ ذَا الْكَيْدِ الْعَظِيمِ ،
قَدْ بَصُورَ لَهُ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَيُلَاسِ الْإِضَاعَةَ ثِيَابَ الْحَزْمِ .
إِلَّا أَنْ عَلَى حَالِ سَنَدِ كَرَجَلًا مِنْ أَحَادِيثِ زَوَائِدِهَا وَوَعِيدِهَا ، وَأُمُورِ رَأْيَانِهَا
وَشَاهِدِهَا ، وَفَضَائِلِ نَاقُضَاتِهَا^(٣) مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَسَمْعَاتِهَا .

٢٥

وَسَنَدُ كَرَجَمِ جَمِيعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ^(٤) مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ نَنْظُرُ
أَيْنَهُمْ لَهَا أَشَدُّ سَمْعًا ، وَبِهِ أَشَدُّ اسْتِقْلَالًا ، وَمَنْ أَثَقَبَ كَيْسًا وَأَفْضَحَ عَيْنًا

(١) مَا عَدَا الْأَصْلَ وَبَعْضُ أَصُولِهِ : « الْمَقَاوِضَةُ » ، وَالْوَجْهُ مَا أَثَبَتْ .

(٢) م ، ف : « كَمْ مَقْدَارُ » بِدُونِ وَلَوْ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « نَقَضَاتُهَا » ، وَأَثَبَتْ مَا فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٤) فِي سَائِرِ النُّسخِ : « مَا حَفِظَ لِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ » .

وأذكرى يقيناً ، وأبعد غوراً وأجمع أسراً ، وأعمّ خواطر وأكثّر غرائب ،
وأبدع طريقاً ، وأدوم نفعاً في الحروب ، وأضرى وأدرب ذرية ، وأغض
مكيدة^(١) ، وأشدّ احتراساً وألطف احتيلاً ؛ حتى يكون الخيار في يد الناظر
للتصفح لمعانيه ، وللقاب لوجوهه ، والمفكر في أبوابه ، والمقابل بين أوله
 وآخره . فلا نكون نحن المتحذرين شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض
على بعض . بل (لعننا أن لا^(٢)) نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصفة . كان
أبعد له من مذاهب الجدال والعراء ، واستعمال الهوى .

وقد ظن ناس أن أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصورة
والخط والمجاء ، أن حقائقها^(٣) ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر
على حسب ما توهمه ؛ ألا ترى أن اسم الشاكرية^(٤) وإن خالف في الصورة
والمجاء اسم الجنود ، فإن المعنى فيهما ليس ببعيد ؛ لأنهم يرجعون إلى معنى
واحد وعمل واحد . والذي إليه يرجعون طاعة الخلفاء ، وتأيد السطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجموعاً لأنهم في عامة

(١) بعده في الأصل : « وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً في الحروب » ، وهو تكرار .

(٢) السكدة من سائر السخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكري : الأجير

المستخدم ، معرب جاكرك » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجبَ ممن جعل الخال ولدًا ، وأخليف من الصميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جعل ابن الألاعنة^(١) للولود على فراش البعل منسوبًا إلى أمه .

وقد جعلوا إسماعيل وهو ابن محمدين عربيًا : لأن الله تعالى فتح لهاته بالعربية المينة على غير الثاقين والترتيب ، ثم فطره على الفعاحة العجيبة على غير النسوة والتقدير^(٢) . وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعاً^(٣) على ذلك التركيب ، وسواه تلك النسوة ، وصاغه تلك الصياغة^(٤) ، ثم حباه من طبائعهم ، ومنعه من أخلاقهم وسماتهم ، وطبعه من كرمهم وأشتتهم ومهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوته : فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل إبراهيم أباً لمن لم يلد ، فالتبوي خراساني من جهة الولادة ، والولي عربي من جهة المدعى والعاقلة^(٥) . وإن أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نبل عمرو إلا عياراً لتبيناه عنه^(٦) ، وإن وثقنا^(٧) أنه لم يخلق من صلبه .

(١) الألاعنة : أن يقذف الرجل امرأته رجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التسكة من سائر النسخ .

(٤) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « الصينة » .

(٥) انظر ما سبق في ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو الحقناه به » .

(٧) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكا جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهن لم يلدنهم ولا أرضنهم ، وفي بعض القراءات ^(١) : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ » ، على قوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » ^(٢) . وجعل للمرأة من جهة الرضاع أمًا ، وجعل [امرأة] البعل أم ولد البعل من غيرها ، وجعل [الرب والدًا] ، وجعل الم أمًا [في كتاب الله] ^(٣) . وهم عبيده لا يتقلبون إلا فيما قلبهم فيه . وله أن يعمل من عباده من شاء عربيًا ومن شاء مجعياً ، ومن شاء قرشيًا ، ومن شاء زنجياً ؛ كما له أن يعمل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى] ^(٤) ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق اللائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم فلم يعمل له أب ولا أم ، وخلق من طين ونسبه إليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجاً وسكناً . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجن من نار السموم ، وادم من طين ، وعيسى من غير نطفة . وخلق السماء من دُخان ، والأرض من ماء ، وخلق إسحاق من عاتق . وأنطق عيسى في العهد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم سليمان منطق الطير . وكلام النمل ، وعلم الخفظة من اللائكة جميع الأنسة حتى كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب أهبان بن أوس ^(٥) .

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب .

تفسير أبي حيان ٧ : ٣١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكلفة والثلاث قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكلفة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصعابة ، ذكروا أن الذئب يله ثم يدره بالرسول ،

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والجنات
منهم^(١)] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب
والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والثاقين . فكيف يتعجب الجاهلون من
إنطلاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القسطنطينية ، ممن لا علم له ، ببعض العدنانية ،
وهي على القسطنطينية أشد . فأثنا جواب العدنانية فليس النظام سهل المخرج ،
قريب المعنى ؛ لأن بني قحطان لا يدعون لقحطان^(٢) فيعطيه الله مثل
هذه الأعموبة .

وما الذي قسم الله - عز اسمه - بين الناس من ذلك ، إلا كما صنع في طينة
الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعض ذهباً ، وبعض
نحاساً ، وبعض رصاصاً ، وبعض حديداً ، وبعض تراباً ، وبعض فضة فخاراً .
وكذلك الزجاج^(٣) ، والتمرّة ، والزرنيخ ، والتمرك ، والكبريت^(٤) ، والقار^(٥)

== انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣
٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : « لخير » .
سواه في سائر النسخ وللراجع للتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، سواه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والقار » تحريف . والقار : الرقت .

(٣ - رسائل الجاحظ)

والتوتيا، والثوئادر^(١)، والرقشينا، والمغناطيس .

ومن يَحصى عددَ أجزاء الأرض^(٢)، وأصنافَ الفلزِّ ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوى خراساني . وإذا كان الخراساني مولى، والمولى عربى . فقد صار الخراساني والبنوى والمولى والعربى واحداً

وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من خصال الخلاف ، بل هم فى معظم الأمر وفى كُثير الشأن^(٣) وعمود النسب متفقون . والأثرأُ خراسانية وموالى الخلفاء قُصرة^(٤) ، فقد صار التركي إلى الجميع راجعاً، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائر ذلك ساحت الثُغوس ، وذهب التعقيد^(٥)، ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستئصال ؛ فلم يبقَ إلَّا التحاسد والتنافس الذى لا يزال يكون بين الثقارين فى القرابة وفى المجاورة .

على أن التوازن والتسالم^(٦) فى القرابات وفى بنى الأعمام والعشائر ، أفضى وأعم من البُعداء .

(١) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى :

« والذى تولى كبره منهم » .

(٤) نصرة ، بالضم ، أى أدى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دأى

النسب . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كتابة عن الضمنية العقودة ، ويقولون الرجل إذا سكن غضبه : قد

تحلّت عقده . وفى الأصل وبعض أصول ن : « الثقل » ، تحريف .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن فى الفساد » ، صوابه فى

سائر النسخ .

وَعَلَوْفِ التَّخَاذُلِ وَلِحُبِّ التَّنَاصُرِ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ - انضَمَّ بَعْضُ
الْقَبَائِلِ فِي الْبُوَادِي إِلَى بَعْضٍ ، يَنْزِلُونَ مَعًا وَيُطْلَعُونَ مَعًا . وَمِنْ فَارَقَ
أَصْحَابَهُ أَقَلٌّ^(١) ، [وَ] مِنْ نَصَرَ ابْنَ عَمِّهِ أَكْثَرُ . وَمَنْ اغْتَبَطَ بِنِعْمَتِهِ وَتَمَتَّى بِقَاءِهَا
وَالزِّيَادَةِ فِيهَا أَكْثَرُ تَمَنَّى بِقَائِهَا الْفَوَائِلُ^(٢) ، وَطَلَبَ انْقِطَاعِهَا وَزَوَالَهَا . وَلَا بَدَّ
فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ التَّنَافُسِ وَالتَّخَاذُلِ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .
وَلَيْسَ يَحُوزُ أَنْ تَصْفَوْهُ الدُّنْيَا وَتَنْتَقِي مِنَ الْفَسَادِ وَالْمَكْرُوهِ^(٣) حَتَّى يَمُوتَ
جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، وَتَسْتَوِيَ لِأَهْلِهَا ، وَتَتَمَهَّدَ لِسُكَّانِهَا عَلَى مَا يَشْتَهُونَ وَيَهْوُونَ ؛
لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ دَارِ الْجَزَاءِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ صِفَةُ دَارِ الْعَمَلِ .

٢٦ ظ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْلَى » .

(٢) الْفَوَائِلُ : الْهَلَكَاتُ . وَيُقَالُ بِغَيْتِكَ الشَّيْءُ : طَلَبْتَهُ لَكَ وَتَجَنَّبْتَهُ . وَفِي التَّنْزِيلِ

الْعَزِيزُ : « يَغْنُوكُمُ الْفِتْنَةُ » ، أَيْ يَغْنُونَ لَكُمْ .

(٣) نَقِيَ الشَّيْءُ يَنْقِي : صَارَ نَقِيًّا خَالِصًا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب كنتُ كُتِبَتْهُ أَيَّامَ الْمُتَعَصِّمِ بِاللَّهِ^(١)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، لِأَسْبَابٍ يَطُولُ شَرْحُهَا، فَلِذَلِكَ لَمْ أَعْرِضْ لِلإِخْبَارِ عَنْهَا. وَأَحَبَبْتُ أَنْ يَكُونَ كِتَابًا قَصْدًا، وَمَذْهَبًا عَدْلًا، وَلَا يَكُونَ كِتَابَ إِسْرَافٍ فِي مَدِيحِ قَوْمٍ، وَإِغْرَاقٍ فِي هِمَا آخَرِينَ. وَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ كَذَلِكَ شَابَهُ الْكَذِبُ، وَغَالَطَهُ التَّزْيِيدُ، وَبُنِيَ أَسَاسُهُ عَلَى التَّكْلُفِ، وَخَرَجَ كَلَامُهُ تَخْرُجَ الْاِسْتِكْرَامِ وَالتَّغْلِيظِ^(٢).

وَأَنْفَعُ الْمَدَانِحِ^(٣) لِلْمَادِحِ وَأَجْدَاهَا عَلَى الْمُدْوَحِ، وَأَبْقَاهَا أَثَرًا وَأَحْسَنَاهَا ذِكْرًا: أَنْ يَكُونَ لِلدِّعْجِ صِدْقًا، وَلِلظَّاهِرِ^(٤) مِنْ حَالِ الْمُدْوَحِ مَوَافَقًا، وَبِهِ لَاحَظًا، حَتَّى لَا يَكُونَ مِنَ الْمُبَيِّنِ عَنْهُ وَالْوَاصِفِ [لَهُ^(٥)] إِلَّا الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

وَأَنَا أَقُولُ: إِنْ كَانَ لَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي مَنَاقِبِ الْأَثَرِ إِلَّا بِذِكْرِ مَنَاقِبِ سَائِرِ الْأَجْنَادِ، فَتَرَكْتُ ذِكْرَ الْجَمِيعِ أَضُوبَ، وَالْإِضْرَابُ عَنْ [هَذَا الْكِتَابِ]

(١) يُوَصِفُ الْمُتَعَصِّمَ بِاللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدُ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ لِلْأَمُونَ سَنَةَ ٢١٨ هـ. وَتَوَفَّى بِسَرْمَنِ رَأَى سَنَةَ ٢٢٧ هـ. وَوَلَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ وَلَدَهُ هَارُونَ الْوَاقِقِ.

(٢) التَّغْلِيظُ، الرَّادُّ بِهِ الْعَصْرُ، كَمَا يُغْلَقُ الْبَابُ تَغْلِيظًا. وَفِي جَمِيعِ الْأَصُولِ: «التَّغْلِيظُ» بِمَعْنَى مَهْمَلَةٍ.

(٣) فِي الْأَصْلِ وَبَعْضُ أَصُولِ ن: «لِلدِّعْجِ». وَلَا تَسَاقُ سَائِرُ الْكَلَامِ.

(٤) فِي الْأَصْلِ وَبَعْضُ أَصُولِ ن: «وَالظَّاهِرُ»، وَالْوَجْهُ مِنْ سَائِرِ النُّسخِ إِلَى سَقَطَتْ مِنْهَا كَلِمَةُ «مِنْ» بِمَعْنَاهَا.

(٥) التَّكْلُفُ مِنْ سَائِرِ النُّسخِ، وَقَدْ سَقَطَتْ مِنْ بَعْضِ أَصُولِ ن.

أحزم ، وذكر الكثير من^(١) [هذه الأصناف بالجميل^(٢)] ، لا يقوم بالقليل^(٣) من ذكر بعضهم بالقيبح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل ناقله ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقيبح معصية ، وباب من ترك الواجب . وقليل الغريضة أجدى علينا من كثير التطوع .

ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ؛ وإنما يفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فأما الاشتغال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوي دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف .

وقد قال النابغة :

ولست بمسبوقٍ أحاً لا تنه على شئت ، أئى الرجال المهذب
وقال حريش السعدي^(٤) :

أخ لي كأيام الحبيسة إخاؤه تكون ألواناً على خطوبها
إذا عبت منه خلّة فتركته دعنى إليه خلّة لأعيبها
وقال بشر^(٥) :

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً خليلك لم تلق الذى لا تعانبه

(١) التكلفة من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « أجل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقى النسخ .

(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت مافى سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشر ١ : ٣٠٩ وحماسة البحرى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣ والأغالى ٣ : ٤٧ والنجيل والمحاضرة للعتالى ٧٤ .

فِعْشٌ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقْصِرٌ ذَنْبٌ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى ظَلِمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِثْرَابَهُ
 وَقَالَ مَطِيعُ بْنُ أَبِي سَلَالَةَ :

وَلَنْ كُنْتُ لَا تَصَاحِبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ ، مَا عَاشَ ، نَعْلُهُ
 لَمْ تَجِدْهُ وَلَوْ جَهَدْتَ وَأَنْتَ بِالَّذِي لَا يَكُونُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
 إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ بَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَفْلَهُ
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ ^(١) ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْجُنْدِ :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَبَادِي لَمْ تُصْنِ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ
 فَتَى غَيْرَ مُحْجُوبٍ الْفَنَى عَنْ صَدِيقِهِ
 وَلَا مُظْهَرٍ الشُّكُورِ إِذَا التَّعَلُّعُ رَكَّتْ
 رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانَهَا فَكَانَتْ قَدْ ذَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) في معجم الشعراء ، للمرزباني ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب القيمي . وأنه شاعر بحدادي . وقيل الشعر لأبي الأسود الدؤلي وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فينا هو يحدث إذ ظهر كم قبضه من تحت جيبه وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي ، وأنه أتي عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . الآلي ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولي في مجموعة المعاني ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوت وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمر بن كميل مدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص انتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب في ولايته مالا عظيما أو هو رجل من أشرف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قبضه من تحت جيبه . شرح التبريزي للحماسة . والأبيات بدون نسبة في الحماسة ١٥٨٩ بشرح للرزوقي وحامدة البهثري ١٥٩ والكليل ١٢٣ .

فإذا كان الخطأ^(١) من جمهور الناس، وأصحاب المعاش من دماء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتديراً في التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب، وامتزاج الضعف بالقوة، فلنا نشك أن الإمام الأكبر والرئيس الأعظم، مع الأعراق السكرية والأخلاق الرفيعة، والتعام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكن والقدرة، والفضيلة والرياسة [والسيادة^(٢)]، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة، والتأييد وحسن المنونة، أن الله^(٣) جل اسمه لم يكن ليجله باسم الخلافة، ومحبه بنجاح الإمامة، وباعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعته، ومعهضته بمعصيته، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم، والعفو في موضع العفو، والتغافل في موضع التغافل، ما لا يُلْفَه فضل ذي فضل، ولا حلم ذي حلم.

ونحن قائلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فيما انتهى إلينا في أمر الأتراك:

زعم محمد بن الجهم، وثامة بن أشرس، والقاسم بن سيار، في جماعة^{٢٧} ظ من يعشَى دارَ الخلافة، وهي دار المائة^(٤)، قالوا جميعاً:

بيننا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصفدي^(٥)، وأبو شجاع

(١) في الأصل وبعض أصول ن: «الخطأ». صوابه في سائر النسخ.

(٢) التسلطة من سائر النسخ.

(٣) في الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله». وفي سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) فقط: «الإمامة».

(٥) ن، س: «بخشاد ج»، ف: «إخشياد الصفدي».

أشيب^(١) [بن بخار اخداى الباخى ، ونعبي بن معاذ ، ورجال من المدودين المتقدمين فى العلم بالحرب] من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمناة^(٢) [فى صناعات الحرب^(٣)] ، إذ خرج رسول المؤمنين فقال لهم : نقول لكم متفرقين^(٤) ونجتمعين : ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل أنا أحب إلى [كل^(٥)] قائد منكم إذا كان فى عدته من محبه وثقائه : أن تلقى مائة تركي أو مائة خارجي ؟ فقال القوم جميعاً : [لأن^(٦)] تلقى مائة تركي أحب إلينا من أن تلقى مائة خارجي ! وحيد^(٧) ساكت .

فلما فرغ القوم [جميعاً] من حجتهم^(٨) ، قال الرسول : قد قال القوم فقل

(١) التكلة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « متفرقين » .

(٤) التكلة من سائر النسخ .

(٥) التكلة من ف فقط .

(٦) هو أبو غنم حميد بن عبد الحميد الطلوسى ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجودها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمته لإبراهيم بن الهدي . وكان لأبن الناهية وطى بن جيلة وأبى تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى إليه محمداً وقعبلة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لمعين لم يفض ماؤها غدر

وقد قتل بشرية صنعها له جبريل بن غنثشوع سنة ٢١٠ . الأغاني ١٩ :

١٠٠ - ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ - ٢٥٤ وأسماء المتألمين من نواذر المخطوطات

٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حجتهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

وكلة « جميعاً » قبله تكلة من ف وبعض أصول ن .

واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجي أحب إلي ؛ لأنني وجدت انخصال التي يفضل بها الخارجى جميع المقاتلة غير تامة في الخارجى ، ووجدتها تامة في التركى . ففضل التركى على الخارجى بقدر فضل الخارجى على سائر المقاتلة ، ثم بان التركى عن الخارجى بأمور ليس فيها للخارجى دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركى عن الخارجى ، أعظم خطراً وأكثر نفعاً ، مما شاركه الخارجى في بعضها^(١) .

ثم قال حميد : وانخصال التي يصول بها الخارجى على سائر الناس صدق الشدة عن أول وهلة ، وهى الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا ، وينالون الذى أملوا^(٢) .

والثانية : الصبر على ألمب وعلى طول الشرى ، حتى يصبح القوم [الذين مرقوا بهم^(٣)] غارين^(٤) فيجمعوا عليهم وهم بسوء^(٥) ، ولحم على وسم^(٦) ، يتعجلونهم عن الروية ، وعن رد النفس عن التروة والجولة ؛ لا يفتنون أن أحداً يقطع فى ذلك القدار من الزمان ذلك القدار من البلاد .

(١) ج ، ف : « فى بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) الشكلة من سائر النسخ . والروق : الرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارين : غائلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شئ يوضع عليه الحشب من خشب أو حصير يوق به الأرض . واللحم على الوضم مثل القضع وعدم الامتناع .

والثالثة : أن الخارجي موصوف عند^(١) الناس بأنه إن طلب أدرك ، وإن طلب فلت .

والرابعة : خفة الأزواد وقلة الأمتعة ، وأنها تجنب الخيل^(٢) وتركب البغال ، وإن احتاجت أمست بأرض وأصبحت بأخرى ، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة ، والجنان اللثغة ، والثور المشيدة ، ولا ضياعاً ولا مستغلات ، ولا جوارى مطهّمت^(٣) ، وإن^(٤) أسب لم ولا مال معهم فبرغب الجند في لقائهم ، وإنما هم كالغاي لا تدخر ولا تهتم لئد ، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تنبغ به^(٥) ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنتها تقرب لها البعيد ، وتسهل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يتمتع عليهم القرى والمطعم ، وإن تمتع عليهم في بنات شجاج وبنات سهال^(٦) ، وخفة الأثقال على طول الخلب ، ما يسهل أقواتها ، ويكثر من أرزاقها .

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أي تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) للطمع من الناس والخيل : الحسن الثام كل شيء منه على حدته . فهو بارع الجمل .

(٤) الشكلة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه واليزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شجاج ، هي البغال ، لأنها تشجع بصوتها . وبنات سهال . هي الأفراس ، فلقرس صويل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات سهال لم ترد في اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن للترك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم^(١) وأثقالهم ، وليقوموا على التنقل كقوتهم ، لم يقوموا عليهم ؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش الجيش ، وضاعفوا العدد [بالعدد^(٢)] ثقلوا عن طلبهم ، وعن القوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء انطرحوا أن يقرب منهم ليتطرقهم^(٣) أو ليصيب الفرقة منهم ، أو ليسبهم ، قل ذلك ثقة بأنه يغم عند القرصة^(٤) وروية العورة ، ويمكنه الحرب عند الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع^(٥) القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .
قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلقتها ، وقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب الثقل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخیلُ والمخاذِرُ للقرى

رأى الضيفَ مثل الأزرقِ الجفِّفِ^(٦)

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادم » ، وهو جمع زاد .

(٢) الكلمة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) في الأصل : « ولعلم ذلك فإنه يغم عن القرصة » ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) الجفِّف : الذي جفف فرسه بالجفاف . وهو ما جلال به من سلاح وآلة نقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وَقَلْبٍ وَدَّ حَالًا عَنْ عَهْدِهِ وَالشِّفِّ يَنْبُو يَسْدِ الثَّارِي

وكقول الآخر :

لَقَاءِ الْأَسَدِ أَهْوَى مِنْ لِقَاءِهِ إِذَا التَّحْكِيمُ يَسِيرُ بِالْأَصْبِلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيار .

فإنما حيد فإنه قال :

الشَّدَّةُ الأولى التركي فيها أحد [أثر] ، وأجمع ^(١) [أمر] ، وأحكم شأننا :

لأنَّ التركي من أجل أن تصدَّق شدَّته وبتمكُّن عزِّمه ، ولا يكون مشترك العزم ٢٨ ظ

ولا منقسم الخواطر ، قد عودَ رِدْوَنَهُ أَلَّا يَنْثَنِي وَإِنْ ثَاءً ، أَنْ يَمْلَأَ فُرُوجَهُ ^(٢)

للأمر يديره مرةً أو مرتين ، وإلَّا فإنه لا يدع سَنَنَهُ ، ولا يَقْطَعُ رُكُضَهُ . وإنَّما

أراد التركي أن يونس نفسه من البدوات ^(٣) ، ومن أن يعثره التكذيبُ بعد

الاعتزام ، ^(٤) [هَوْلُ الْإِقْلَامِ] ، وحبَّ الحياة ؛ لأنَّه إذا علم أنه قد صيَّرَ رِدْوَنَهُ

إلى هذه الغاية حتَّى لا يَنْثَنِي ولا يُجْبِيهِ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بَأَنٍ يَصْنَعُ شَيْئًا بَيْنَ

الضَّغَيْنِ فِيهِ عَطْلُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، والبصر

(١) السَّكَلَةُ من سائر النسخ .

(٢) الفروج : ما بين قوائم الفرس . وملأها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تبدو .

(٣) البدوات : الحفارات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه السكعة يابض في الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفي الأصل : « لَطُول » ، تحريف .

بالعودة^(١) . وإنما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمخرج الذي إذا رأى أشد القتال^(٢) لم يدع جهداً ولم يذخر حيلة ، ولينقذ عن قلبه خواطر الفرار ، ودواعي الرجوع . وقال : الخارجى عند الشدة إنما يعتمد على الطعان ، والأتراك تلعن طعن الخوارج ، وإن شدّ منهم ألف فارس فرموا رشقاً واحداً صرعوا ألف فارس ، فما بقاه جيش على هذا النوع من الشدة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رماية مذكورة على ظهور الخيل ، والتركى يرى الوحش والطير ، والبرجاس^(٣) ، والناس^(٤) ، والمجنّمة ، والمثلّ الموضوعة ، ويرى وقد ملأ فروج دابته مديراً ومقبلاً ، ويمنة ويسرة ، وضدداً وشغلاً ، ويرى بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجى سهماً واحداً^(٥) ، ويركض دابته منعهدراً من جبل ، أو مستغلاً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجى على بساط الأرض .

والتركى أربعة أعين^(٦) : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه . وللخارجى

(١) في الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا في بعض أصوله ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « إذا أثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره في ص ٢٩ .

(٤) انظر ما سيأتى في ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقاً ، والفوق بالضم : موضع الوزر من السهم ، والراد وضع السهم في الفوق .

(٦) كذا بنائيت الأربعة مع العين للتؤنّة ، وهو وجه جائز في العربية . مذكور في اللطولات : انظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

عيبٌ في مُستدبرِ الحرب ، وللخراسانيّ عيبٌ في مُستقبلِ الحرب . فعيب
الخراسانيّة أنّ لها جولةً عند أوّل الالتقاء^(١) ، وإن ركبوا [كُتَاهُم^(٢)]
كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [بعد^(٣)] الخطار بالمعسكر ،
وإطاع العدو في الشدّة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفَرُّ كَرٌ ، إلّا ما لا يُعدّ .
والتركيّ ليست له جولةُ الخراسانيّ ، وإذا أدبرَ فهو السهمُ النافع ، والعتقُ
القاضي ؛ لأنه يصيبُ بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيبُ به وهو مُقبلٌ ، ولا يُؤمن
وَهَقَهُ^(٤) ، ولا انشأفُ القَرَس^(٥) ، واختطافُ الفارسِ بِتلك الرِّكْضَةِ .

ولم يُقتل من الوَهَقِ في جميع الدَّهرِ إلّا للهِابِ بن أبي صفرة ، والحريش
ابن هلال^(٦) ، وعَبَاد بن الحُصَيْن^(٧) . ورُبّما رَمَى بالوَهَقِ وله فيه تذيير آخر

٢٩ و

- (١) في الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .
(٢) موضعها يابض في الأصل . وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، فقها :
« أكاهم » بالجمع . ويقال ركب كسأه : وقع على فقاهه ، وللرّاد أدبروا ونفّحوا .
وكس ، كل شيء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .
(٤) الوَهَق : بالتحريك : جبل شديد القتل يرى وفيه أشوطة ، فتؤخذ فيه
الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « لاري » ساقط من
ج ، ف ، وبعض أصول ن .

- (٥) انتسف الشيء : اقتله . قال أبو النجم :
وانتسف الجباب من أندابه إغباطنا ليس على أصلا به
(٦) في الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان
بن تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .
(٧) هو عباد بن الحسين بن يزيد التميمي ، كان شجاعاً رئيساً . جمهرة ابن حزم
٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم ينجب المرمى معه ، يوم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركي^(١) ،
أو لحذق المرمى .

قال : وهم علّوا الفُرسانَ حمل قوسين وثلاثة قِسي ، ومن الأوتار
على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدته ، معه كل شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه
ودابته وأداة دابته . فأما الصّبر على النّخب وعلى مواصلة السّفر ، وعلى طول
الشّرى وقطع البلاد ، فعجيب جداً .

فواحدة : أن فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي .

والخارجي لا يُعْمِن أن يعالج فرسه إلا معاملة الفُرسان طيولم ،
والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً ليرذونه على ما يريد من الرّاحة^(٢)
[وهو استتبعه^(٣)] ، وهو رباه فلوا ، وتنبّعه إن سباه^(٤) ، وإن ركض
ركض خلفه . وقد عودّه ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم^(٥) ،

(١) في الأصل : « لخرق » صوابه في ن ، س . والخرق ، بالنم : الجهل والخلق .
وتعويض الرفق .

(٢) الرّاحة : جمع راض . وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلها .
وفي الأصل وبعض أصول ن : « الرّياضة » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها يياض في الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « وثبته » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا أقدم . ومثله أجدم وهجدم . كلها زجر
للفرس . في معظم النسخ : « أجدم » بالجم . وهذه بوصل المعزة وفتح الدال .

والتاقة حل^(١)، والجل جَاهٍ، والبغل عَدَسٌ، والحمار ساسا، وكأ يعرف
الجنون لقبه والصبي اسمه.

ولو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته
أكثر من جلوسه على ظهر الأرض. والتركى يركب فحلاً أو رَمَكَةً، ويخرج
غازياً أو مسافراً، أو متباعداً في طلب صيد، أو سبب من الأسباب، فتنبه
الرَمَكَةُ وأفلاؤها، إن أعياه اصطيد الناس اصطاد الوحش، وإن أخفق منها
أو احتاج إلى طعام فصَدَّ دابةً من دوابه، وإن عطش حلب رَمَكَةٍ من
رماكه، وإن أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض.
وليس في الأرض أحدٌ إلّا وبدنه ينتفض على اقتيات اللحم وحده غيره؛
وكذلك دابته تسكنى بالتعقر^(٢) والعشب والشجر، لا يظنها من شمس ولا يكتئبها
من برد.

قال: وأما الصبر على الخيب فإن الثغريين^(٣) والفراحيين^(٤)، والخلعيان
والخوارج، لو اجتمعت قوام في شخص واحد لما قفوا بتركي واحد^(٥).

(١) ويقال: « حل » أيضاً كما في بعض النسخ. وقال أبو النجم:

« وقد حلدونها بحوب وحل »

(٢) الثغر، بضم العين والقاف: أصل البقل والقصب والبردى مادام أبيض
مجتمعاً. في الأصل: « بالعفر »، صوابه من سائر النسخ.

(٣) الثغريون: نسبة إلى الثغر، وهو واحد ثغور الشام. ومن أشهر مدنه
أنطاكية وبغراس والمصيصة، وأصل أهلها من الروم.

(٤) نسبة إلى الفرائق، يعني بهم عمال البريد. ويدعو أنهم كانوا من غير العرب.
والفرائق: الذي يدل صاحب البريد على الطريق، «عرب» برؤائك.

(٥) يقال وفي الشيء، وفي به: نادله. وفي الأصل وبعض أصوله:
« لم يوفوا »، تحريف.

والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إلا الصميم من دوابه^(١) . | و | الذي
 يقتله التركي بإتباعه له ، وبنيه^(٢) عند غزاته ، هو الذي لا يصير معه فرس
 الخارجى ، ولا يبقى معه كل بردون بخارى^(٣) . ولو سابر خارجيا لاستفرغ
 وسعته قبل أن يبلغ الخارجى عفوه^(٤) .

والتركي هو الراعى ، وهو السائس وهو الرانس ، وهو النخاس ، وهو
 البيطار ، وهو الفارس . والتركي الواحد أمة على حدة .

قال : وإذا سار التركي في غير عساكر الترك ، فسار القوم عشرة أميال
 سار عشرين ميلا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر بمنة وبسرة ، ويسرع في ذرى
 الجبال ، ويستعين قعور الأودية في طلب الصيد ؛ وهو في ذلك يرى كل^(٥) [
 مادب ودرج ، وطار ووقع .

قال : والتركي لم يسير في العساكر سيرا الناس قط ، ولا سار
 مستقيما قط .

قالوا : وإذا طالت الدلجة واشتد السير ، وبعد المنزل ، وانصف النهار ،
 واشتد التعب ، وشغل الناس السكالات^(٦) ، وصحت الثنايرون فلم ينطقوا .

(١) الصميم : الخالص الخضر . في الأصل : « الأطول الصميم » ، صوابه في
 سائر النسخ .

(٢) في بعض أصول ن : « وبنيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفي بعض أصول ن : « نخارى » .

(٤) العفو : ما يعفى به بغير كلفة . في سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التسكلة من سائر النسخ .

(٦) السكالات : التعب والإعياء . ج ، ف وفي بعض أصول ن : « الكلام » ،

تحريف

وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحدث ، وتسخ كل شيء من شدة الحر ،
 وخذ كل شيء من شدة البرد^(١) ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى^(٢)
 أن تطلو له الأرض ، وكلما رأى خيالاً أو أبصر علماً^(٣) سر به واستبشر ،
 وظن أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفتح^(٤) كأنه صبي
 تحقون ، يئن أنين المريض ، ويسترجع إلى الثأوب ، ويتدلوى مما به بالتمطى
 والتضجع . وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ما ساروا وقد أتعب
 منكبيه كثرة النزاع^(٥) ، يرى قرب المنزل غيراً^(٦) أو ظلياً ، أو عرض له
 ثعبان أو أرنب ، فيركض ركض مبتدئ مستأنف ، كأن الذي سار ذلك
 السير وتعبد ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحموا على ماسكه أو على^(٧) [قنطرة ، بطن
 برذونه ففحصه^(٨)] ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن اشموا إلى
 عقبة صعبة ترك السن^(٩) وذهب في الجبل ضعدا ، ثم تدلى من موضع يعجز

(١) ج ، ف : « وتسخر كل شيء من شدة البرد » قط .

(٢) ف قط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل قط . وفي الأصل : « عطا ، موضع علما » ، صوابه

من باقى السخر .

(٤) متفتح : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزاع في القوس : مد وترها للرمى بإسمها .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « غزاً » ، ووجهه من سائر السخر .

(٧) الكلمة من سائر السخر .

(٨) بطنه بطناً : ضرب بطنه .

(٩) السن : نهج الطريق وعجته . في الأصل ، ف : « السير » ، صوابه في

سائر السخر .

عنه الويل : وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مضله . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تنابع ذلك منه .

قال : وينخر الخارجى بأنه إذا طلب أدرك ، وإذا طُلب لم يدرك . ٣١ و
والتركى ليس يُنوح إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومن يروم
[ما لا يُطمع فيه] ؟ !

فهذا . على أن قد علمنا أن العلة التي عمت الحوارج بالنجدة استواء
حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين ؛ لأننا حين وجدنا السجستاني
وانخراساني والجزري واليماني والمغرني والعماني ، والأزرقي منهم والتجندي^(١)
والإباضي والصفري ، والمولى والعربي ، والمجشي والأعرابي ، والقيسدي
والنساء ، والحائك والفلاح ، كلهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين
البلدان^(٢) . - علمنا أن الديانة هي التي سوّت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك .
كما أن كل حجاج في الأرض من أي جنس كان ، ومن أي بلد كان ، فهو يحب

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر - وقيل عاصم - الحنفي . وهم النجيدات أيضاً . وكان
نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الحوارج ، فصار
نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى الحجاز . وذلك في سنة ٦٤ . المثل والنحل ١ : ١٦٥
والطبري ٧ : ٥٦ - ٥٧ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب
الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين والحجاز وعمان
وهجر والعرض ، ثم تم عليه الحوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ،
وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبري ٧ : ١٩٤ .
وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ وللواقف ٦٢٩ .

(٢) في الأصل : ٥ وسائر البلدان ٤ ، صوابه من سائر النسخ .

النبيذ ، وكذا أن أصحاب الخلقان^(١) والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من كل جنس ، شربوا خلق الله في المباينة والمعاملة . فعلنا بذلك أن ذلك خيانة في هذه الصناعات . وبليغة في هذه التجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمه والتحرّم^(٢) ، ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال : وإنما يقاتل على الساب والخييار في يده . وليس يخاف الوعيد إن هرب ، ولا يرجو الوعد إن أتى عدوا . وكذلك هم في بلادهم وغازاتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب : ومن كان كذلك فإنما يأخذ العفو من قوته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده^(٣)] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يطمع فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطره إخراج أو غيرة أو غضب أو تدن ، أو عرض له بعض ما يصحب المقاتل الحامي من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجى طوية صماء ، وقناة التركي مطرد أجوف^(٤) . والقنى الجوفة القصار أشد طعنة وأخف في الحمل . والمجهم يجعل القنى

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو الباني . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمة وعمره . فى الأصل وبعض أصوله : « غير ذلك » صوابه فى سائر النسخ . (٣) وضعها يابض فى الأصل ، وإبائها من ب .

(٤) الطرد : رمح قصير .

الغوازل للرجالة ، وهي قنَى الأبناء^(١) ، على أبواب الخنادق والمضائق . ٣٠ ظ
والأبناء في هذا الباب لا يُعْرَضُونَ مع الأتراس والخُرَاسَانِيَّة : لأنَّ الغالب على
الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق وفي المضائق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان
وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش ، لهم الكَرَّة والغَرَّة . والفارس هو الذي
يُطَوِّى الجيوش طَوَّى السَّجْلَى ، ويفرقهم بفريق الشعر . وليس يكون السكينة
إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة^(٢) . وهم أصحاب الأيَّام المذكورة والحروب
الكبار والفتوح العظام^(٣) ، ولا تكون الثغاب والكنايب إلا منهم .
ومنهم من يعمل البَنُوَّة والزَّايَات ، والعُطُول والتعاقيف^(٤) والأجراس .
وهو أصحاب القسبيل والقتام^(٥) ، وزجر الخيل ، وقعقة الرمح في الثياب^(٦)

(١) الأبناء . قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء
يستعجده على الحبشة ، فصرّوه وملكوا اليمن وتديتروها ، وتزوجوا في العرب فبين
لأولادهم الأبناء . وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم .
اللسان (بنو) . وفي التتبية والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خزاد بن نرسی
ابن جداسب أخى قباد بن فيروز . وفي ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز
إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبهم الحروب من الفرس إلى حريرة العرب
كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا في الأصل وبعض أصول ن . وفي ب : « وليس يكون السكينة
ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع ثبته في ص ٦٥ لم يرد في ج ، ف . ومأثبه على
ذلك في موضعه .

(٤) جمع ثغاف . بكسر التاء وفتحها . وهو ما يوضع على الخيل من حديد
وسلاح يقيه الجراح في الحروب .

(٥) القتام : العيار . وفي الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) في الأصل : « ثياب » مع ياء بعدها ، وأثبت ما في ن ، س .

والسلاح ووقع الحوافر ، والإدراك إذا طَلَبُوا ، والغوث إذا طَلَبُوا . ولم يجعل
النبي صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين ولا راجل من المقاتلة سهماً واحداً
إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح ، والنهبة والمغام^(١) .

ثم قال : ولعمري إنَّ للأبناء من القتال في السكك والشجون^(٢)
والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجال أبدأ أتباعاً ومأمورون ومنقادون ،
وقائد الرجال لا يكون [إلا^(٣)] فارساً ، وقائد الفرسان من للمتنع أن
يكون راجلاً . ومن تعودَ الطمان والضرب والرمي راجلاً إن اضطرَّ إلى
الطمن والضرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدقَّع عن نفسه ، وأردُّ عن
أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً . وعلى أنه ما أكَثَرَ
ما ينزلون ويقانون . وقد قال الشاعر^(٤) :

لَمْ يُطِيقُوا أَنْ يَنْزِلُوا وَتَزَلُّوا وَأَخُو الْحَرْبِ مَنْ أَطَاقَ النَّزُولَ
وَقَالَ النَّبِيُّ^(٥) :

* وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلْ^(٦) *

(١) الرد : النفع . والنهبة ، بالضم النعيمة . كالتبي . وفي الأصل : « الهبة » .
صوابه في ن ، س .

(٢) وكذا سبق في ص ٢٧ س ٦ .

(٣) تسككة ضرورية .

(٤) هو مهنايل ، كما في الأغاني ٤ : ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والحزانة
٣ : ٣٠٥ . وانظر بما قيل في النزول في هذا الموضع من الحزانة .

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي . الحماسة ص ٦٢ بشرح الرزوقي والحزانة
٣ : ٣٠٥ .

(٦) صدره : فدعوا نزال فسكت أول نازل

وقال آخر :

« فمما ساق ومنـازل^(١) »

وقال حميد : ونيس في الأرض قومٌ إلّا والفسائد في الحروب ، والاشتراك في الرئاسة ضارّ لهم ، إلّا الأتراك . على أنّ الأتراك لا يتسائدون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنّ الذي يكره من السادة والمشاركة اختلاف الرأي ، والتنافس في السر^(٢) ، والتعاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صاروا جيشاً إن^(٣) كان في القوم موضع عورة فكلمهم قد أبصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي الانصراف ، فكلمهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر ونشاد ، وإسما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فلا اختلاف يقاتل بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب مقسدين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سواء .

قال حميد : فما ظنك بقوم إذا تسائدوا لم يغفرهم التسائد ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أعتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والتواو مقعقة .

فلما انتهى الخبر إلى الثأمون^(١) قال : ليست بالترك حاجةً إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإن حميداً قد مارس الفريقةين ، وحيد خراسانيً وحيد عربيً ، فليس للتهمة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين^(٢) طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أما إنه لم يقصر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة الثأمون ، وحكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبري رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم . كيف أصنع بفارس يملأُ فروج دابّته منحدرًا من جبل ، أو مُصعدًا في مقطع عقير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرّاقص الأبلبي^(٣) على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عتبة بن سَنَم الهنائي^(٤) ، وكان ذا رأي في الحرب وابن ذى رأي فيها^(٥) : فرق ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ،

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصاً بالسيف في وقته مع علي بن مهزيب .
قتلاء نصفيين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ . وفات الأعيان ونهار القلوب ٢٠٧هـ .

(٣) نسبة إلى الأبله . وهي بلدة على شاطئ دجلة . وفيها يقول الأصمعي :
جنان الدنيا ثلاث : غرطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبله .

(٤) نسبة إلى بني هذيل بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عتبة بن سلم .

(٥) كان عتبة بن سلم والد سعيد والياً لمصور على البحرين والبصرة .

ولا صاقت جيشاً ولا هجمت على عدو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخـرجوا إليهم أعدادهم ولقّوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن يتقادوا ليـكفّوا عنهم بأنهم ومعرّتهم^(١) ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم إلا منع أنفسهم وتخصين عسكرهم ، والاحتراس منهم . فأمّا أن ترقى همهم ونسـموا أنفسهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غررتهم ، فإنّ هذا شيء لا يخطر على بال من يخاربه .

ثم قال : وقد عرفتم حياتهم في دخول المدن من جهة حيطانها المصمتة العريضة ، وحياتهم في عبور نهر بـلخ .

وسعيد هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخر كميناً . وله كلام في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة ابن دعامة الفقيه^(٢) ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الترك حيث قال : « عدوّ شديد طلبه ، قليل سلّبه » ، فقال رجل من العالّة : نهى عمر^(٣) أبا يزيد الطائي عن وصف الأسد ؛ لأنّ ذلك مما يزيد في رعب

(١) المرة : الشدة والأذى في الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسي . وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ . نهـذب التهذيب ووفيات الأعيان ونسكت الحميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة في مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذي نهـاه . انظر طبقات ابن سلام

الجبان ، وفي هَوَلِ الجَبَانِ . ويُقَالُ من رَغِبَ الشُّجَاعَ ^(١) ، وقد وُصِفَ التُّركُ بأشدَّ من وصف أبي زُبَيْدٍ الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرْذِمَةً منهم بلادَ أبي خزيمة - يُريدُ حمزة ^(٢) بن أدركَ الخارجي - وما والى خُرَاسَانَ [في] بعض الأمر ، وحمزة في مُعْظَمِ الناس ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا لهم ؛ فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربيٌّ خُرَاسانيٌّ .

وذكر يزيد بن مَرْزُودٍ الواقعةَ التي قُتِلَ فيها يوليا ^(٣) التركيُّ الوليد بن طريف ^(٤) الخارجي ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركي على

(١) الرغِب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفي البيان ٤ : ٣٥ عند الكلام على السكنية بأبي خزيمة : « وهذه السكنية كنية ذرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة . وكنية حمزة بن أدرك » . وفي الطبري ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أرك » وما هنا يطابق البيان واللؤلؤ والتعل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الحوارج ، خرج في أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان وكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة . وبقي الناس في فتنة إلى أن مضى صدر من أيام خلافة الأمين ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وبعد الرحمن النيسابوري حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ وانفرق بين انفرق ٧٦ والاعتقادات للرازي ٤٨٠ .

(٣) أهمل قطع الحرف الأول في الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص النادر . فإن الضربة التي أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابة ثقيل ، ولا تشبه على الأرض وقْع ، وإنه يرى وهو مدبرٌ ما لا يرى
 للفارس منهُ وهو مُقبل . وهو يرى الفارس مناصيداً ويمدُّ نفسه قَهْداً ،
 ويمدُّه طلباً^(١) ويمدُّ نفسه كلباً . والله لو زمني به في قعرٍ بئر مكتوفاً لما أعجزته
 الحيلة ؟ ولولا أن أعمار عاقمتهم تقصر ذون الجبل - يعني جبل خلوان -
 ثم هموا بنا ، لألقوا لنا شُغلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذاكِ إلى ذَوَالٍ

قال : أنا التركي فلأن بَنَالَ السَّكَافَ عَصَباً أحبُّ إليه من أن ينال
 النُّكَّ عَفْوَاً . ولم يتهنَّ تركي^(٢) بطعام إلا أن يكون صيداً أو منقلاً ، ولا يقبُر^(٣)
 على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوباً .

وقال ثمامة بن أشرس ، وكان مثل محمد بن الجهم في كثرة ذِكْرِهِ للترك .
 قال ثمامة : التركي لا يخاف إلا مخوفاً ولا يقطع في غير مطمع ، ولا يكفُّه عن
 الغلب إلا اليأس صرفاً ، ولا يدع القليل حتى يصيب أكثر منه ، وإن قدر
 أن يجمعهما لم يفرط في واحدٍ منهما . والباب الذي لا يُحْسِنه لا يُحْسِن منه شيئاً ،

== ضاربهما المؤرخون . انظر ابن الأثير ٥١٦ : ٥١٩ في حوادث ١٧٩ وكذا الأغاني ١١ : ٩ .
 وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبري ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن يزيد هو الذي
 احترَّ رأسه بعد ما أصيب . وفي ذلك يقول أخت الوليد ليلى بنت طريف . أو الفارعة :
 فإني بك أرداه يزيد بن يزيد فيارب خيل فضها وصفوف
 وانظر الأمانى ٢ : ٢٧٤ واللاتي ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(١) أي يعد الفارس مناصيداً جديراً بالقنص . وفي الأصل وبعض أصول ن :

« ونعمه » .

(٢) أي لا يهاب . في الأصل ون : « ولا يفر » . وفي س : « ولا يفر » .

والباب الذي يُحسَنه قد أحكمه بأسره وأمره^(١) وخفيته عنده كظاهرة^(٢) ، ولا يتشاكل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء^(٣) . فعولا أن يُجَمَّ نفسه بالنوم لما نام ، على أن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوَسْنة . ولو كان في شِقْمهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكَماء ، وكانت هذه الخواطر قد مرَّتْ على قلوبهم ، وقَرَّعت أسماعهم^(٤) ، لَأَنسَوْنَا أدب البصريين ، وحِكْمَةَ اليونانيين ، وصَنَعَةَ أَهْلِ الصَّيْنِ .

وقال ثمامة : عَرَضَ لَنَا فِي طَرِيقِ خُرَاسَانَ تَرْكِيٌّ وَمَعْنَاهُ قَائِدٌ بِصَوْلٍ بِنَفْسِهِ وَرَجَالِهِ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّرْكِيِّ وَادٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَبَارِزَهُ فَارِسٌ مِنَ الْقَهْوَمِ ، فَخَرَجَ لَهُ رَجُلًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَكْمَلَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْسَنَ تَمَلُّمًا وَقَوَانِمًا مِنْهُ ، فَاحْتَالَ حَتَّى عَبَّرَ إِلَيْهِمُ الْقَارِسَ ، فَتَجَاوَزَا سَاعَةً ، وَلَا نَفْثُ إِلَّا أَنْ صَاحِبِنَا بَقِيَ بِأَضْعَافِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَتْبَاعِدُ عَنَّا . فَبَيْنَمَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ وَجَّاهُ التَّرْكِيُّ كَالْمُحَارِبِ مِنْهُ ، وَكَمَّلَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ ظَنَنَّا أَنَّ صَاحِبِنَا قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ ، وَأَتْبَعَهُ الْقَارِسُ لَا نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ سَيَأْتِينَا بِرَأْسِهِ ، أَوْ يَأْتِينَا بِهِ مَجْنُونًا إِلَى فَرَسِهِ ، [فَلَمْ نَشْعُرْ^(٥)] إِلَّا وَصَاحِبِنَا قَدْ أَفَلَّتْ عَنْ فَرَسِهِ وَغَلَبَ عَنْهُ ، فَنَزَلَ التَّرْكِيُّ إِلَيْهِ فَأَخَذَ سَلَبَهُ وَقَتَلَهُ ، ثُمَّ عَارَضَ فَرَسَهُ لِحَبْنِهِ إِلَيْهِ مَعَهُ .

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) في الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهرة » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت في ن ، س بزيادة « يخاف » بد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب . وعدلت في ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ، وليس ما يدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها ياء في الأصل ، وإتيانها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جِيءَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلتُ له : كيف صنعتَ يومئذٍ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثمَّ وليت عنه هارباً ثمَّ قتلته ؟ قال : أما إنِّي لو شئتُ أن أقتله حينَ عَثِرْتُ ، وقد كانَ مقتله بارزاً لي ، ولسكتي احتلتُ عليه حتى نَحَيْتُهُ عن أصحابه لأجوزهم ، فلا يُحَالَ يَنِي وبين فرسه وسكبه .

ظ ٣٢

قال ثمامة : وإذا هو بِدِيرِ الفارس من سائر الناس وَرُبُعُهُ كيف شاء وأحبُّ^(١) .

قال ثمامة : وقد عَثِرْتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم ونُحْمِهِم وألغافهم .

فهذا ثمامةُ بنُ أشرس ، وهو عربيٌّ لا يُتَمُّ في الإخبار عنهم . وأنا أخبرك أنَّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيتُ في بعض غزوات المأمونِ سَاحِلِيَّ خَيْلٍ على جَنْبِ الطَّرِيقِ يَقْرُبُ الْمَنْزِلَ ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر . وإذا هم قد اصطَفَوْا ينتظرون مجيئ المأمونِ ، وقد انتصفَ النَّهَارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم وَجَعُ الأتراك^(٢) جلوسٌ على ظُهُور خيولهم إِلَّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأَخْلَاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إِلَّا ثلاثة أو أربعة . فقلت

(١) إرادته : أَرَادَهُ وَطَلَبَهُ . وعلى الأمر : أَدَارَهُ عَلَيْهِ . وأنشدوا :

يَدِيرُونِي عَنْ سَالِمٍ وَأَرِيفِهِ وَجِلَّةٍ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٍ

(٢) في الأصل وَجَعُ أَصُولِ ن : « وَجِيع » .

لصاحب لي : انظر أي شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرة التناول - وهي المباركة - وأنا خارج من بغداد ، وأرى فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عاز لهم فرس^(١) . وهم على حيل عتاق يُريغونه فلا يقدرّون على أخذه . ومما تركي ولم يكن من ذوى هيباتهم وذوى القدر ميب . وهو على برذون له خيس ، وهم على الخيول المظومة . فاعترض الفرس اعتراضاً ، وقتله قتلاً وحياً^(٢) ؛ وأتاه من زجره بشي . فوقف أولئك الجند وصاروا نظارة ، فقال بعضهم من كان يزري على ذلك التركي : هذا وأبيك التكف والتعرض : أن فرساً قد أعجزهم وهم أشد البلاد . وجاء هذا مع قصر فامته وضعف دابته ، فطمع أن يأخذه . فما انقضى كلامه حتى أقبل به ثم سلمه إليهم ومضى أطمعته . لم ينتظر ثناءهم ولا ذعابهم . ولا نراهم أنه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروف .

والآخران قوم لا يعرفون الناس ولا اطلاعاً ، ولا التفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا التهمة ولا الرياء . ولا التدخ على الأولياء^(٣) ، ولا البنى على الخطاء . ولا يعرفون البدع . ولم تنسدهم الأهواء ، ولا يستحقون الأموال على التأول . وإنما كان عيبتهم . والذي يوحش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحب التقاب في البلدان ، والصبابة بالفارات . والشغف بالنهب ، وشدة

و ٣٣

(١) عاز يعير : اقلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحى : السريع .

(٣) البدخ : الكبر والتناول والفخر .

الإلف للعاد ، مع ما كانوا يتذكرون من سُرور الفقر وتناغمه ، وخلاوة
الغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك العجاري ، وترددهم في تلك السروج .
والأ يذهب بطول الفراغ فضل تجذبتهم باطلا . وبعبير حذم على طول
الأيام كليلا .

ومن حذق شيئا لم يصير عنه ، ومن كره أمرا فر منه .
وانما خضوا بالحنين من بين جميع العجم لأن في تركيبهم وأحاطة طلباتهم من
تركيب بلدهم وتربيتهم . ومشاكله مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحد
سواهم . ألا ترى أنك ترى البصري فلا تدري أبعري هو أم كوفي ، وترى
السكي فلا تدري أمكي هو أم مدني . وترى الجذلي فلا تدري أجلي هو
أم خراساني ، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو أم شامي . وأنت لا تفأط
في التركي ، ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فراسة ، ولا إلى مسألة . وسأؤهم
كرجالهم ، ودوابهم تركية متاهم .

وهكذا طبع الله تلك البلاد ، وقسم تلك التربة . وجميع دُور الدين
وشؤونها إلى منتهى قواها ومدة أجلها ، جارية على علها ، وعلى مقدار أسبابها ،
وعلى قدر ما خفصها الله تعالى به وأبانها ، وجعل فيها . فإذا صاروا إلى دار
الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ (١) .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان . لا تفصل بين
من نزل أبود بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقا في السبال الضئيب

والجلود القشرة^(١) ، والأفناء العظيمة ، والأكسية القرغابية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء التازلة وبين أبناء النابتة .

٣٣ ط وحبّة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة^(٢) . ولكن ذلك في الترك أغنّب ، وفيها أرسخ : لما دعاها من خاصّة المشاكلة والناسية ، واستواء الشبه ، وشكافي التركيب . ألا ترى أن العبدى يقول^(٣) : « عمّر الله البلدان بحب الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أفقّ منهم بأوطانهم »^(٤) ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرّق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » ، وأن جمعة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به المباد من قفر البلاد ، لما وسّعهم واد ولا كفاهم زاد » . وذكر قتيبة بن مسلم التّرك فقال : « هم والله أحنّ من الإبل المعقّلة إلى أوطانها » : لأنّ البعير ينشئ إلى وطنه وعطنه ، وهو بغمان ، من ظهر البصرة . فهو ينشط^(٥) كل شيء ، ويستبطن كلّ وادٍ . حتّى يأتى مكانه : على أنّه طريق لم يسلكه إلا مرة واحدة ، فلا يزال بالشّم والاسترواح وحسن الاستدلال . وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتى منزله ، على بُعد ما بين نهمان والبصرة .

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحرّة .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الجيرة » . وفي ف : « الجيرة » . والجيرة بمعنى الناحية .

(٣) بطله في الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قتلوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر . وهو الحظ والتصيب . ونعم في الحيوان

٣ : ٢٢٧ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « أفعى تحت » تحريف .

فلذلك ضرب به قتيبة المثال^(١).

والشَّخ على الوطن والحنين إليه^(٢)، والعناية به، مذكورة في القرآن، مخطوطة في السُّنن بين^(٣)، جميع الناس. خير أن التركي للعالم التي ذكرناها أشد حنيناً وأكثر نزوعاً^(٤).

وباب آخر، مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت^(٥)، والعادة المنقوضة^(٦)؛ وذلك أن الترك قوم يشتد عليهم الحرُّ والخشوم^(٧)، وطول اللَّبث والمكث، وقلة الصرف والتحرك، وأصل بنيتهم إنما وُصِّع على الحركة، وليس للسكون فيها نصيب، وفي قوَى أنفسهم فضلٌ على قوَى أبدانهم، وهم أصحاب ثوبد وحرارة، واستغال^(٨) وفطنة، كثيرة حواطيرهم، سريع لحظهم، وكانوا يرون الكفاية معجزة، وطول المقام بلائدة، والراحة عَقْل^(٩)، والقناعة من قصر الهمة؛ وأن ترك العزُّ يورث الدَّعة.

(١) إلى هنا يدلُّ إغفال الاختيار في ج، ف الذي نبت على بدايته في ص ٥٣.

(٢) التَّكَلُّف من ب.

(٣) هذا ما في ف، وفي الأصل، ن: «وأشد نزاعاً» ج: «وأكثر نزاعاً».

(٤) ج: «عزم الثاني» ف: «نق العزم»، وفي الأصل: «العزم الثاني»، والوجه ما أثبت من سائر النسخ.

(٥) في الأصل، س: «واندانة النقوضة»، وبها في ج، ف، وفي ن: «واللادة النقوضة».

(٦) التَّكَلُّف من ن، والسكدة ساطعة من ف، وبها في ج: «الخنوم»، جثم: لزوم مكانه فلم يرحه.

(٧) في الأصل، ف: «استغال»، وأثبت ما في ب.

(٨) أي تغل صاحبها ونجسه عن الانطلاق.

(٩) (٥ - رسائل الجليل)

٣٤ و

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي :
 « حب الهوى بنا يكسب النصب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه
 في الصيف غلت قدره في الشتاء » . وقال أكرم بن صفي : « ما أحب أني
 مكفي كل أمر الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عال التلذذ في حب الرجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يدغوم إلى الشرود ويبعثهم على الرجوع ، ويكره
 عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوادهم بأقدارهم ، وقلة معرفتهم
 بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرد عليهم والانتفاع بهم ، حتى جملهم أسوة
 أجنادهم ، ولم يقتنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة
 ومن غرض العساكر ، وأغوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ،
 ورأوا أن الضيم لا يليق بهم ؛ وأن الخول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المقام
 على من لا يعرف حقهم ألوم ممن منعهم حقهم . فلما صادفوا ملكاً حكماً ،
 وبأقدار الناس عليها ، لا يميل إلى (سوء^(١)) عادة ولا يتنجس إلى هوى ،
 ولا يمتصّب لبلد على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقم مع الحق حيثما
 أقام ، أقاموا إقامة من قد فهم الخطأ^(٢) ، ودان بالحق ونبت العادة ، وآثر

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التسكلة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما في ب . لكن في ف :

« منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحل نفسه لقطيعة وطنه^(١) ، وآثر الإمامة على ملك البحيرة^(٢) ، واختار الصواب على الإلف .

ثم اعلم^(٣) بمد هذا كله أن كل أمة وقرن ، وكل جبل وبنى أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفَضَّلُوا النَّاسَ في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ؛ فإنَّك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية ، إلاَّ أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم^(٤)] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ لأنَّ مَنْ كان متَّسِمًا الهوى ، مشرَّكًا الرَّأْيَ ، ومتمسِّبًا النَّفْسَ ، غير موفِّرٍ على ذلك الشيء ولا مهتَبًا له ، لم يَحْدِقْ من تلك الأشياء شيئًا^(٥) ؛ بأمره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكيم والآداب ، والقرب فيما نحن فيه ذا كروء في موضعه ، وآلِ ساسان في الملك ، والأتراك في الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا في العِلَلِ لم يَكُونُوا تَجَارًا ولا صُنَاعًا بِأَكْفَهُمْ ، ولا أَصْحَابَ زَرْعٍ ولا فِلَاحَةً وَبَنَاءَ ، وَغَرَسَ ، ولا أَصْحَابَ جَمْعٍ ومنع ، وحِرْصٍ وكَدٍّ ، وكانتِ المُلُوكُ تَفَرَّغُهُمْ ، وتَجَرَّى عليهم كفايتهم ،

ظ ٣٤

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفي الأصل وبعض أصول ن : « فطنه » تحريف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه في ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها يابض في الأصل ، وإثباته من ب .

فنفثوا حين نفثوا بأنفس مجتمعة . وقوة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتى استخرجوا الآلات والأدوات ، والالهة التي تكون جثماً للنفس ، وراحة بعد السكدة ، وسروراً يداوى قرح الهموم ، فصنعوا^(١) من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقرصونات^(٢) ، والقنانات ، والأسطرلابات^(٣) ، وآلة الساعة ، وكالكونيا^(٤) وكالسيزان^(٥) والبركار^(٦) وكأصناف الزمير ولعازف ، وكالطب والحساب والمهندسة والمخون ، وآلات الحرب كالخانيق ،

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « فصنوا » .

(٢) جاء في الزهرة النبعة لسواد الأنطاكي بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : « علم مركز الأقاليم مثل القرصطون . يعني القبان » . وجاء في كتاب الترميز والتدوير ص ١٣٨ ساسي : « وخبرني عن القرصطون كيف أخرج أحد رآسيه ثلاثة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ١ : ٨١ ، فيدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطرلاب أو الأسطرلاب : مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أسطرلابون . وأسطر هو النجم . ولايون هو المرأة ، وقد يهذى بعض المؤلفين بالاشتقاق في هذا المعنى بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر وهذا اسم يوناني ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . فمناييح العلوم للخوارزمي ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس في هذا الوهم الذي نبه عليه الخوارزمي في مادة (لوب) .

(٤) في الأصل : « وكالكرسا » بهذا الإجمال ، وأثبت مافي ج . ف . وفي مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو . وقال : « للتجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٥) ج . ف . « والكسيران » ن . س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من سائين متصلين ثبتت إحداها وتدور حولها الأخرى . رسم بها البواثر والأقواس . وتسمى بالعادية « البرحن » . وهي في الفارسية « بركار » .

والمرادات^(١) ، والرسائل^(٢) ، والذبابات ، وآلة النفاط^(٣) ، وغير ذلك
تما يعلول ذكره .

وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا قلة ؛ يصورون الآلة ، ويخطلون الأداة ،
ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها^(٤) ، ويشيرون إليها ولا يشوبها ،
ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فما سلكان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة ، والإفراغ والإذابة
والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخطوط والنحت والتصوير ، والنسخ والخط ،
ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه ، وإن اختلف جوهره ، وتباينت
صنعه ، وتفاوت ثمنه .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأن أولئك حكمة وهؤلاء قسلة^(٥) .
وكذلك العرب ، لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ،
ولا أصحاب فلاحه فيكونون مهنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صغار

(١) المرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة في القتال .
وانظر حواشي البيان والتبيين ٣ : ١٧ .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الرسائل » بالإهمال . وفي بعض أصول ن :
« الرقيات » . وباقى النسخ : « الرقيات » . وفي البيان ٣ : ١٧ : « الرتبة » .
(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « المثل ولا يحسنون العمل به » . وعدلت
العبارة لتتفق مع سائرهما .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « حكما وهم قلة » . وأثبت الصواب من ب .

الجزية^(١) . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم
وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من أئسنة للوازين ورووس للكاكيل ،
[ولا عرفوا الدوائيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر للذق الذي يشغل عن
المعرفة^(٢)] ، ولم يستغنوا الفنى الذى يورث البُلدة^(٣) ، والثروة التى تحدث
القرّة ، ولم يعتمدوا ذلاً قط فِيمِيت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكانَ
فياف وتربية القرّاء ، لا يعرفون العمق ولا الثنى^(٤) ، ولا البُخار ولا الغنظ
ولا الثمن ، ولا الثخم^(٥) . أذهان حديد ، ونفوس منكّرة ، تخين تحمّلوا حذم
ووجهوا قوام لقول الشعر وبلاغة للنطق ، وتشعّب اللّغة وتصاريف الكلام ،
بمد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ،
وتعرّف الأنواء ، والبصر بالخيال والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلّ مسموع
والاعتبار بكلّ محسوس ، وإحكام شأن الثنالب والناقب ، يلقوا فى ذلك
الغاية ، وحازوا كلّ أمانة . وبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ،
ومهمهم^(٦) أرفع من جميع الأمم وأنغر ، ولأبائهم أحفظ وأذكر .
وكذلك الترك أصحاب عمد وسُكان فياف وأرباب مواش ، وهم أعراب

٣٥ و

(١) الصغار : الدل .

(٢) الشكّة من ب ، ولم يبيّن لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء ، فتحها : ضد الثفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) العمق : الندى والرطوبة والوخامة . والثنى : الندى مع سكون الريح .

فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) الثخم : الوحش ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت ما فى ب .

البحر كما أن هذياناً أكراد القرب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطب والفلاحة والمهندسة ؛ ولا غرس ولا بُنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن مخيم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، ومطالب الغنائم وتدويع اللذان . وكانت مهمهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه^(١) المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة ، عابها . وموصولة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره^(٢) ، وإصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، [ولدتهم^(٣)] وغرم ، وحديثهم وتمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كال يونانيين في الحكمة ، وأهل الصنعة في الصناعات ، والأعراب فيما عدنا ونزلنا ، وكآل سامان في الملك والرياسة .

ومما يستدل به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستفروا ، وبلغوا أقصى غاية وتعمقوا ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلد . أو يضرب به ضارب ، قد مرّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقات من الصناعات . كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه . ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يشككّه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويجمعه ، ويصقيه ويهذبه ، غير الذي يذّده ويملّله^(٤) ؛ والذي يذّده ويملّله^(٥)

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التسكلة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « غير الذي يذّده ويملّله » . وأثبت ما في ب .

(٤) اللطال : شد . وفي الأصل وبعض أصول ن : « ويملّله » تحريف .

٣٥ ظ

غير الذى يطبعه ويسوى منته ، ويقم خَشْبَتَهُ^(١) ؛ والذى يطبعه ويسوى منته
غير الذى يسقيه ويرهفه ، والذى يرهفه غير الذى يركب قَبِيْعَتَهُ ويستوثق
من سِيلَانِهِ^(٢) ، والذى يعمل مسامير السِيلَانِ و [شاربِي^(٣)] القبيعة ونصل
السيف غير الذى ينحت خَشَبَ غِمدِهِ ، والذى ينحت خَشَبَ غِمدِهِ غير الذى
يدبغ جلده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلّيه ، والذى يحلّيه ويركب نعلَه
غير الذى يخزرج حماله . وكذلك السراج^(٤) ، وحالات السهم والقبعة والرمح
وجميع السلاح ، مما هو جارح أو جُنّة^(٥) .

والتركي يعمل هذا كله لنفسه من ابتدئه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ،
ولا يفرغ فيه إلى صديق^(٦) ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطالعه
وتشويفه ، وأكاذيب مواعيده ، ويقوم كرائه .

وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص . وبلغ له النهاية في جمعه لأبواب
الكفاية بنفسه ، قال :

(١) في اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشبية ، يقول عرض حين طبع » .
في الأصل وبعض أصول ن : « جنبته » ، ج : « خشبته » ، وأثبت ما في ن ،
س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : منح قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التسلية من ن ، س . ويطلق ج « وشاذى » وفي ف : « وشاذى » .
والقبيعة : ما على مقبض السيف من قضة أو حديد . والشاربان : أعنان طويلان
في أصل مقبض السيف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما يبقى به من نرس ونحوه . في الأصل وبعض أصول ن :
« خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفرغ إلى رأى صديق » .

قَبِيْئٌ مَّيِّتٌ اَلْيَلِ لِلصَّيْدِ مُعْتَمِرٌ لَّاسُهِمِهِ غَارٌ وَبَارٍ وَرَاصِفٌ^(١)
وليس أنه ليس في الأرض تركيُّ إلا وهو كما وصفنا ، كأنه ليس كل
يواني حكيماً ولا كل صبيٍّ غايةً في الخدق ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعراً غانفاً ،
ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الذي نكاملت به النجدة^(٢) والفروسيّة في التّرك دون
جميع الأمم ، وفي العامل التي من أجلها انضموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني
تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصال عجيبية .

فتبنا : ما يقضى لأهله بالكرم ويبتعد الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما يبدئ
على الأدب الشديد والرأي الأصيل ، واليقظة الثّاقبة والبصيرة النافذة .
ألا ترى أنه ليس بذو صاحب الحرب من العلم والطمح ، والحزم والعزم ، والصبر
والكتيان ، ومن الثقافة^(٣) ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدّ من البصر
بالخيل والسلاح ، والخبرة^(٤) بالرجال والبلاد ، والعلم بالسكان والزمان
والكفايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلّها .

(١) ديوان أوس ص ٧١ . نصي ميت الليد . يقول : لا بيت مع أهله .
إنما بيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الميّد ، إذا كان مرزوقاً .
منه : غار . هو من غراء يغروء . إذا طلاه بالبراء . والبري معروف . والراصف .
من الرصّة . وهي ما يشد على صدر السهم . في الأصل : « وراصف » ، صوابه في ن .
س . والبيت والكلام التعلق به قبله سائق من ج . ف .

(٢) في الأصل وبه من أصول ن : « قد قلنا في السنة التي نكاملت نجدة » .
صوابه في ب .

(٣) التكلّة من ب . (٤) التكلّة من ب .

٣٦ و

والثالث ينجح إلى أوانح شداد وأسباب مِتَّان ، ومن أتمها سببا وأعماها
نفعاً ما ثبتته في نصابه ، وأقره وسكنه في قراره ، وزاد في تمسكه وبهائه ،
وقطع أسباب المطعمة فيه ، ومنع أيدي البغاة من الإشارة إليه فضلاً عن البسط
عليه^(١) .

قال : ثم إنَّ التُّرك عطفَتْ على العرب بالحاجة والمعاينة ، وقالوا : فلم
إن تسكن القرابة مما يستحقُّ بالكتابة فنحن أقدمُ في الطاعة والودِّ والمناصرة ،
وإن تسكن تُستحقُّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صنفان : عدنان وقحطان . فأما القحطانيُّ فقسبنا
إلى الخلفاء أقرب من نسبهم ، ونحن أُمسُّ بهم رحماً : لأنَّ الخليفة من ولد
إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطان وعابر . وولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل ،
وأُمُّه هاجر ، وهي قبطية . وإسحاق وأُمُّه سارة وهي سريانية . والستة الباقون
أُمُّهم قَطُورا بنت مفلون^(٢) عربية ، من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إنَّ أمتنا أشرفُ في الحسب إذ كانت عربية .
وأربعة من الستة هم الذين وقَّعوا بخراسانَ ، فأولُّوا ترك خراسان . فهذا قولنا
للقحطاني .

(١) الكلام بعده إلى « وكأها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار ج ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « أمهم قنطور » . والوجه ما أثبت من حميرة
أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ . وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٢٥ : ١
« قنطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة في سفر التكوين .

وأما قولنا للعذنانى ، إبراهيم أبونا ، وإسماعيل عثنا . وقربنا من إسماعيل
كقربناهم .

قال الميهم بن عدي : قيل لبارك الله فيكم ، وعنده سحاذ التركي : إنكم من
مذحج . قال : ومذحج هذا من هو ذلك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله
وأُمير المؤمنين .

قال الميهم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مذحج فأنسل نسلًا
كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوية للعرب في قصيدة طويلة :

زعمتم بأنَّ الترك أبناء مذحج وبينكم قرني وبين البرابر
وذلكم نسل ابن ضبة هاشم وصوفان أنسال كثير الجرائر^(١)
وقال آخر :

مضى كانت الأتراك أبناء مذحج ألا إنَّ في الدنيا عجيباً إنَّ عجيب

وقد سمعتم ما جاء في سد بني قنطور^(٢) وشأن خيولهم يدخل السواد^(٣) ،
وإنما كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا
للإسلام مادة [و] جنداً كثيفاً ، وللأخلاء وقايةً وموتلاً وجنةً حصينة ،
وشعاراً دون الدمار .

(١) في جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وبأس بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) في الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن . س : « تبحر السواد » . والسواد سواد العراق . وهي قرى الكوفة
والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفي المأثور من الخبر : « تَارَكُوا التَّرِكَ مَا تَارَكُوكُمْ » . وهذه وصية لجميع العرب : فإنَّ الرأى متاركتنا ومسانتنا . وما ضلَّكم بقسوم لم يعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » شتموا التَّرك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبة وقسراً ، وعتوة وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلْبُهُ . قليلٌ سَلْبُهُ » . فنهى كما ترى عن التعرض لهم ، بأحسن كناية .

والعربُ إذا ضربت السِّل في العداوة الشَّديدة قالوا : ما هم إِلَّا التَّرِكُ والذَّلِيلُ . قال عَمَّاسُ بْنُ عَقِيلٍ بن عُلْفَةَ :

تبدلت منه بعد ما شاب مفترق عداوة تركي وبغض أبي حنبل
وأبو حنبل هو الضَّب . والعرب تقول : « هو أعق من ضَب » ؛ لأنه يأكل أولاده .

ولم يرعب قلوب أجناد العرب مثل التَّرك . وقال خلف الأحمر :

كأنِّي حين أرهنتهم يَبْقَى دفعتهم إلى صُهب السَّبال^(١)
قال : وإيَّام عتي أوس بن حجر :

نكبتُها ما هم لما رأيتهم صُهب السَّبالِ بأيديهم ييازِر^(٢)

(١) يجوز في ياء التَّكْم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرهما . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أتم يصرخي » بالكسر . الأثخوني ٢ : ٢٨٢ .

(٢) في الأصل وفي بعض أصول ن : « سكهم اسام » . وكتب في حاشيتها : « ط حسينهم أنهم لما رأيتهم » أي الظاهر . والمواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . واليازِر جمع بزازة . وهي العسا العظيمة . وفي الأصول : « مارين » صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيم بن السندی مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ،
شديداً الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط موالیه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس
إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم^(١) ، وكان نغم المغانم ، لوقت
لسانه كان أرد^(٢) على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان
طير^(٣) ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان ملك
الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن^(٤) أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله
أمره ، وأفزعه شأنه ، وتماطله جموعه وجمعه ، وبطل به^(٥) ، وفطن به خاقان
وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

« إني لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ،
فلا ترع . ولو كنت أريد غلبة أو مكروهاً لقد كنت انتسفت عسكرياً انفاقاً »

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علته إياه . انظر اللسان
(درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذلك ، أي أنفع وأكثر عائداً .

(٣) التهرير : التهورر المسال . وإن كان لم ينس عليه في العاجم المتداولة .
والطيرير : الهدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث . للري . جمهرة أنساب
العرب ٢٥٢ ، وقروح البلدان للبلاذري ٩٠٣ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ . وقد استعمله هشام
ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك .
الطبري ٨ : ٢٠٤ - ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلاني .
وقد ولي خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بطل به : ضاق به ودهش فلم يدرك كيف يصنع .

أعجلك فيه عن الروية وقد أسرت موضع العورة . ولولا أن تعرف هذه
 المسكيدة فتعود بها على غيرى من الأتراك ، لمفقتك موضع الانتشار والظلل
 والظلمة في عسكرك وتعبيتك . وقد باقنى أنك رجل عاقل ، وأن لك شرفاً في
 بيتك وفضلاً في نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحبيت أن أسأل عن شيء من
 أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فأخرجنى إلى في خاصتك لأخرج إليك وحدى ،
 وأسألك عما أحتاج إليه بنفسي . ولا تحتفل ولا تعترس : فليس مثلى من
 غدر ، وليس مثلى يؤمن من نفسه ، ومن مكره وكيد ، ثم ينكث بوعده .
 ونحن قوم لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعة إلا في الحرب ، ولو استقام
 أمر الحرب بغير خديعة لما جورنا ذلك لأنفسنا .

فأبى الجنيد أن يخرج إليه إلا وحده ، ففصلاً من الضغوف . وقال :
 سل عما أحبيت ، فإن كان عندى جواب أرضاه أجبتك ، وإلا أشرت
 عليك بمن هو أبصر بذلك منى .

قال : ما حكمكم في الزانى ؟

قال الجنيد : الزانى عندنا رجلان : رجل دفعنا إليه امرأة تفتيه عن
 حرم الناس ، وتسكفه عن حرم الجيران ؛ ورجل لم نعطه ذلك ، ولم نحل
 بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذى لازوجه له فإن نجلده مائة جلدة
 ونحضر ذلك الجماعة من الناس لتشهره ونعذره به ، ونقره في البلدان
 ليزيد في شهرته وفى التحذير منه ، ولينزجر بذلك كل من كان يهمل بمثل
 عمله . فأما الذى قد [أغنيته^(١)] فإننا نرجمه بالجندل حتى يقتله .

(١) موضعها يياض في الأمل . وإثباتها من ن ، س .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير ، فاقولكم في الذي يقدِّف عفيفاً بالزنى ؟

قال : يجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة ، ولا تصدق له حديثاً .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير ، فاحكمكم في السارق ؟

قال : السارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتى يأخذها بتغيب حيطاتهم وبالتسلف من أعالي دُورهم ؛ فهذا تقطع يده التي سرق بها ، وتغيب بها ، واعتقد عليها . ورجل آخر يخيف السبيل ، ويقطع الطريق ، ويكاد على الأموال ^(١) ، وبشهر السلاح فإن منعه صاحب المتاع قتله ، فهذا يقتله وتصلبه على المشايخ والطرق .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير . قال : فاحكمكم في الفاسد والمستلب ؟

قال : كل ما فيه الشبهة ويموز فيه الفلأط والوجوه ، كالفقير والامتلاب ، والجنابة ، والسرقة لما يؤكل أو يشرب فإن لا تقطع فيما فيه شبهة وتمتعل ^(٢) لذلك وجهاً غير السرقة .

قال : حسن جميل وتدير كبير . قال : فاحكمكم في القاتل وقاطع الأذن والأنف ؟

(١) المراد بالمكابدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما في ن . س .

(٢) في أصول ن : « ويمتعل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويمتعل » ، وبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النفس بالنفس ، والعَيْنُ بالعَيْن ، والأنفُ بالأنف . وإن قتل رجلاً عَشْرَةً قَتَلْتَنَاهُ . وقتل القويَّ البدن بالضعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرجل . قال : حسن جميلٌ وتديير كبير . قال : فما تقولون في الكذاب والنَّمام والضُّراط .

قال : عندنا فيهم الإقصاء لهم وإبعادهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتهم ، ولا نصدق أحكامهم .

قال : وليس إلا هذا ؟

قال : هذا جوابنا على ديننا .

قال له : أمّا النمام عندي ، هو الذي يُضرب بين الناس^(١) ، فأني أحبُّه في مكانٍ لا يرى فيه أحداً . وأمّا الضُّراط فأني أُكرِّمُ استه ، وأعاقب ذلك السَّكَّانَ فيه^(٢) . وأمّا الكذاب فأني أقطع الجارحة التي بها يكذب ، كما قطعتم اليد التي بها يسرق ، وأمّا الذي يضحك الناس ويعودهم الشُّخف فأني أخبره من سلطاني ، وأضاح بإخراجه عقولَ رعيتي .

قال : فقال الجليد بن عبد الرحمن : أتم قومٌ تردُّون أحكامكم إلى جوار العقول . وإلى ما يحسن في ظاهر الرأي ؟ ونحن قومٌ نقيم الأنبياء ، ونرى أن نصلح على تدبير العباد . وذلك أن الله تعالى أعلمُ بقيب المصالح وسير الأمر^(٣)

(١) وكذا في ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما لكن في س : « وهو الذي يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جعلت في ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وسير الأمر » .

وحقائقه ، وتحصوله وعواقبه ، والناس لا يعلمون ولا يرون الحزم إلا على ظاهر الأمور . وكم من مُضَيِّع يَسْلَم ، وحازم يعطب .

قال : ما قلت كلاماً أشرف من هذا ، ولقد أقيت لي فكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبدُ اللط : قال صالح : قال الجنيد : فلم أرَ أَوْفَ ولا أنصفَ ولا أفهمَ ولا أذكرى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعاتٍ من النهار وما تحرك منه شيء : إلا لسانه ، وما متى شيء لم أحرَّكه .

و ٣٨

وهكذا يصِفون ملوكَ الترك ، يزعمون أن ساسان وخاقانَ الأكبر ، توافقا ببعض الكسور^(١) ، وفَصَلَا من الصَّغِيرِ ، وطالت المناجاة ، فلما انفكلا قالوا : كان خاقانُ أركنٍ وآدب ، وكان مَرَكِبٌ كسرى أركنٍ وآدب^(٢) ، ولم يتحرك من خاقانٍ إلا لسانه ، وكان يردونه يرفع قائمةً ويضع أخرى ، وإن مركب كسرى كأنما ضَبَّ صَبًا ، وكان كسرى يحرك رأسه ويشير بيده . قالوا : ومن الأعاجيب أن الحارثَ بن كعب لا يقوم لحزم^(٣) ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندة لا تقوم للحارث بن كعب .

(١) كسور الأودية والجيال : معانقها وشعابها ، لا يفردها واحد كما في اللسان .
و قد حورت في ن . س إلى « الجسور » خلافاً لما في الأصول ، وليس ما يدعو إليه .
(٢) أركن من الركاة . وهي السكون والوقار . وفي جميع الأصول : « أركى » في هذا الوضع .

(٣) بنو حزم بن زيد بن لؤذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار . جمهرة أنساب العرب ٣٤٨ . وفي العرب جرم بن ربان بن حلوان ابن مهران بن الحاف بن قضاة . الجمهرة ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ،
والترك لا تقوم للروم ، والروم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذى^(١) : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك
من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميلة بذلك
الصهر ، ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والروم ،
وكيف ناسجوا الظفر ، وبأى سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا^(٢) ، وبأى
سبب بنيت الرومية^(٣) ، ولم سميت بذلك ، ولم يبن كسرى على الخليج قبالة
قُصْلَتِطِينَةِ التَّوَاوِيسِ^(٤) وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الروم على ترك
خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها اللئلى إلى آخر دارمه^(٥) ، ومن هناك من
الأشياء ، ومن يتخلل هذا السب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك
شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعونه بها . السمعاني ١٤٩ والفرق بين
الفرق ١٩٩ واللؤلؤ والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٣٨ . البداية والنهاية
١٠ : ٢٧ ولسان اللسان ٢ : ١٤٣ . ويقال له أيضاً السمرقندي كما في لسان اللسان .
وفي الأصول : « اليربدي » بالإهمال .

(٢) التي في معجم البلدان « شوشة » قل : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهي غير رومية الروم . انظر معجم البلدان
(رومية) .

(٤) التواويس : جمع ناووس ، وهي مقابر الصاري .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزا شاهی^(١) أمّ يزيد الناقص^(٢) والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، و مروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عائكة :

أنا ابنُ كسرى وابنُ خاقانٍ وقيصرٌ جدّي وجدّي مروان^(٣)
فلما صار إلى الانتصار في شعره بالثجدة والثغفة بالحرب ، لم يفخر إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنتُ أربي مُقبلاً ثم مُدبراً وأطلع من طودٍ زليقٍ على مُهر
نخاقان جدّي فاعرف ذاكِ واذكري أخايته في السهل والجبل الوعر^(٤)
قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام^(٥) وأخذوها من نازلة العرب في أوّل الدهر . وجعل دابته مُهرًا ، لأنّ ذلك أشدُّ وأشقّ .

(١) في الأصول : « فيروزا بنتاهي » تحريف . وفي الطبري ٩ : ٤٦ أن اسمها « شاه آفريد بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبري ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال : « وإعاقيل يزيد الناقص لقصه الناس الزيادة التي زادها لها الوليد بن يزيد في أعطياتهم وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبري أيضاً أنه سمى بذلك تلقباً له من مروان ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد فيها الناس الناقص لملك . فهذا تعليق آخر . وفي أمثلة التحويلات : « الناقص والأشج أعدلا بني مروان » . والأشج : عمر ابن عبد العزيز ، سمى بذلك لشجّة أصابته .

(٣) في الطبري ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وابن مروان وقيصر جدّي وجدّي خاقان
(٣) ن ، س : « أخايته » .

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا مطلع عنهم وعلمهم بمعنى غاب واختفى . وطلع عنهم وعلمهم بمعنى أقبل .

وقال الفصل بن العباس بن رزيق : أنا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من ذلك الحصون ، وأبصر فارسٌ منهم شيئاً يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لئن لم تنزل إلي لأقتلك فتاة ماقتلتها أحداً ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب . ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتحه له وهو في أحسن موضع وأمن مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعهم بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم غلّ سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فابست إلا قليلاً حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يستوي درهماً^(١) ، وهذا غيب فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غالٍ جداً بالنصف الآخر . قال : فإذا هو أظرف الملق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجلين ، وقد كان سميعاً باحتيال الترك في دخول الثغور وعُبور الأمهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب^(٢) . وقال ثمامة : ما شبهت الدر إلا بالترك ؛ لأن كل ذرة على حديثها معها من المعرفة بأخبار الظلم ، ومن الشم والاسترواح ، وتجب المذخر^(٣) حتى

(١) أي لا يساوي درهماً . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد . وحكاها أبو عبيدة كما في اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أي لم يكن كلامه وعياداً خصب . وفي ن بعده : « إلا وعنده » . ثم أكملها فان فلتون بعبارة « شيء من ذلك » .

(٣) التجب : العس والتعسر ، والمراد شق الحروب . انظر الجوهري ٤ : ٥-٦ .

لا يثبت في جعره^(١) ، ثم الاحتياال للناس في الاحتياال لما بالصيام والعقاص
والمزجر^(٢) ، وتعلق الطعام على الأوتاد والبرادات ، مثل التذر مع صاحبها .
وقال أبو موسى الأشعري : كل جنس يحتاج إلى أمير ورئيس ومدبر ،
حتى التذر^(٣) .

وروى أبو عمر الضرير^(٤) ، أن رئيس التذر الرائد الذي يخرج أولاً
إشي قد كتمه دون أصحابه ، لخصوصية خصه الله تعالى بها ، ولطافة الحس ،
فإذا حاول حمله وتعالى نقله ، وأعجزه ذلك بعد أن يبلى عذرا ، أتاهن
فأخبرهن فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود ممدود . وليست ذرة أبدا
تستقبل ذرة أخرى إلا وأقمتها وسارتها بشي . ثم انصرفت عنها^(٥) .

٣٩ و

وكذلك الأتراك كل واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحة أمره ،
إلا أن التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنبات والحيوانات . وقد تختلف
الجواهر وكلها كريم^(٦) ، وتتفاضل العتاق وكلها جواد .

== ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفي الأصل « يجب » بإهمال الحرف الأول والثالث . وجعلها
قار فلوئن : « وتجنب المزجر » .

(١) في الأصل : « حتى لا يثبت إلا في جعره » . والوجه ما أثبت . انظر التبيين
السابق ومراجعته .

(٢) في الأصل : « والمزجر » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسمه في البيان ٢ : ٦٩ . وفي بعض نسخ البيان « أبو عمرو والضرير »
وورد في الحيوان ٤ : ٢٠ « أبو عمرو المكثوف » .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧ - ٨ .

(٦) في الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمْل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقع ذلك بالواقعة فتوفيق الله وصنعه ، وإن قصر دون ذلك فالذى قصر بنا نقصان علمنا ، وقلة حفظنا وسماعنا . فأما حسن النية ، والذي نُصير من الحجة والاجتهاد في القرية ، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلامنة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقصات ، وكتب السائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غاية إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار قص أخيه ووليه ^(١) ، لكان كتاباً كبيراً ، كثير الورق عظيماً ، وكان العدد ^(٢) الذين يقضون لؤلؤه بالعلم والأشاع في المعرفة أكثر وأظهر . ولكننا رأينا أن القليل الذي يُجمع خير من الكثير الذي يُفترق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريب ، فقال لما يريد .

تم الكتاب والله المنة ، وبيده الحول والقوة

والله للوفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسيناً ونعم الوكيل .

(١) في ن ، س : « وولده » .

(٢) في ب : « عدد » .

٢

رِسَالَةٌ

الْمِعَاشِ وَالْمَعَادِ
أَوْ

الْأَخْلَاقُ الْمَحْمُودَةُ وَالْمَذْمُومَةُ

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الممدودة والذمومة) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل ، والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة العاد والغاش في الأدب وتدبر الناس وعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) وترتيبها في المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو في غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به في كتابي الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاصياً كأيّيه . ولاء المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فاجأه أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ . ومات أبوه بعده بعشرين يوماً^(١) .

والراجع أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المکتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحدائنة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات . فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام سلطانه .

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر ل ترجمة أبيه وإخوته جبهة أنساب العرب ٣٢٨ . وتاريخ بغداد ١ : ١٤٩ — ١٥٦ . ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . ولقد انفرد ابن حزم بتسمية أبيه أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالعاش والمعاد في ص ٩٥ س ١٧ .
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

- ١ — نسخة الأصل في الموضع الأول من المجموعة .
- ٢ — نسخة الأصل في الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .
- ٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تنقلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
- ٤ — نسخة باول كراوس ومحمد طه الجاجرى ورمزها ط .

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَمَتَّ بِكَ ^(١)

أما بعدُ فَإِنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يحسن الارتياذَ بوضع البُنية ، وأن يبين أسبابَ الأمور ويمهّدَ لعواقبها . فإنما حُجِدَت العلاء بحسن التثبت في أوائل الأمور ، واستشفافهم ^(٢) بمقوِّلم ما تجي به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤوّل به الحالات في استدبارها . وبقدر تفاوتهم في ذلك نستبين فضائلهم . فأما معرفة الأمور عند تكشّفها وما يظهر من خفّياتها فذلك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون ^(٣) .

وإني عرفتك - أكرمك الله - في ألبم الحداثة ، وحيث سلطان الألبم المخاق للأعراض أغلب على نظرائك ، وسكر الشباب والجدة ^(٤) للتحيّفين للدين والرؤى مستول على إبدانك فأختيرت أنت وهم [ففقتهم ^(٥)] يسلطة للقدرة وحمّيا الحداثة ، وطوّل الجدة ، مع ما تقدّمهم فيه من الوسامة في الصورة ، والجمال في الهيئة . وهذه كلّها أسبابٌ [تكاد أن ^(٦)] توجب

(١) « حفظك الله وأمتت بك » من د ق قط .

(٢) د : « واستشفافهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » -

(٤) الجدة ، كعدة : اليسار والسعة والعنى ، ومثلها الوجد مثانة الواو : م :

« الحدة » تصحيف .

(٥) الشكّة من م .

(٦) الشكّة من م .

الاعتقاد للهوى ، ولجج من للمالك لا يسلم منها إلا للقطع القرن في حنة
القطرة ، وكال العقول . فاستبدت منهم الشهوات حتى أعطوها أزيمة أديانهم ،
وسلطوها على مروتهم وأباحوها أعراضهم ، قالت بأكثرهم الحال إلى ذل
المدم وقد عز الغنى في العاجل ، والندامة الطويلة والحسرة في الآجل .

وخرجت نسيج وحدك ، أو حديثاً في عصرك^(١) ، حكمت وكيل الله
عندك - وهو عقلك - على هواك ، وأقيمت إليه أزيمة أمرك ، فسلك بك
طريق السلامة^(٢) ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات
أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرتك من صنوف
النعم^(٣) أكثر مما تصرفتوا ، وربط عايتك من نعم الله التي حوئك ما أطلقته
من أيديهم إشار اللهو^(٤) وتسلطهم الهوى [على أنفسهم]^(٥) ؛ غاض بهم سبل
تلك اللجج^(٦) ، واستغفدك من تلك المعاطب ، فأخرجك سايئ الدين ، وافر
المروءة ، نقي العرض ، كثير الثراء ، بين الجدة^(٧) . وذلك سبيل من كان ميله
إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

(١) هذا ما في د . وفي الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما في د . وفي الأصل : « طرق » وفي م : « سبل » .

(٣) هذا ما في د ، م وفي الأصل : « التمتع » .

(٤) د : « إشار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) في الأصل . م : « غاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما في د .

(٧) هذه الكلمة والتي قبلها ساقطتان من د . وفي الأصل ، م : « من الجدة » ،

فلم أَزَلْ [أَبْجَاكَ اللهُ ^(١)] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك
 بعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع
 إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، ارتياداً
 مني لموضع الخيرة في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاة في المودة ، وتخيراً
 لاستودع الرجاء في الثابتة .

فلما حَصَفَتْك الخيرة ، وكشَفَتْك الابتلاء عن الحمدة ، وقَصَتْ لك
 التجارب بالتَّصَدِيق ، وشَهِدَتْ لك قلوبُ العائِمَةِ بالقبول والمحبة ، وقَطَعَ اللهُ
 عُدْرَ كُلِّ مَنْ كَانَ يَطْلُبُ الاتِّصَالَ بِكَ ، طابَتْ الوَسِيلَةُ إِلَيْكَ والاتِّصَالَ
 بِعَيْكَ ، ومَتَتْ بِحُرْمَةِ الأدب وذِمَامِ كَرَمِكَ . وكان من نِعمَةِ اللهِ عندي
 أَنْ جَعَلَ أَبَا عَبْدِ اللهِ ^(٢) - حَفِظَهُ اللهُ - وسِيَّاتِي إِلَيْكَ ، فوجدت للطلب سهلاً
 والتمردَ محموداً ، وأَفْضَيْتُ إِلَى مَا يَجُوزُ الْأَمْنِيَّةُ وَيَفُوتُ الْأَمَلُ ، فوصلتُ
 إِخَائِي ^(٣) بِمُودَتِكَ ، وَخَلَطْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وَأَسْتَمْتَنِي فِي مِرَاغِي ذَوِي الْخَاشِعَةِ
 بِكَ ، تَفَضُّلاً لَا مَجَازَاةَ ، وَتَطَوُّلاً ^(٤) لَا مَكَاافَةَ ، فَأَمِنْتُ الْخَطُوبَ ، وَاعْتَلَيْتُ
 عَلَى الزَّمانِ ، وَأَتَخَذْتُكَ لِلْأَحْدَثِ عُدَّةً . وَمِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ حِصْنًا مَنِيعًا .

فَدَلَّ حُرَّتُ الْمُوَانَسَةِ ، وَتَقَلَّبَتْ مِنْ فَضْلِكَ فِي صُنُوفِ النِّعَةِ ، وَزَادَ
 بِصَرِي مِنْ مَوَاهِبِكَ فِي الشُّرُورِ وَالْخَيْرَةِ ، أُرِدْتُ خَيْرَةَ الشَّاهِدَةِ . فَيَبُوتُ

(١) التَّكَلُّفُ مِنْ أَحَدٍ أُصُولُ ط .

(٢) لَعَلَّهُ يَحْنِي أَبَا عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَاد .

(٣) د : « رَجَائِي » .

(٤) د : « وَتَكْرَمًا » .

أخلاقك ، وامتنعت شيمتك ، وجمعت مذهبك على حين غفلاتك ، وفي
 ٤١ ط الأوقات التي بقل فيها تحفظك ، أراعى حركاتك ، وأراقب مخارج أثرك
 ونهيبك ، فأرى [من] استصغارك لعظيم النعم التي تنعم بها ، واستكثارك
 لقليل الشكر من شاكرك ، ما أعرف به^(٢) [و] بما قد بلوت من غيرك ،
 وما قد شهدت لي به التجارب ، أن ذلك منك طبع غير تكلف .

هيهات ! ما يكاد ذواتك تكلف أن يخفى على أهل العباد^(٣) ، فكيف
 على منلى من المتصفحين . فزادنى اللؤاسة فيك رغبة ، وطول العشرة لك
 محبة ، وامتنانى أفاعيلك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونة .

وكان من تمام شكرى لربى ولنى كلّ نعمة ، وللبتدى بكل إحسان ،
 الشكر لك والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل^(٤) ؛ لأن الله تبارك
 وتعالى نظم الشكر له بالشكر لذى النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبأهما
 إلا معاً ؛ لأن أحدهما دليل على الآخر ، وموصول به . فن ضيع شكر
 ذى نعمة من انطلق فأمر الله ضيع ، وبشاهده استخف^(٥) .

ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال
 صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

(١) التكلفة من أحد أصول ط .

(٢) فى الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التى قبلها والى بعدها من أحد
 أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليثتم القول .

(٣) فى الأصل و د : « على النباه » ولم يعرف هذا الجمع لى ، ولا هو . فميس .
 وأثبت ما فى م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . فى الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما فى د .

ولعمري إنَّ ذلك لوجودٌ في القطرة ، قائمٌ في القل : أن من كفر نِعَمَ الخَلْقِ كان لِنِعَمِ الله أكفر ؛ لأنَّ الخلق يُعطى بعضهم بعضاً بالكُفَّةِ والمِثْقَةِ ، وَثَقُلَ العطية على القلوب ، واللهُ يعطى بلا كُفَّةٍ . ولِهذا العلة جمع بين الشكر له والشكر لِدَوَى النِّعم من خلقه .

فلما وجبت على الحِجَّةُ بِشُكْرِكَ ، وقُطِعَ عُذْرِي في مكافأتِكَ ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّي ذلك ، إلَّا أَنِّي بسطتُ لساني بتقريظِكَ ونشرِ محاسنِكَ . موصولٌ ذلك مَنى^(١) عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « من أودع عُرْفًا فليشكره ، فإن لم يمكنه فليشره » ، فإذا نشره قدَّ شَكَرَهُ ، وإذا كتبه قدَّ كَتَبَهُ .

نم رأيت أن قد بقى على أمرٍ من الأمور يمكنني فيه برك ، وهو عندي عتيق ، وأنت عنه غير مستغنٍ . والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله . ولم أزل أبتاك الله بالموضع الذي قد عرفت^(٢) ، من جَمْعِ الكُتُبِ ودراسِتها والنِّقَارِ فيها ، ومعلومٌ أنَّ طُولَ دراستها إِنَّمَا هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيين ، وذوى الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم ، وكتِّبِ أهل اللُّل .

فرايتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عالَ الأشياء ، وأخبرُك بأسبابها وما انتفعت عليه بحسنُ الأمم .

(١) في الأصل : « عندي » وأثبت ما في د .

(٢) د : « عرفت » .

وعلمتُ أن ذلك من أعظم ما أبرّك به^(١) ، وأرجح ما أقرب به إليك .
وكان الذي حدّثني على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفهم والعقل ،
وركّب فيك من الطبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء^(٢) أن العقل المطبوع والكرم الفرزي لا يلفغان
غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب . ومثّلوا ذلك بالنار والخطب ،
والمصباح والدّهن . وذلك أن العقل الفرزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما
الأدب عقلٌ غيرك تزيد في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضى الآداب قبل قد عهدوا إلى الغابرين^(٣) بدمهم في
الآداب عهدوا قاربوا فيها الحق ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلا أنّي رأيتُ أكثر
مارسّموا من ذلك فروغاً لم يبينوا علّها ، وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها ،
وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها .

فإن كان ما فعلوا من ذلك [روايات رَوّوها عن أسلافهم ، و^(٤)] أروايات
وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من استنبط^(٥) .
وإن كانوا تركوا الدلالة على علل الأمور^(٦) التي بمعرفة عللها^(٧) يؤصل إلى

(١) د : « أسرك به » .

(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .

(٣) د : « الغابرين » .

(٤) التسكّلة من د ، م .

(٥) د . د : « يستنبط » . م : « استنبط » .

(٦) هذا ما في الأصل و م . وفي د : « على أعيان الأمور » .

(٧) د : « الثلاث على معرفة عللها » . وفي الأصل : « التي في معرفة عللها » .

وأثبت ما في م .

مباشرة اليقين فيها ، وينتهي إلى غاية الاستيعار منها ، فلم يقدوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبة معها الأمثال .

فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصل لك فيه الطائعات التي ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كأهمهم ، فهم فيها مستنون^(١) ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبيّن لك كيف تفرق بهم الحالات ، وتفاوت^(٢) بهم النازل ، وما العمل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول . وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعا ثانيا . ولم أختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُختال لقلوبهم به حتى تُستال ، وحتى تؤانس بعد الوحشة ، وتُسكن بعد القنار ؟ وكيف يُتأنّى ليقف^(٣) ما فيهم من الطباع الذمومة حتى تُصرف إلى الشيم الحمودة ؟ ورأيت لك في ذلك أصولاً ، ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه .

(١) في الأصل : « متساوون » وأثبت ما في د .

(٢) أي تفاوت ، بحذف إحدى التاءين وفي د : « وتفاوت » .

(٣) د : « لقص » .

وقد علمت أن في كثير من الحقّ مشبهات لا تقيبان إلا بعد التفار ،
وهناك يَحْتَلُّ^(١) الشَّيْطَانُ أَهْلَ الْغَفْلَةِ ، وذلك أنه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن
الأُمُور الظَّاهِرَةِ^(٢) .

فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعا إلا أفتُ لك يازء ، كلّ شبهة منه
دليلا^(٣) ، ومع كلّ خفي من الحقّ حجة ظاهرة ، تستبطن لها غوامض البرهان
وتستبين بها دقائق الصواب^(٤) ، وتستشف بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي
عن بينة ، وتدع ما تدع عن خيرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير
مما يغيب عنك ، إذا عرفت العال والأسباب ، حتى كأنك مشاهد للضمير
كلّ امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه
ثم ؛ غير راضٍ لك بالأصول حتى أتقصي لك ما بلغه على من الفروع .
ثم لا أرسم لك من ذلك [إلا^(٥)] الأمر للعقل في كل طبيعة ، والموجود
في فطر البرايا كلها^(٦) . فإن أحسنت [رعاية^(٧)] ذلك وأقته على حدوده ،
ونزلته منازلّه ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلا ، وفارقت ما لا بدّ
لك من فراقه محمداً ، إن شاء الله .

٤٣ و

(١) في الأصل : « يَحْتَلُّ » صوابه في د . ويَحْتَلُّ : يَخْدَع .

(٢) في الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما في د .

(٣) كلمة « منه » ليست في الأصل ، وإثباتها من م وفي د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التَّسْكِينَةُ من د .

(٦) في الأصل : « في فطرة » ، وأثبت ما في د .

(٧) التَّسْكِينَةُ من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنما هي آلاتٌ تصنعُ أن تُستعملَ في الدِّينِ وتُستعملَ في الدنيا ، وإنَّما وُضعت الآدابُ على أصولِ الطُّبائعِ . وإنَّما أصولُ أمورِ التدبيرِ في الدِّينِ والدُّنيا واحدةٌ ، فما فسدت فيه المعاملةُ في الدِّينِ فسدت فيه المعاملةُ في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ في معاملاتِ الدُّنيا^(١) لم يصح في الدِّينِ . وإنَّما الفرقُ بين الدِّينِ والدُّنيا اختلافُ الدارينِ من الدُّنيا والآخرةِ فقط ، والحكمُ هاهنا الحكمُ هنالك ، ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ، ولا ثبتت دولةٌ ، ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك قال اللهُ عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢) ، قال ابنُ عباسٍ في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرَت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّينِ ، فإنَّما ينتقل بذلك العقلُ . فيقدَّرُ جهله بالدُّنيا^(٣) يكونُ جهله بالآخرةِ أكثرَ ؛ لأنَّ هذه شهادةٌ وتلك غيبٌ^(٤) ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأقولُ ما أوصيك به ونفسي تقوى الله : فإنَّها جماعُ كلِّ خيرٍ ، وسببُ كلِّ نجاةٍ ، ولقاحُ كلِّ رشدٍ . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعينٍ ، وأمتع جُنَّةٍ . هي الجامعةُ محبةِ قلوبِ العبادِ^(٥) ، والمستقبلةُ بك محبةِ قلوبٍ من لا تجرى عليهم

(١) د : « في معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : تقيض التائبة .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه في د .

نعمك^(١). فاجعلها عدتك وسلاحك^(٢)، واجعل أمر الله وتبهي نصب عينيكَ .

وأحذرَكَ ونفسى الله والأغترار به ، والإدهان فى أمره ، والاستهانة
بِعزائمه ، والأمن لمسكره ؛ فقد رأيت آثاره^(٣) فى أهل ولايته وعداوته ،
كيف جعلهم للماضين عبرةً ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم بريئة ، لا وصلة بينه وبين أحدٍ منهم إلا بالطاعة ،
فأولاهم به أكثرهم تزيذاً فى طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور .

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهد لك فى تحكيم الغنى والبسطة
ما لم تتخله بحيلة^(٤) ، ولا يلقنه بقوة^(٥) ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكنك
ليبلو خبرك ، ويختبر شكرك ، ويحصى سعيك ، ويكتب أثرك ، ثم يوفيك
أجرَكَ ، ويأخذك بما اجتاحت يدُك أو يعمق ؛ فأهل العنوة هو .

والله ابتلاءً ، إن فى خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاءً بنعمة ، وابتلاءً
بمصيبة . ويقدر عظمها بحسب التكليف من الله عليها^(٦) ؛ فيقدر ما خولك من
النعمة يستأديك الشكر^(٧) .

(١) كلمة « محبة » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من د .

(٢) د : « عونك وسلاحك » .

(٣) د : « أثره » .

(٤) تتخله ، من النحلة وهى العطية . د : « ما لم تتله بحيلة » .

(٥) فى الأصل : « ولم تلقنه بقوة » ، وأثبت ما فى د .

(٦) د : « ويقدر عظمها بحسب التكليف عليهما » .

(٧) استأداه المال ونحوه : استخرجه منه وطلب أدائه .

ولو تَقَعَّى اللهُ عَلَى خَلْقِهِ لَعَذَّبَهُمْ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ وَتَوَّابٌ يُؤْخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ ﴾^(١) . وَلَكِنَّهُ قَبِلَ التَّوْبَةَ ، وَأَقَالَ الْقَتْرَةَ ، وَجَعَلَ بِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْآخِرَةِ هُوَ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا : مِيزَانٌ قِسْطٌ ، وَحُكْمٌ عَدْلٌ . وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾^(٢) .

وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبَةِ اللهِ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَمُنُونَ أَنَّ لَوْ وَضَعَ فِي إِحْدَى كِفَّتَيْ الْمِيزَانِ شَيْءٌ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْآخَرَى قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، لَمْ يَكُنْ لِلْوِزْنِ مَعْنَى يُعْقَلُ . وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الطُّلُقِ لَا يَغْلُو مِنْ هَفْوَةٍ أَوْ زَلَّةٍ أَوْ غَفْلَةٍ ؛ فَأَخِيرَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَسَنَاتُهُ الرَّاجِعَةَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، مَعَ التَّدَمُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، كَانَ عَلَى سَبِيلِ النِّجَاتِ ، وَطَرِيقِ النُّورِ بِالْإِفْلَاحِ . وَمَنْ مَالَتِ سَيِّئَاتُهُ بِحَسَنَاتِهِ كَانَ الْعَطْبُ وَالْعَذَابُ أَوْلَى بِهِ .

وَكَذَلِكَ حُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَوَلَّى أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَشَهِدَ لَهُمُ بِالْعَدَالَةِ ، وَقَدْ عَاتَبَهُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لَغَلْبَةِ الضَّلَالَةِ [فِي أَفْعَالِهِمْ وَإِنْ هَفَؤَا ، وَتَبَرَّأَ مِنْ آخَرِينَ وَعَادَاهُمْ لَغَلْبَةِ الْجَوْرِ^(٣)] عَلَى أَفْعَالِيهِمْ^(٤) ، وَبِئْنَ أَحْسَنُوا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ .

(١) الْآيَةُ ٢٥ مِنْ سُورَةِ فَاطِرٍ .

(٢) الْآيَةُ ١٠٢ - ٢٠٣ مِنْ سُورَةِ الزُّمُرِ .

(٣) التَّكَلُّفُ مِنْ د .

(٤) د : « عَلَى أَفْعَالِهِمْ » .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّون العادلَ بالغالب من فعله وريثاً أساء ، ويُسْقَوْنَ الفاسق ورثاً أحسن . وإنما الأمورُ بمواقبها ، وإنما يُقضى على كلِّ امرئٍ بما شا كلِّ أحواله .

فهذه الأمورُ قائمةٌ في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافٌ بين الأمة فيها .

فلا تَبْتَئَنَّ حَظَّكَ من دينك^(١) ، وإن استطعتَ أن تبلغَ من الطاعة غايَها فانتفكْ ثمَّهَد ، وإلا فاجهدْ أن يكونَ أغلبُ أفعالكَ عليك الطاعة^(٢) ، مع الندامة عند الإساءة ، ويكونَ ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفِّقُك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَقَ خلقه ، ثُمَّ طبعهم على حبِّ اجترارِ النافع^(٣) ، ودفعِ المضارِّ ، وبغضِ ما كانَ بخلافِ ذلك^(٤) . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجيئةٌ مغلطورة ، لا خِلافَ بين الخلقِ فيه ؛ موجودٌ في الإنس والحيوان ، لم يدعِ غيره مدَّعٍ من الأولين والآخرين . وبقدرِ زيادةِ ذلك ونقصانه تزيد الحجة والبُضاء ؛ [فنقصانه^(٥)] كزيادته تميلُ الطَّبيعةُ معهما^(٦) كيلاً رَكِّفَتِ لِتُزَانَ ، قلَّ ذلك أو كثر .

(١) في الأصل : « فلا تبتئ » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « أفعالك الطاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار النافع : اجتلابها . وكلة « حب » ساقطة من د .

(٤) في الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه في د .

(٥) تسكلة ضرورية ليترن بها الكلام .

(٦) في الأصل . د : « معها »

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع تحابِّ العباد ومكارهمهم . والنفس في طبعها حبُّ الراحة والدعة ، والأردى والعز ، والعز والغاية ، والاستطراف والتشوق^(١) ، وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العريقة ، والعُطُوم الطيِّبة^(٢) ، والأصوات الملوثة ، والملابس الأذينة . ومما كراهيته^(٣) في طباعهم أصدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خلجان^(٤) غرائز في القفار ، وكوامن في انطباع ؛ جبلة ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنها^(٥) في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي درَّهم .

٤٤ ظا

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاذَّ لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم ، ونطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة ، مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهة في طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والنباز . وإذا ذهب كان ذلك سبباً للفساد ، واغتيال النّاسل ، وفناء الدنيا وأهلها ؛ لأنَّ طمع النفس لا يسئس بعطية قليلة ولا كثير مما حوته ، حتى تموض أكثر مما تُعطى ، إما عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذه حواسها .

-
- (١) التوق في الشيء : التجدد والبالغة فيه . من التأنق . وفي السخنين : « التلون » ، وقد ارضيت هذا التصحيح من ناشر ط .
 (٢) في الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما في د .
 (٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « كراهته » .
 (٤) يعني : « المحاب والكراه » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلجان » .
 ولا وجه لهذه الزيادة .
 (٥) د : « إلا أنها » .

فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَاطَفُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَنْقَادُونَ^(١) إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ،
وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، [وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ^(٢)] غَيْرُ نَاجِعَيْنِ
فِيهِمْ إِلَّا بِالترغيب والترهيب اللّذين في طباعهم^(٣) . فَدَعَاهُمُ بِالترغيب إِلَى
جَنَّتِهِ ، وَجَعَلَهَا عَوْضًا مِمَّا تَرَكَوا فِي جَنْبِ طَاعَتِهِ^(٤) ، وَزَجَرَهُمُ بِالترهيبِ بِالنَّارِ
عَنِ مَعْصِيَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ بِمُقَابِلِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جَلًّا لَنَأَوَّهُ وَالطَّبَاعُ
الْأَوَّلُ^(٥) جَرَوْا عَلَى سَنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَعَادَةِ الشِّيمَةِ^(٦) .

نُمِ أَفْهَمَ الرُّغْبَةَ وَالرُّهْبَةَ عَلَى حُدُودِ الْعَدْلِ ، وَمَوَازِينِ النُّصَفَةِ ، وَعَدْلُهُمْ
تَعْدِيلًا مُتَّفَقًا ، فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٧) 〉 .

نُمِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي تَدْيِيرِهِ الْخَلْقُ ، وَلَا جَائِزٌ
عِنْدَهُ الْحَافَاةُ ؛ لِيَعْمَلَ كُلُّ عَامِلٍ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا وَعَدَهُ وَوَعَدَهُ ، فَتَعَاقَلَتْ قُلُوبُ

(١) وَلَا يَنْقَادُونَ ، سَافِطَةٌ مِنْ د .

(٢) التَّكَلُّفُ مِنْ د .

(٣) د : « طِبَاعُهُمْ »

(٤) فِي الْأَصْلِ : « طَاعَتِهِمْ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي د .

(٥) الطَّبَاعُ : الطَّبِيعَةُ وَالسَّيِّئَةُ . قَالَ الْأَزْجَاجِيُّ : « الطَّبَاعُ وَاحِدٌ ، مَذْكَرٌ كَالنَّحَاسِ
وَالنَّجَّارِ » ، يَعْنِي بِكسر أولهما . انظر اللسان (طبع) . وَفِي د : « وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ » ،
وَكَلَامُهُا مُتَجَهٌّ .

(٦) م : « وَعَادَاتُ الشِّيمَةِ » .

(٧) الْآيَةُ ٧ — ٨ مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَلِ .

العباد بالرغبة والرغبة ، فالمراد التدبير ، واستقامت السياسة ، لموافقتهما^(١) ما في القطرة ، وأخذها بمجامع التصاحفة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستعمل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تكد .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حَفَّتِ الجَنَّةُ بالسَّكَّارَةِ ، والنَّارُ بالشَّهْوَاتِ »^(٢) . [يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال السكارة ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات^(٣)] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخلافتهم ولم يتقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرغبة ، فاعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمثل أو ظن أوجهاً أن أخذاً من الخلق - فوقه أو دونه أو من نظرائه^(٤) - يصلح له ضميره ، أو يصح له بخلاف ما دبره الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرغبة والرغبة أصلاً كل تدبير ، وعليهما مدار كل سياسة ، عظمت أو صغرت . فاجعلهما مثالك الذي تختدي عليه ، وركعتك الذي تسند إليه . واعلم أنك إن أهملت ما وصفت لك عرضت تدبيرك للاختلاط .

(١) يعنى الرغبة والرغبة . وفى الأصل : « لموافقتهما » ووجه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أس . ومعه أيضاً عن أبي هريرة . الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د . وصوابها ما رأيت . وانظر ما صيأتى .

وإنَّ آثَرَتِ الهَوِيَّةُ وَاسْكَنْتِ عَلَى الْكُفَاءِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَجُوزُ فِيهِ إِلَّا نَفَرُكَ ، وَزَجَّيْتَ أُمُورَكَ عَلَى رَأْيٍ مَدْخُولٍ ، وَأَصَلَ غَيْرَ مُحَكَّمٍ ، رَجَعَ ذَلِكَ عَلَيْكَ بِمَا لَوْ حُكِّمَ فِيكَ عَدُوُّكَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ أَمْنِيَّتِهِ ، وَشِفَاءَ غِيظِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ إِجْرَامَكَ الْأُمُورَ بِجَارِيَتِهَا ، وَاسْتِمَالَتِ الْأَشْيَاءِ عَلَى وُجُوهِهَا ، يَنْجِعُ لَكَ أَلْفَةَ الْقُلُوبِ ، فَيَعَامَلُكَ ^(١) كُلُّ مَنْ عَامَلَكَ بِمُودَةٍ ، أَوْ أَخَذَ أَوْ إعْطَا ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بَصَرِكَ بِمَوَاضِعِ الْإِنْصَافِ ^(٢) ، وَعَلِمَكَ بِمَوَارِدِ الْأُمُورِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَثَرَتَكَ عَلَى غَيْرِ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ ، وَالْحَرَمَةِ وَالْكَفَايَةِ ، يَوْجِبُ [لَكَ ^(٣)] لِلْبَاعِدَةِ وَقَلَّةَ الثِّقَةِ مِنْ آثَرَتِهِ أَوْ آثَرَتِ عَلَيْهِ .

فَاعْرِفْ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ - مَنْ جَرَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُودَةٌ أَوْ حَرَمَةٌ ، مَنْ فَوَقَّكَ أَوْ دَرَنَكَ أَوْ نَفَرَكَ - أَفْدَارَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ . نَحْمُ لِنَسْكَنَ أُمُورَكَ مَعَهُمْ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ وَالِاسْتِحْقَاقِ ، وَلَا تُؤَثِّرْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا لَهْوَى ^(٤) ؛ فَإِنَّ الْأَثَرَ عَلَى الْهَوَى تَوْجِبُ الشُّخْطَةَ ، وَتُوجِبُ اسْتِصْفَارَ عَظِيمِ النِّعْمَةِ ، وَيَحَقِّقُ بِهَا الْإِفْضَالَ ، وَتَقْسِدُ عَلَيْهَا ^(٥) الطَّائِفَتَانِ : مَنْ آثَرَتْ وَمَنْ آثَرَتْ عَلَيْهِ .

أَمَّا مَنْ آثَرَتْ ^(٦) فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُؤَثِّرْهُ بِاسْتِحْقَاقِ بَلْ لَهْوَى ، فَبُورِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَعَامَلُكَ » وَالْوَجْهَ مِنْ د .

(٢) د : « بِمَوَاقِعِ الْإِنْصَافِ » .

(٣) النِّكَلَةُ مِنْ د .

(٤) د : « يَهْوَى » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بِهَا » وَابْتِثَ مَا فِي د .

(٦) د : « آثَرَتْ » فِي هَذَا الْمَرْثَعِ وَسَابِقِهِ .

مترقبٌ أن ينتقل هواءك إلى غيره ، فتَحُولُ أثرتك حيث مال هواءك . فهو مدخولُ القَابِ في مودَّتكَ ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأما من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطعن عليك ، وأعطيتَه الحُبَّةَ على نَفْسِكَ . فكلُّ من يعمل على غير ثقة ٤٥ عاد ما أراد به النَّفْعَ ضرراً ، والإصلاح [فيه ^(١)] فساداً .

وربما آثر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السَّئِيَّةَ على بلاءٍ أبلاء ^(٢) ، فيعظمُ قدرُها ^(٣) عنده حتَّى لعلَّه تطيبُ نفسه ببذلِ ماله ودمِه دونَه ^(٤) . فإنَّ أعطى من أبلي كِبَالَهُ وكانت له مثل دالَّته ^(٥) ، أكثرُ ممَّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكلُّ مستحقٍّ مستحقّاً . وكذلك الأمرُ في العقوبة ، يجرى مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصِفَةَ في الثَّوابِ والعقابِ حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدَّمتَ منهم فقدَّمته على الاستحقاق ، وبصحة النِّيَّةِ في مودته ، وخصوص نصيحتك لك ممَّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه ^(٦) ، وعلتَ بتجربتك له ، أنَّه يعلمُ أنَّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائنٌ مع عطيتك ، ففوض

(١) التَّكَلُّفُ من د .

(٢) في الأصل : « بلا بلاءٍ أبلاء » ، والوجه من د .

(٣) في الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونَه » .

(٥) في الأصل : « دلالته » ، صوابه في د .

(٦) في الأصل : « بمن قد بلوتَ في أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمر إليه ، وأشركه في خواص أمورك وحنى أسرارك ، ثم اعرف له قدره في مجلسك ومحاورتك ^(١) ومعاملتك ، في كل حالانك ومزاولاتك في خلواتك معه ^(٢) ، وبحضرة جلسائك ؛ فإن ذلك زيادة في نيته ، وداعية ^(٣) لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتليت في بعض الأوقات بمن يقرب بحمة ^(٤) ويمت بدالة ، يطلب للكفاة بأكثر مما يستوجب ، فدعالك الكرم والحياء إلى تفضيله على من [هو ^(٥)] أحق منه ، إما تخوفاً من لسانه ^(٦) ، أو مداراة لغیره ، فلا تدع الاعتذار إلى من فوقه من أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لم ؛ فإن أهل خاصتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركائك في العيش ، فلا تسهين بشئ من أمورهم ؛ فإن الرجل قد يترك الشيء من ذلك اتسكلاً على حسن رأى أخيه ^(٧) ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتى يولد ضغناً ويحول عداوة .

فتحفظ من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهلك .

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) في الأصل : « ومزاولاتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساوياً

من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد في نيته وداع » .

(٤) د : « يقرب بحمة » .

(٥) التكلفة من د .

(٦) د : « تخوفاً » بدل « خوفاً » .

(٧) في الأصل : « أو رآ لا على رأى أخيه » . صوابه في د .

وستجد في من يتصل بك من بغايه إفرام الحِرص وَحَيَا الشَّره ، ولين جانبك له ، على أن ينقم العافيه ، ويطلب الحقوق بمنازل من ليس هو مثله^(١) ، ولاله مثل دالته ، فتألفه ما تمنع به مستقلاً ، ولعروفك مُستصيراً .
 وصالح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيئهم ، ودأب كل من لا بد لك من معاشرته بالهدوء الذي هو أنجع فيه ، إن لنا قليلاً ، وإن شدة فتنة ؛ فقد قيل في المثل :

من لا يسؤدبه الجلي لى ففى عقوبته صلاحه
 وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يتعد من معاشرته بهذا^(٢) » ، بالعدل والنصفة ، حتى يعمل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً^(٣) .

فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً ، وقد ضيّت لك أوائها كونَ أواخرها . فاعرفها واتبشها ، واعلم أنه متى كان الأول منها وجب ما بعده لا بد منه . فاحذر المقدمات الالتي يعقبها السكروه^(٤) ، واحرص على توليد الأمور التي على أثرها السلامة ، وألقح في البدن الأمور التي نتائجها العافيه^(٥) .

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا يده من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتى يعمل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التي » .

(٥) البدن : الأول . في الأصل : « والتمح في بدني » صوابه في د وفي د :

« أموراً ناجية العافيه » . وفي الأصل : « وناجيه » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعة تُوجب الحجة ، والضرورة
توجب البغضاء^(١) ، والمضادة تُوجب العدواة ، وخلاف الهوى يُوجب
الاستئثار ، ومتابعته تُوجب الألفة ، والصدق يُوجب الثقة ، والكذب
يُورث الشبهة^(٢) ، والأمانة تُوجب الظمأنينة ، والعدل يُوجب اجتماع القلوب ،
والجور يُوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يُوجب
المباعدة^(٣) ، والانبساط يُوجب اللؤاسة ، والانقباض يُوجب الوحشة ،
والتكبر^(٤) يُوجب اللقت ، والتواضع يُوجب العفة ، والجود بالقصد يُوجب
الحمد^(٥) ، والبخل يُوجب اللذمة ، والتواني يُوجب التضييع ، والجدد يُوجب
رخاء الأعمال ، والمؤثرا تورث الخسرة ، والحزم يورث الشروع ، والتغبر
يُوجب الندامة ، والحذر يُوجب العذر ، [وإصابة التديير تُوجب بقاء النعمة^(٦)]
والاستهانة تُوجب التباغي ، والتباغي مقدمة الشر^(٧) وسبب البوار .

٤٦ خد

ولكل شئ من هذا إفراط وتقصير^(٨) ، وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت
على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الغلال فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه

(١) د : « بغضة » .

(٢) في الأصل : « القيمة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساقط هذا مع سائر الأصول .

(٦) التكلفة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَرَحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جَرَتْ طلبتهم ، وتنام النعمة بها
إصابة مواضعها :

فالإفراط في الجود يوجب التَّبْذِير ، والإفراط في التواضع يوجب
للذلة^(١) ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة^(٢) ، والإفراط في
المؤانسة يدعو لخطأ الشؤ^(٣) ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النصيحة .
وآفة الأمانة اتِّمان الصَّخَانَة^(٤) ، وآفة الصّدق تصديق الكذّبة ، والإفراط في
الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَق بأحد ؛ وذلك ما لا سبيل إليه . [وإفراط في المفرّة
مبعدةٌ على حربك^(٥)] ، والإفراط في جرّ المنفعة غنّاً لمن أفرطت في نفعه تنك .
واحذرْ كل الحذر أن يَحْتَدَعَكَ الشيطان عن الحزم^(٦) فيسئَلْكَ
التّواني في صورة التّوكل ، ويسأَلْكَ الحذر ، ويؤرِّثُكَ الهَوْنُ بِإِحْثَاثِكَ عَلَى
الأقدار ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْحِيلِ ، والتَّسَلُّمِ لِلْقَضَاءِ بَعْدَ
الإعذار ، بِذَلِكَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ ، وَأَمَعَى سُنَّتَهُ فَقَالَ : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾^(٧) ،

(١) في الأصل : « يورث الذلة » ، وأثبت ما في د .

(٢) في الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه في د .

(٣) بده في الأصل : « والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ،
وهو تكرار لما سيأتي مما انفقت عليه السختان .

(٤) الحانة : جمع خائن ، وفي اللسان : « والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة » .
ونظير هذه الأخيرة في الشفوذ حائك وحوكلة .

(٥) التكلفة من د .

(٦) هذا ما في د . وفي الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم :
« اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ »^(٢) . وسئل ما ألْزَمَ ؟ فقال : الحذر^(٣) .

فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ،
ولذلك قالت الحكماء : « العادة أمُّك بالآدب »

فَرَضَ نَفْسَكَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مَحْمُودٍ الْعَاقِبَةِ ، وَضَرَّهَا بِكُلِّ مَا لَا يُذَمُّ مِنَ
الْأَخْلَاقِ^(٤) بِصِيرِ ذَلِكَ طَبَاعًا^(٥) ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

واعلم أن الذي يُوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند
التَّوَاتُبِ ، مع بعض التَّفَضُّلِ عَلَى الرَّاغِبِينَ . وإذا أوجب^(٦) لك اسم الجود
زَالَ عَنْكَ اسمُ البخل .

واعلم أن تمييز المال آلة للكارم ، وعون على الدين ، ومُتَأَلِّفٌ لِلْإِخْوَانِ ؛
وَأَنْ مَنْ قَدْ قَدَّ لِلْمَالِ قَدَّتْ الرِّغْبَةُ إِلَيْهِ ، وَالرَّهْبَةُ مِنْهُ ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِمَوْضِعِ
رَغْبَةٍ وَلَا رَهْبَةٍ اسْتَهَانَ النَّاسُ بِقَدْرِهِ^(٧) .

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ .
ورواه الطبراني : « فيها وتوكل » أسنى المطالب لحمد بن درويش البيروني ص ٤٤ .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « قل الحذر » .

(٤) في الأصل : « الإخلاص » صوابه في د . والتفسيرية : التعويد ، والضراوة :
العادة .

(٥) الطباع : الطبع والهيئة . وانظر ما سبق في حواشي ١٠٤ د . طبعاً ه .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما في د . وفي الأصل : « به » .

فاجتهد الجهد كله ألا تزال القلوب معانقة منك برغبة أو رهبة . في دين
أو دُنْيا .

واعلم أنَّ الشرف لا بقاء معه لكثير ، ولا تسمية معه لقليل ، ولا تصلح
عليه دنيا ولا دين . وتأدب بما أدَّب الله تعالى به نبيه ^(١) فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ
يَدُكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ^(٢) 》 .
وقالت الحكماء : « القصد أبقى للنجاة ^(٣) » .

فداومْ حالَكَ وبقا، النعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدَر الزمان ،
وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر ^(٤) :

مَنْ سَابَقَ الذَّهَرَ كَمَا كَبُوءُ لَمْ يَسْتَفِئْهَا مِنْ خَطِي الذَّهْرِ
فاخْطُ مع الذَّهْرِ على ماخْطَا واجِرْ مع الذَّهْرِ كما يَجْرِي ^(٥)
واعلم أنَّ الصمت في موضعه رَيْبًا كان أَنْفَعُ مِنَ الْإِبْلَاحِ بِالْمَنْطِقِ فِي
مَوْضِعِهِ . وعند إصابة فرصته . وذلك تَحْتَمُّكَ عند من يعلم أَنَّكَ لَمْ تَصْمِتْ عَنْهُ
عِيًا ^(٦) ولا رهبة . فليزِدْكَ فِي الصَّمْتِ رَغْبَةً مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ فُضَائِحِ الْمُشْكَمِّينِ
في غير القُرص ، وَهَذَرٍ مِّنْ أَطْلَاقِ لِسَانِهِ بِغَيْرِ حَاجَةٍ .

(١) في الأصل : « وتأدب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ،
صوابه في د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العاتية ، كما في البيان ٤ : ٣١ ، ولحقات ديوانه ٩٨ ، خلا عن
الأغاني ٣ : ١٦٤ .

(٥) في الأصل والبيان : « إذا ما خطاه » ، وأثبت ما في د وبعض أصول البيان .

(٦) العي : المعجز . وفي الأصل : « عياء » ، صوابه في د .

(٨ - رسائل الجمامط)

واعلم أن الجبن جبنان ، والله جباة شجاعان . وليست تكون الشجاعة إلا في كل أمر لا يدري مآقبته ، يخاطر فيه بآفس والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا تشجعن نفسك على أمر أبدي إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظم مما تبذل فيه في المستقبل . ثم يكون لرجاء في ذلك أغاب عليك من الخوف .

وها هنا موضع يحتاج فيه إلى التفكر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين ، أو خوفاً لعارٍ تسب به الأعداء ، فانت معذور بالخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظم منفعته في الدنيا^(١) إلا أنك لا تناله إلا بالخطار بمهجة نفسك^(٢) أو بتعريض كل مالك للتلف . فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكن حكمة بينة عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس^(٣) :

* لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً^(٤) *

(١) في الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما في د .

(٢) الخطار : الخطورة ، وهو أن يشق بنفسه في خطر الملك . وفي الأصل : « بالخطار » والوجه ما أثبت من د . وفي د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) في الأصل : « ممسكاً » صوابه في د . وهو يحز بيت لأبي دؤاد الإبادي . من أبيات رواها العسكري في الجهرة ٣١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوف) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٣ . وأمثال اليداني ١ : ٢٠٢ . وديوان اللعاني ١ : ٢٣٨ . والمخصص ٨ : ١٠٣ . وصدرة :

* أن أتيح له حرباء تنبة *

وقالوا : « لا تخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبيه ^(١) » .
ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .
واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال :
أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة
وتنفسك ناظرا ؛ فإن كثرة الأعداء تنغيص الشرور ، وقد قال الله تبارك
وتعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ^(٢) 》 .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك خصص عنه أسرارك ، وعم عليه
آثار تديريك ^(٣) ، ولا يظلمن على شيء من مكائدتك له ^(٤) بقول ولا فعل ،
فيأخذ حذرَه ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة
التدبير ، والإكثار من الوعيد للأعداء فشل ^(٥) . ولكن داج عدوك
ما داجاك ، وأحص معايبه ما لاحاك .
وقال الشاعر ^(٦) :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه زَكِنْتُ منهم على مثل الذي زَكِنُوا ^(٧)

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تديريك » .

(٤) د : « مكائدتك » .

(٥) هذا ما في د . وفي الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قنص بن أم صاحب ، كما في اللسان (زكن) . وانظر آياتاً من قصيدة
البيت في الحماسة (باب الهجاء) شرح التبرزي .

(٧) زكن بمعنى علم . وعدهاء بجلى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أن أعظم أحوالك عليه الحجج [نم الفرصة^(١)] ، ثم لا تظهرن عليه حجة ، ولا تهتبل منه غيرة ، ولا تطلبن له عثرة ، ولا تهتكن له سترًا [إلا] عند الفرصة في ذلك كله ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره ، إن كان العفو عنه شرًا له .

وإن كان من يظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة ، وكان ممن أعياك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين^(٢) : استبطن الحذر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به^(٣)] . ولست مستظهِراً عليه بمثل طهارتك من الأدناس ، وبرامتك من العايب .
فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه ، من العدو والصديق^(٤) . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استمعوا على الخواص بسرها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود^(٥) » .

وإذا أفشيت سرك لخاتم الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك^(٦) . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سره كثر التأمرون

(١) التكلفة من م .

(٢) د : « حالين » .

(٣) التكلفة من د .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « العدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه . « فلا تضع سرّك إلا عند من يضرك نشره كما يضرك » ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك^(١) .

واعلم أنّك ستصحب من الناس أجناساً متفرقة حالّتهم ، متفاوتة منازلهم ، وكلّهم بك إليه حاجة ، وكلّ طائفة تسدّ عنك كثيراً من النافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلّهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، [ومنهم من تريد للحفظ والأمانة^(٢)] ، ومنهم من تريد للشدة والعاقلة ، ومنهم من تريد للمهنة . وكلّ يسدّ مسدّ على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف » .

ولا تخلّين أحداً منهم - عظم قدره أو صغرت منزلته - من عنايتك وتمهّلك بالجزاء على الحسنة ، والمعانة عند العثرة ؛ ليعلموا أنّهم منك بمرأى وسمع . ثمّ لا تجوزنّ بأحدٍ منهم حدّه ، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقيم لك حاله ، ويتيسّق لك أمره^(٣) .

واعلم أنّه سيمرّ بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها . وكلّ العقل والأدب منها ، أن تسالم أهلها وتمكّن نفسك عن هواها ، وتكفّ من جماعها^(٤) ، بالأمر الذي لا يخرجك في دينك^(٥) ولا يرزقك ولا يبدنك ، بل يفيدك عزّ الحلم ، وهيبة الوار . وهي أمور مختلفة ، تجمعها حال واحدة .

(١) في الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه في د . (٢) التمسكه من د .

(٣) يتسّق : يتنظّم . وفي الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما في د .

(٤) في السخّين : « عن جماعها » .

(٥) في الأصل : « بأمر لا يخرجك في دينك » . صوابه في د .

منها : أن تأتيَ محفلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الوضع الذي تستحقه حتى يكون أهلُه [الذين ^(١)] يرفعونك ، فتظهر جلالك وعظمتك قدرك .

ومنها : أن يفيض القومُ في حديثٍ ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإن نافستهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت احتضرتك ذلك ، فصرتَ كأنك ممنٌ عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتارى جاسؤك - والعراة يتاج الأجابة وثمرة أصلها الحمية - فإن ضبعت نفسك كان تحاكمهم إليك ، وموئلهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسب العنوة والعلمية - أن في تركيبها بغض من استغلال عليها . فاستدع محبة العامة بالتواضع ، ومودة الأخلاء بالمؤانسة والاستشارة ، والثقة والطمانية .

واعلم أن الذي تعامل به صدقك هو ضد ما تعامل به عدوك . فالصدق وجه معاملته السالمة ، والعدو وجه معاملته المداواة ^(٢) والموازاة . هما ضدان يتنافيان ، يفسد هذا ما أصلح هذا ^(٣) ، وكلما نقصت من أحل البابين زاد في صاحبه ، إن قليلاً قليلاً ، وإن كثيراً فكثيراً ^(٤) .

(١) التكلة من د .

(٢) د : « المداواة والسالة » . وكلة « والسالة » مقعمة .

(٣) د : « أصلح هذا . أفدها »

(٤) د : « إن قليلاً قليلاً وإن كثيراً فكثيراً » .

فَلَا تَسْلُمُ بِالْوَارَةِ صَدَاقَةً ، وَلَا تَقْفَرُ بِالْعَدْوِ مَعَ الْإِسْخْلَامِ إِلَيْهِ . فَضَعَ الثَّقَّةَ
مَوْضِعَهَا ، وَأَقَمَ الْحَذَرَ مَقَامَهُ ^(١) ، وَأَسْرَعَ إِلَى التَّهَنُّمِ بِالثَّقَّةِ ، وَلَا تَبَادُرُ إِلَى
التَّصْدِيقِ ، وَلَا سِيَّاهُ بِالْحَالِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ بِغَائِبٍ ، كَأَنَّا مَا كَانَ ، إِنَّمَا يُصَابُ مِنْ وَجْهِ ثَلَاثَةِ
لَارَابِعٍ لَهَا ، وَلَا سَبِيلَ لَكَ وَلَا لغيرِكَ إِلَى غَايَةِ الْإِحَاطَاتِ ؛ لَا سَتُّارَ اللَّهِ بِهَا .
وَلَنْ تَهَيَّأَ بَعْثِي مَعَ شِدَّةِ التَّحَرُّزِ ، وَلَنْ يَتَّبِقَ لَكَ أَمْرٌ مَعَ التَّضْيِيعِ ^(٢) . فَاعْرِفْ
أَقْدَارَ ذَلِكَ .

فَمَا غَابَ عَنْكَ مِمَّا قَدْ رَأَى غَيْرُكَ مِمَّا يُدْرِكُ بِالْعَيْنِ ، فَسَبِيلُ الْعِلْمِ بِهِ الْأَخْبَارُ
الْمُتَوَاتِرَةُ ، الَّتِي يَجْعَلُهَا الْوَلِيُّ وَالْعَدْوُ ، وَالصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ، الْمُسْتَفِيزَةُ فِي النَّاسِ ،
فَتِلْكَ لَا كُفْلَةَ عَلَى سَامِعٍ مِنَ الْعِلْمِ بِتَصْدِيقِهَا . فَهَذَا الْوَجْهُ يَسْتَوِي فِيهِ ٢٩ و
الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ .

وَقَدْ يَنْبَغِي ، خَيْرَ أَخْمَصٍ مِنْ هَذَا ^(٣) إِلَّا أَنَّهُ لَا يُعْرِفُ إِلَّا بِالسُّؤَالِ عَنْهُ ،
وَالْمُنَاجَاةِ لِأَهْلِهِ ، كَقَوْمٍ نَقَلُوا خَبْرًا ، وَمِثْلُكَ يَحِيطُ عَلَيْهِ ^(٤) أَنَّ مِثْلَهُمْ فِي تَفَاوُتِ
أَحْوَالِهِمْ ، وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ التَّعَارُفِ ، لَا يُمَكِّنُ ^(٥) فِي مِثْلِهِ الْقَوَاطِلُ وَإِنْ جَاهِلُ
فَتِلْكَ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَفِي مِثْلِ هَذَا الْخَبَرِ يَمْتَنِعُ الْكَذِبُ ^(٦) ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْإِتِّفَاقُ فِيهِ
عَلَى الْبَاطِلِ .

(١) د : « مكانه » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَلَنْ يَتَّبِقَ » ، وَوَجْهِهِ مِنْ د .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « أَصَحُّ مِنْ هَذَا » ، صَوَابُهُ فِي د .

(٤) د : « وَعَلَيْكَ بِحَيْطٍ » ، فَقَطْ .

(٥) د : « لَا يَكُونُ » .

(٦) د : « يَمْتَنِعُ الْكَذِبُ » .

وقد يسمى خبرٌ أحسن من هذا ، يعملُه الرجلُ والرجلانِ من يجوز أن يصدقَ ويجوز أن يكذب ، فصدقَ هذا الخبرُ في قلبك إنما هو بحسن الظنِّ بالخبر ، والثقة بمدائنه . ولن يقومَ هذا [الخبر^(١)] من قلبك ولا قلب غيرك مقامَ الخبرين الأولين [أبداً^(٢)] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصديق بالذين^(٣) واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعضُ الأمناء عن خيانة^(٤) ، وبعضُ الصادقين عن كذب ، وأن مثل^(٥) الخبرين الأولين لم يعمق الناس في مثابهما كذباً قط ، عُلِمَ أن الخبرَ إذا جاء من مثلهما جاء بحسب اليقين ، وأن ما عُلِمَ من خبر الواحدِ فإنما هو بحسن الظنِّ والاثمان^(٦) . فهذه^(٧) الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فإنما العلم بما غاب مما لا يدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائر القلوب

(١) السكلة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يغلو منه عصر . والتصنع : تسكف حسن السمات وإظهاره والبرزن به والباطل مدخول . اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإننا ندرك علمها بآثار أفعالها وبالعقاب^(١) من أمورها ، على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

وأول العلم بكل غائب الظنون ، والظنون إنما تقع في القلوب بالذلائل ، فكما زاد الدليل قوياً الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .
فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة^(٢)] .

فمن عرف ما ملئ عليه الخلق وجرت به عادتهم ، وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم ، وتقصى علل ذلك ، كان خائفاً - إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدّر الحكيم ، فنال بها^(٣) [الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والشكال على مثل تلك الحال : فإن الحكيم قد أجمع أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، نجأت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحد رأيًا وأوجب عذراً ، ممن عمل بالتفريط وإن اتفقت له الأمور على ما أراد .

(١) في الأصل : « وبالعقاب » ، صوابه في د .

(٢) التكلفة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » في ص ١٢٣ انتقل في الأصل إلى ما يلي « وللإحاطة عليه » في ظهر الورقة ٥٩ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكلفة من د .

ولعمري ما يكاد ذلك ينبيء إلا في أقل الأمور ، [وما كثر محيى
السلامات إلا لمن أتى الأمور]^(١) من وجوهها وإنما الأشياء بعوامها^(٢) . فلا تكون
شيء مما في يدك أشد حينا ، ولا عليه أشد حذبا ، منك بالأخ الذي قد بلوته في
الستر ، والضراء ، [فعرفت مذاقه]^(٣) وخبرت شيعه ، ووصح لك غيبه ، وسلمت
لك ناحيته ؛ فإنما هو شقيق روحك^(٤) وباب الروح إلى حياتك ، ومستند
رأبك وتوأم عقلك^(٥) . ولست منتفعا بعيش مع الوحدة . ولا بد من الموانسة ،
وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخ فكن به
أشد ضنا منك بنفسك أموالك ، ثم لا يزهّدك فيه أن ترى منه خلقا أو خلقين
تكرمهما ؛ فإن نفسك التي هي أخضر النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل
ما تريد ، فكيف بنفس غيرك !

وإنشبتك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : « من
لك بأخيك كله »^(٦) ، و « أي الرجال المهذب »^(٧) .

ثم لا يمتنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء^(٨) فإنهم جند معدون

(١) التسكلة من د .

(٢) يعني أن العبرة في الأحكام بالأعم الغالب

(٣) التسكلة من د .

(٤) د : « شق روحك » . هـ : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٥) لأكثم بن صيفي . النعمري ١٢

(٦) من قول النابغة الذبياني في ديوانه ١٤ :

ولست بمسئق أخا لائله على شعث أي الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لَكَ^(١)] يَنْشُرُونَ مَحَاسِنَكَ ، وَيَحَاجُّونَ عَنْكَ . وَلَا يَحْمِلُكَ اسْتَطْرَافُ صَدِيقٍ ثَانٍ^(٢) عَلَى مَلَالَةِ الصَّدِيقِ الْأَوَّلِ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ سَبِيلُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّنَاءَةِ وَسُوءِ التَّنْدِيرِ ، وَزَهْدِ الْأَصْدِقَاءِ^(٣) جَمِيعاً فِي إِخَائِكَ . وَاللَّهُ يَرْفُقُكَ^(٤) .

وَسَجَدَ فِي النَّاسِ مَنْ قَدْ جَرَّ بَتَهُ الرِّجَالُ قَبْلَكَ ، وَنَحَصَهُ اخْتِبَارُهُمْ لَكَ . فَمَنْ كَانَ مَعْرُوفاً بِالْوَفَاءِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَةِ وَحَالَاتِ الضَّرُورَةِ ، فَتَأَنَسَّ فِيهِ وَاسْبَقَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اعْتِقَادَهُ أَنْفَسُ الْعَقْدِ^(٥) . وَمَنْ بَلَاهُ غَيْرُكَ فَكُشِفَ عَنْ كُفْرِ النِّعْمَةِ ، وَالْعَذْرُ عِنْدَ الشَّدَةِ ، فَقَدْ حَذَّرَكَ نَفْسَهُ وَإِنْ آتَاكَ^(٦) وَكَأَنَّكَ غَدْرَ بَغِيرِكَ يَمْدِدُ بِكَ ؛ فَإِنَّ مَنْ شِيعَتِهِ الْوَفَاءُ بَيْنَ الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ ، وَمَنْ طَبِيعَتُهُ الْعَدْرُ لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ^(٧) ، وَإِنَّمَا يَمِيلُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ : يَذُلُّ عِنْدَ الْحَاجَةِ^(٨) وَيَشْمَخُ مَعَ الْإِسْتِفَاءِ .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنَّ الحكماءَ لم يندم شيئاً فتمها أربع خلال :

(١) التَّكَلُّفُ مِنْ د .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الصَّدِيقُ » قَطُّ ، صَوَابُهُ مِنْ د .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « الصَّدِيقِينَ » ، وَاتَّبَتْ مَا فِي د .

(٤) د : « مَرْفُقُكَ » .

(٥) أَرَادَ أَنْفُسَ مَا يَتَّقَى . وَأَصْلُ الْعَقْدَةِ الضِّعَّةُ يَقْتَنِيهَا الرَّجُلُ .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَأَنْسَكَ » وَاتَّبَتْ مَا فِي د .

(٧) فِي الْأَصْلِ : « لَا يَدُومُ » ، وَاتَّبَتْ مَا فِي د .

(٨) د : « فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ » مَعَ إِسْقَاطِ كَلِمَةِ « يَذُلُّ » .

الكذب فإنه جاحج كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده .

والغضب فإنه لؤم وسوء مقدرة ؛ وذلك أن الغضب ثمره خلاف ما تهوى النفس^(١) ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى ممن فوقه أغضى وسى ذلك حزناً ، وإن جاء ذلك ممن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب ، والمقدرة والبسطة على البطش^(٢) .

والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ؛ فإنهم لم يجمعوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع مع علمه بقوت الجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط التره ، وأن أصل التره والحسد واحد وإن اختلف فرعاها .

ودفعوا الحسد كذمتهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من قتل الاغنام ، وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يحدى عليه شيئاً^(٣) . فالحسد اغتمام ، والقدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دني » ، ومن دناؤه أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب . وزعموا أنه لم يعدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال السكاره في جنب تيل السكارم .

(١) د : « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والقدر والبسطة » ، وفي د : « والقدره بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تلائم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذلك شيء » ، تحريف .

ويقدر ما ذهبت الحكما، هذه الأخلاق الأربعة^(١)، فكذاك وجدت أصدادها من الأخلاق، فأكثر في تفضيلها الأفاويل، وضربت فيها الأمثال، وزعت أنها أصل لكل كريم، وجماع لكل خير، وأن بها تثال جسام الأمور في الدنيا والدين^(٢).

٥٠ فاجمل هذه الأخلاق إمامنا لك، ومثلاً بين عينيك، ورُضْ عليها نفسك، وحكمها في أمرك، تفر بالراحة في العاجل^(٣)، والكرامة في الآجل. والصبر صيران: فأعلمها أن تصبر على ما ترجو فيه الغنى في العاقبة. والجلح حلمان: فأشرقهما حلمك عن هو دونك. والصدق صدقان: أعظمهما صدقت فيها بضرك. والوفاء وفاءان: أسنهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه. فإن من عرف بالصدق صار الناس له أنبعا، ومن نسب إلى الحلم ليس ثوب الوفاء والهيبة وأبهة الجلالة، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثقة به الجماعة^(٤) ومن استمر بالصبر^(٥) نال جسيات الأمور.

ولعمري ما غلظت الحكما، حين سمعتها أركان الدين والدنيا. فالصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان^(٦)، فبين^(٧) تمام كل

(١) في الأصل: « من هذه الأخلاق الثلاثة »، والوجه من د.

(٢) د: « في الدين والدنيا ».

(٣) هذا ما في د. وفي الأصل: « في العاجل والآجل ».

(٤) يقال استنم إليه. إذا أنس به واطمأن إليه وسكن. في الأصل:

« واستقامت بالثقة به الجماعة »، صوابه في د. وانظر ص ١٢٩.

(٥) د: « استعان بالصبر ».

(٦) يقال هما توأمان أيضاً. في الأصل: « توأمان » في التوأمين، وأثبت ما في د.

(٧) في الأصل: « فبين »، وفي د: « فبين »، والوجه ما أثبت.

دين ، وصالح كل دينا . وأضادهنّ مسب كل فرقة ، وأصل كل فساد .
واحذرّ خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع
استئصالها على الفساد ، وقدحها البغضاء في القلوب ، والمداوة بين الأوداء ، :
الفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يفلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع الإنس جميعاً على
الصورة^(١) وإقرارهم جميعاً ببتفرق الأمور المحمودة والذمومة من الجمال والذمامة ،
والأؤم والسكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الأدميين . وهذا غير مدفوع
عند الجميع .

فلا تجعلنّ له من عقلك نعيباً ، ولا من نسانك حظاً ، نسلم بذلك على
الناس أجمعين ، مع السلامة في الدين .

واعلم أنّك موسومٌ بسياً من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من
صاحبت . فحترز من دخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرئب^(٢) ، وقد جرت
لك في ذلك الأمثال ، وسطرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يعمل
نفسه^(٣) » ، وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنُّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكله ،
والمَرء بأليفه » .

ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس^(٤) ، ولكن أقلّ المؤانسة

(١) أي اتفاقهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر محابة أهل الرئب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ١٠٣ : ٣ و ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه في صالح الأخلاق تنسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إلا بأهل البراءة من كل دس . واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يعرف ،
وباستيفاض من أفعاله يوصف ، وإن كان بين ذلك كثير من أفعاله ^(١) أفعاله
الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجهد أن يكون أغاب الأشياء على أفاعيلك كل ما تعمده العوام ^(٢)
ولا تذمه الجماعات ، فإن ذلك يعنى على كل حال إن كان .
فبادر السنة الناس فاشغلها بحاسنك ، فإنهم إلى كل شيء سراع ^(٣) ،
واستظهر على من دونك بالتفضل ، [وعلى نظرائك ^(٤)] بالإنصاف ، وعلى من
فوقك بالإجلال . تأخذ بوثائق الأمور ، وأزمة التدبير .

واعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة ، وأطراحه كنه دليل على قلة
الاكتراث لأمر الصديق ^(٥) . فكن فيه بين أمرين : عاتية فيما تشتركان في
نفعه وضرره وذلك في الحينات ^(٦) ، وتباف له عن بعض غفلاته تسلم لك
ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب
بالباه ، وربما أورت الملالة ؛ وطول المجتران يعقب الجفوة ، ويحل عقدة

(١) في الأصل : « خلافة » ، ووجه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ما تعمده
العوام » .

(٣) في النسختين : « إلى كل شيء » والوجه ما ثبت . وفي م : « إلى كل شيء » .

(٤) التسكلة من د ، م .

(٥) في الأصل : « الأمن » وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال
ما أكثر به ، وما أكثر له ، أى ما بالى به . وأثبت الوجه الذى يقتضيه الجمع
بينهما .

(٦) د : « الحنات » ، وكلامها متجه .

الإخاء ، ويعمل صاحبه مدرجة للقطيعة^(١) وقد قال الشاعر^(٢) :

إذا ما شئت أن تَتلى حبيباً فأكثر دونه عددَ الأيالي

فأبلى حبيبك مثل ندى ولا يبلى جديدك كابتدال^(٣)

[وزر غيباً إذا أحببت خلاً فتعظي بالودادِ مع اتصال^(٤)]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرئ عليك أهل الدناءة . وإن التصير فيه يقبض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيت يتخلق به ، وذلك أن تحمله شديد ، ومرقا صعب ، وبسبب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصناراً ؛ بل إن زرته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإثارة له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مسامحاً تخاف شداه ومعرته^(٥) ، وترجو عنده جرة منقعة لصديق ، أو دفع مضرة

(١) هذا ما في د . وفي الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح الرزوقي ١٣٠٠ وشروح سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكلة من د .

(٥) الشدا : الأذى والشر . د : « شداته » ؛ والشداة : الحدة . والعره :

الأذى .

عنه ، أو كتباً لعدو وإزال هوان به ؛ فإنَّ السُّلطان وخِيَله ، وزَهْوَه يُحْتَمَل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعَدَّر فيه ما لا يُعَدَّر في سواه ^(١) .

واعلم أنَّ نشرَ محاسنك لا يليق بك ، ولا يُقبل منك ^(٢) ، إلَّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ الروايات ، وذَوِي الصَّدق والوفاء ، ومن يَنتجع قوله في القلوب مَن يُستَنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، ومن إنَّ قال صدق ، أو مدح اتصّد ، يُذني بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف ^(٣) الثناء على قدر النعمة يؤلّد في القلوب التكذيب ، ويدلّ على طلب المرآيد .

فإنَّ ثناء المادحين لك في وجهك ، فإنَّما تلك أسواق أقاموها للأرباح ، وسأهلوك للبائسة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلفة ، لكساد أقوالهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طرق المكارم ، والخبّطون عن ابتناء العالي .

فارتدّ ليمك مغرّاً تنمو فيه فروعهما ، وتركوا ثمرها ، لا تذهب نفقتك ضياعاً ، إمّا لما جِلّ تقدّمه ، أو لآجل ثناء تنفع به ^(٤) .

ولن تعدّم أن يفجأك في بعض أحوالك حقوقٌ تنهيكك ، وأحوالٌ تقدحك ، وأمورٌ كلُّها تنفسمُ عنايتك ، وفي التنبُّث في منابها تُعرف فضيلتك ،

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنفع به » في س ١٢ ماقط من د .

(٢) في الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والراد الزيادة . وفي الأصل : « إشراف » .

(٤) انظر ما سبق في التنبيه الأول .

فلا تستقبلها بالتضجع وتغير الرأي^(١) ، وأبدأ منها بأعظمها منفعة ، وأشدّها خوف ضرر . وكلّ ما أعجزك إلى الكفاة ، واعتذر من تقصير إن كان ؛ فإنّ الاعتذار بكسر حياء اللأمة^(٢) ، ويردع شدة الشرّة .

ثمّ تلاف بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك^(٣) ، واجهد اتجهد كلّ أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلة ، موصولة لأصحابها^(٤) .
ببشرِك وطلاقة وجهك ؛ فقد زعمت الحكماء أنّ التبايل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوى الروءات من الكثير مع العُيوس والاقباض^(٥) .

٥١ ظ

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يأتقوا ما يحبون ويحرموا ، أحبّ إليهم من أن يأتقوا ما يكرهون ويعطوا » .
[وما أبتسدا عن الحقّ^(٦)] .

ولا يدعونك كفر كافر لبعض رنعمك^(٧) من آثر هواء على دينه

(١) التضجع ، يقال تضجع في الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفي د : « وتغيين الرأي » .

(٢) الحيا : السورة والشدة والحدة . وأصله من كسر حيا التراب يخرجه بالاء . في الأصل : « حيا اللأمة » ، ووجهه في د .

(٣) في الأصل « الانكشاف » وفي د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » في س ٩ ساقطة من د .

(٦) الكلمة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومرهوته ، أو غدره غادر تصنع لك وحتكك عن مالك ، أن ترهده
في الإنعام^(١) ، وتسمي بتقائك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله
الدريعة إلى استفساد الصنائع^(٢) ، وتعطيل للكرام .

واعلم أن استفسارك ريمك يكبرها عند ذوى العقول ، وسترك لما نشر
لما عندهم ؛ فانشرها بسترها ، وكبرها باستفسارها .

واعلم أن من الفعل^(٣) أفاعيل وإن عظمت منافقها ، ومنافع أضدادها
فلا يثارها فضيلة على كل حال . فاجعل صمتك أكثر من كلامك ؛ فإنه أدل
على حكمتك . واجعل عفوك أكثر من عقوبتك ؛ فإن ذلك أدل على كرمك .
ولا تفرط في كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه ، والتأديب
في أوانه .

واعلم أن لكل امرئ سيّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسه وسيس له
فيه هواء ، فتعظّم ذلك من نفسك ، وتقاضها الزيادة فيه ، ورؤسها على تميره
والمواظبة عليه^(٤) .

واحذر الحذر كله الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإن من عطب بها كثير ،
وتلافيتها صعب شديد :

(١) في الأصل : « الاحاس » ، وأثبت ما في د .

(٢) السائع : جمع صنعة ، وهو ما أعطيه وأسدته من معروف أويده إلى
إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبايع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .

أحدها : ألا تولى جسامك تصرفك وتقليد مومأمورك^(١) ووثائق تدبيرك
إلا امراً صلاحه موصول بصلاحك ، وبقائه النعمة عليك هو بقاء
النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغتر^(٢) بمن تعلم أن بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك
اعطاطَه ، وبسلامتك عطية ؛ فإن من كان هكذا فانت ملك موتَه^(٣) .
فيحسب ذلك فليكن عندك .

٥٢ ظ

أو أن تجعل مالك كله في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [أو وجه
منفرد^(٤)] ، إن اجتاحتها جائحة أو نابتة نابتة بقيت حسيراً . وقد قال بعض
الحكماء : « فرقوا المنيّة » ، و « اطلبوا الأرباح بكل شئيب » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذممتها الحكماء خلق إلا وقد ينفع
في بعض الحالات ، ويرد به شكله ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره^(٥) .

إنك ستمتني بصحبة السلطان الحازم العادل ، وبصحبة السلطان الأخرق
الجهول الغشوم . فالحازم العادل يسوس لك الأدب والنصح ، والأخرق
تسوسه لك الحيلة والرفق . العادل يعضدك منه ثلاث ، وتصير نفسه لك
على ثلاث :

(١) في الأصل : « وتقليد مومأمورك » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « وأن لا تأنس وتحتر » ، صوابه في د .

(٣) د : « مالك موتَه » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) الشككة من د .

(٥) السلام ينده إلى كلمة « النصحاء » في ص ١٣٣ ساقط من د .

فألواتي بعمدتك : تسليط العدل وإغاذ الحكومة - وفي ذلك صلاحُ
الرعية - وإثابة الحسنيين الذين إثابهم تحصيلُ البَيضةِ والشُّبُل ، والعفو ما بلغ به
الاستصلاح ، واكتفي به من البَسْط . وألواتي تصبر نفسه لك عليهن : الهوى
إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الآ بعد التثبت حتى تعاونه عليه
النصحاء^(١) .

ولكنني أوصيك برياضة نفسك حتى تذللها على الأمور الحمودة ؛ فإن
كل^(٢) أمر ممدوح هو مما تستنقل النفوس . [ومما تسرُّ به وتنقلب إليه
الأخلاق للذمومة^(٣)] . فإن أهملتها وإثابها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة
[مرعبة^(٤)] ، وجيلة مفسورة .

فإنك المساهلة في أخلاقك أغابَ عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك
من الصَّلبة ، والصبر الحاكم عليك دون التجزع ، والعفو أسبق إليك من
الجزاء بالذَّنوب ، وللكفاية بالشؤ .

[وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والذمومة ، فإنك محموداتها غالبية
على أفعالك ، بحكمة في أمورك^(٥)] . فإنك إن ضبطت [ذلك ، وقومت
عليه^(٦)] نفسك ، عشت رخي البال ، قليل المغموم ، كثير الصديق قليل

(١) كذا . ولعله : « وإيضاء الرأي بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة
النصحاء » . وهذا نهاية سقط د التي نهت عليه في ص ١٣٢ .

(٢) في الأصل : « وإن كان » صوابه في د .

(٣) التكملة من د .

العدو ، [سليم الدين ، تقى العريض ، محمود الفعال^(١)] ، جميل الأحداث
في حياتك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك السلامة
الآجلة بالنعمة العاجلة ، [إن شاء الله عز وجل^(٢)] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئ بكل نعمة ، والثوئي لكل إحسان ، أن يصلي على محمد
خيرته من خلقه ، وصفوته من برئته ، وأن يتم^(٣) عليك نعمته ، ويشفع
لك ما خولك من نعمته بالنعمة التي يؤمن معها الرّوال ، في جواره ومرافقة
أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومَنه . والله الوفي
للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته^(٤) .

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتم » . وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله الحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب غر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً .
والله الوفي للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً . وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ

كَيْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« صكتان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل . وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي ، مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، مجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد النص على وجهه ؛ فنهت على ذلك في الحواشي ، والنصمة لله وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فإنني قد تصفحت أخلاقك ، وتدبرت أفعالك ، وتأملت
شيمتك ، ووزنتك فمرفت بمقدارك ، وقومتك فملت قيمتك ، فوجدتك
قد ناهزت السكّال ، وأوفيت على النعام ، وتوقلت في درج الفضائل^(١) ،
وكدت تكون متقطع القرن ، وفاربت أن تلقى عديم الظلّير ، لا يطمع
فاضل أن يفوتك ، ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن
ياخذ عنك .

ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضيق وإهمال لأمرين هما القطب
الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحقّ بالعدل ، وأقنّ بالتأنيب من لم يسبق
شأوك ، ولم ينسّم رُبَّتْكَ ؛ لأنه ليس ملوماً على تضيق القليل من قد أصاع
الكثير ، ولا يُسام^(٢) إصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد
على دهره ، ولا يُعاسب على الزلة الواحدة من لا يعدم منه الزلل والعثار ،
ولا يُنكر المنكر على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنّ المنكر إذا كثّر صار
معروفاً ، وإذا صار للمنكر معروفاً صار المعروف منكراً .

وكيف يُجيب من أمره كلّ عجب ، وإنما الإنكار والتعجب من خرج
عن تجري العادة ، وفارق الشئنة والسجية ، كما قال الأول : « خالف نذكر » .

(١) التوقل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه النسي : كلفه إياه وجهه . وفي الأصل : « ولا يسّم » . وفي م :
« لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفى سياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطَاتِه » ، وقيل : « من استوى يومه فهو مغيون ، ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المغيوط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتَكَ أُمِّ خَيْرِ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أُمِّ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ
وفال آخر في معنى^(١) :

أَنْتَ امْرُؤٌ هَكَذَا الْعَمَالَى وَدَلُّوا مَعْسُوفَكَ الرِّيسَغَ
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَمَا قَلْبٌ تُدَحَّى لَهُ الضُّلُوعُ^(٢)
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خُسْرًا بِشِيمِهِ عَنْكَ مِنْ يُشِيعِ

و ٥٥

والأمران اللذان نَقَمْتُهُمَا عَلَيْكَ^(٣) : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،
وإِضَاعَةُ الشَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .

وليس الخطرُ فيما أسُوْمُكَ وأحاولُ حَمْلَكَ عَلَيْهِ بِسَهْلٍ وَلَا يَسِيرَ . وكيف
وأنا لا أعرف في دهرى - على كثيرٍ عددٍ أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل
الخاصَّةَ ، ويُنَسِّبُ إِلَى الْعِلْيَةِ ، وَيَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ وَيَحْتَطِبُ الشِّيَادَةَ ، وَيَتَحَلَّى

(١) معن بن زائدة الشيباني ، كان مضرب لكل في الجود والشجاعة .
وكان محدثاً مقصوداً . وكان من ولادة بني أمية ، وغضب عليه بنو العباس في أوائل
دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسناً مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه .
وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ :

٢٣٥ - ٢٤٤ .

(٢) في الأصل : « نحى به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نعم يتم كضرب يضرب ، ونعم يتم كفرح يفرح .

بالأدب ويدبم الشخانة والزمانة^(١) ، والحلم والفخامة ، أَرْضَى ضِبْعَهُ لِسَانَهُ ،
وَأَحَدُ حَيَاطَتِهِ لِسَرَّهُ . وذلك أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ مِنْ مَكَابِدَةِ الطَّبَائِعِ^(٢) ،
ومغالبة الأهواء ؛ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ لَمْ تَزَلْ لِلْمَوَى عَلَى الرَّأْيِ طُولَ الدَّهْرِ . والتهوى
هو الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السِّرِّ ، وإِخْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ .

وإِنَّمَا سَمَّى الْعَقْلَ عَقْلًا وَحِجْرًا ، قَالَ تَعَالَى - ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ^(٣) ﴾ - لِأَنَّهُ يَزِمُ اللِّسَانَ وَيَحْطُمُهُ ، وَيَشْكُلُهُ وَيَرْبُتُهُ^(٤) ، وَيَقِيدُ الْفَضْلَ وَيُعْقِلُهُ
عَنْ أَنْ يَمْضِيَ فَرُطًا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضَرَّةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَيُحْجِرُ
عَلَى الْيَتِيمِ .

وإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجَانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خَزَانَةُ مَسْتَحْفَظَةِ الْخَوَاطِرِ
وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلٌّ مَا بَيْنَهُمَا [مِنْ^(٥)] ذَلِكَ عَنِ الْخَوَاسِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،
وَمَا تَوْلَدُهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَجِبُهُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَأْنِ الصِّدْرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا يَبْعِي بِقُدْرَةِ
[مِنْ^(٥)] اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَقْبَلَ مَا حَمَلَ

(١) الشخانة ، من قولهم رجل شخين ، أى رزين ثقيل فى مجلسه .

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكابدة »
خلافًا لما فى الأصل .

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله . من شكل الدابة : شد قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكل
ككتاب . الرث : الحبس . وفى الأصل : « وزينه » ، والوجه ما أثبت . وانظر
الحبروان ٥ : ٣٦٣ .

(٥) سكة صرورية .

منه ، فيستريح إلى نبيذه ، ويلتذ إنقائه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضي به إلى غيره ممن لا يبرع ولا يحومله . كان ذلك مادام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعمل فضول التفكر فدتت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأي الهوى فستولى على اللسان ، منعه من تلك العادة ، وردّه عن تلك اللذرية ، وجشّته مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة .

ولا شيء أعجب من أن المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونعمة الجسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ، ومحاسب على ماخول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره ومطاعته ، والقيام بقسطه وحجته ، ووضعها مواضع النفع في الدين والدنيا ، والإتيان بها بالمعروف لفظاً لفظاً ، وصرفها عن أضدادها . فلم يرض الإنسان أن عطّلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضدّ ذلك مما يضرّه ، فاجتمع عليه الإثم اللذان اجتمعاً على صاحب المال الذي كنزّه ومنعه من حقّه ، فوجب عليه إثم النفع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها^(١) . وهذه غاية اللبّ والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا تحمله ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للعلم واللوم على الجهل . فالعلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القائم للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من^(٢) قمع فرط الرضا وغاية الشهوات ،

(١) في الأصل : « منها » . والمراد به في أبواب الباطل .

(٢) في الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والتنع من سوء القرح والبقر ، ومن سوء الجزع والمطع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجمع ، وسوء مناهزة الفرصة ، وفراط الحرص على الطلابة ، وشدة الحنين والرقة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت الشخط ، ووقت الشخط من وقت الرضا ؛ ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى^(١) .

واعلم يقيناً أن الصمت سرمداً أبداً ، أسهل مرأماً - على ما فيه من الشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للصواب ، لما قدمنا ذكره من علة مجاذبة الطباع ؛ ولأن من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجيلة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد^(٢) ، وأحب الناس أن ينقل عنهم^(٣) ، ونقشوا خواطرم في الصغور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرسل ، وقام بحجة الأخبار عن غير شاعر^(٤) ولا تواطؤ مفام العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتديرات والعلامات ؛

(١) الجدى : الجدوى والنماء والتنع . يكتب بالالف والياء ، ويقال بالذم أيضاً

« الجداء » ، ومنه قوله :

أقل جداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقي المعاصر .

(٣) في الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالشاعر المبالغة واللايسة والمعاثرة . انظر العنانية من ٣ س ١٥

و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض فريضة إلى قبول الإخبار عن الرسل ،
وسلماً إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت
هذا المحل . ولكن الله عز وجل حبَّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء
داعيةً للجماع ، ولذةً للجماع سبيلاً للنسل ، والرقعة على الولد عوناً على التربية
والحضانة - وبهما كان النشوء والنماء - وحُبُّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ،
والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فمُرَّ على الإنسان السكتان لإيثار هذه الشهوة ، والافتقار لهذه الطبيعة ؛
وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطياع .
فاعترأه الكرب لسكتان السر ، وغشَّيه لذلك سقم وكذب يحسُّ به في سُوِّدائه
قلبه بمثل ديب التمل ، وحِكْمَةُ الجرب ، ومثل لسع الثَّيْبِ ووَحْزِ الْأَشْأَانِي^(١) ،
على قدر اختلاف مقادير الخلوم والرَّزَانَةِ واللَّفَقَةِ . فإذا باح بسرِّه فسكَّأته
أَنْشِطَ من عِقَال^(٢) . ولذلك قيل : « الصَّدْرُ إِذَا نَفَثَ بَرَأ » مثلاً مضروباً
لهذه الحال . وقيل :

« وَلَا بَدْءَ مَنْ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرٌ^(٣) »

(١) المذَّيْبُ جماعَةُ النحل . والأَشْأَانِي : جمع الإشي ، وهو اللَّقَبُ يخرز به .

(٢) أي حل من عقال ، والعقال : الرباط الذي يثقل به .

(٣) لذلك بن حذيفة كما في حاشية البحري ١٩٧ . وأنشد هذا العجز في الحيوان

١ : ٣٠٢ . وصدره كما في البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

« وما كثرة الشكوى بأمر حزامه »

وبرى : « بعد حزامه » . وبرى : « لمعرك ما الشكوى بأمر حزامه » .

وليس قولنا « طبع الإنسان على حب الإخبار والاستخبار » حجة له على الله ، لأنه طبع على حب النساء ، ومُنِعَ الرُّبِّي ، وحُبَّبَ إليه الطعامُ ومُنِعَ من الحرام . وكذلك حُبَّبَ إليه أن يُخْبِرَ بالحق النافع ويستخبر عنه ، وجُعِلَت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختر المولى على الرأى .

٥٦ ظ

ومما يؤكد هذا المعنى في كَرَب السكتان وضعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، مارووه ^(١) عن بعض فضائهم أنه كان يعمل أخباراً مستورة لا يَحْتَمِلُهَا العوام ، فضاق صدره بها ، فكان يبرُز إلى القراء ^(٢) فيحضر بها حَفِيرةً يُودِعُها دنًا ، ثم يَكْتُبُ على ذلك الدَّنَ فيحذنه بما سمع ، فيروِّجُ عن قلبه ، وترى أن قد نَقَلَ سرَّهُ من وعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش ^(٣) سَيِّئُ الْخُلُقِ غَلَقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضْجِرُونَهُ وَيُسُومُونَهُ نَسْرًا مَا يَحِبُّ طَيِّبَهُ عَنْهُمْ ، وَتَكَرَّرَ مَا يَحْدِثُهُمْ بِهِ ، وَيَتَمَتَّنُونَهُ ، فَيَحْلِفُ لَا يَحْدِثُهُمُ الشَّيْءَ وَالْأَقْلَ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمَا فِيهِ ، وَتَطَلَّعَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَيَقْبَلُ عَلَى شَاةٍ كَانَتْ لَهُ ^(٤) فَيَحْدِثُهَا بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ : « لَيْتَ أَنِّي كُنْتُ شَاةَ الْأَعْمَشِ » .

(١) في الأصل : « رواه » .

(٢) القراء : الأرض الواسعة للستوية الصحرة ، وأنت الضعيف بعدها لعناها . وفي الأصل : « القري » ، تحريف كتابي .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفي سنة ١٨٨ .

(٤) في ثمار القلوب للتحالفي ١٣٤ أنها عَزَ . والشاة : الواحدة من النعم ، وقبل الشاة تكون من الضأن واللز والظباء والبقر والغنم وحمر الوحش .

(١٠ - رسائل الجاحظ)

وشكا هشام بن عبد الملك ما يعذ من فقد الأنيس للآمون على سره فقال :
أكلت الحامض والخلو حتى ما أجد لها طعما ، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة
فقت أم حاططاً ، فما بقيت لي لذة إلا وجود أبح أضع بيني وبينه
مؤونة التحفظ .

وقال معاوية لمعرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شباب قريش أن
يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذة طريح المروءة .

وقد صدق عمرو ، ما تكون الرمانة والوقار إلا بحمل على النفس شديد ،
ورياضة متعبة .

وقال بعض الشعراء^(١) :

ألم ترَ أنتَ وشاةَ الرجا لـ لا يتركون أديماً صحبها
فلا نفس سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحا

والسر - أبقاك الله - إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت من لسانه إلى أذن
واحدة فليس حينئذ بسر ، بل ذلك أولى بالإذاعة ، ومفتاح النشر^(٢) والشهرة .
وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يدفع إلى أذن ثانية . وهو مع قلة
الآمونين عليه ، وكرب السكبان ، حري بالانتقال إليها في طرفه عين .

٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما في أدب الدنيا والدين ٣٧٩ . وفي السكامل ٢٢٤ :
« وأحسن ما سمع في هذا ما جرى إلى علي بن أبي طالب ، فقاتل يقول : هو له .
ويقول آخرون : قاله متمثلاً . ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الجوان
٥ : ١٨١ وما في حواشيه من تخريج .

(٢) في ط : « السر » ، خلافاً لما هو واضح في الأصل .

وصدّر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إنشائه أسرع ، وبه أسخى
وفي الحديث به أعذر ، والحجة عنه أدهض .

نم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث
اتمى .

هذا أيضاً إذا استعهد الحدث واستكبر ، وكان عاقلاً حليماً ، وناصحاً
وإذا ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالكتان ، وكان من يمشی بالثمام ويحب
إنشاء العايب ، وكان من ينطوى على غش أو شحنا ، أو كان له في إظهاره
اجتلاب نفير أو دفع ضرر .

فألوم إذ ذاك على صاحب السر أوجب ، وعن أفضى به إليه أنزل (١) ؛
لأنه كان مالِكاً لسره فأطلق عقاله ، وفتح أقناله ، وسرّحه فأفلت من قيده
ووثاقه ، وصار هو العبد القين للملوك لمن اتعنه على سره ، وملّكه رقبته ؛
فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينة ليوم عتبه
عليه . وقلّ من يحسن التلّكة ، ويعرس الحرّبة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربّما
لم يخرج غشاً فأخرجه سحفاً وضففاً . وإن أساء التلّكة وختر الأمانة (٢)
فأطلق السرّ واسترعه من هو أشدّ له إضاعة ، فسفك الدم وأزال النعم وكشف
التورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان الضيع لسره ألوم (٣) . قال الشاعر :

(١) أى أقل . وفي الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبه بالندر والحديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خاتها .

(٣) في الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صدرُ للرء عن سرِّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرَّ أضيق^(١)

فمن أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرّاً مالِكاً لنفسه فصير نفسه عبداً لمولوكاً لغيره ، مختاراً للرّق ، من غير أمرٍ ولا قسر ! والعبيد لم يصبروا على الرّق إلا بئس الأسر والسَّاء .

ومن كان سرّه مصوناً في قلبه يُقلّب إليه في الحديث به فأخرجه عن يده ، صار^(٢) هو الطالبُ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يسكّر له في عاقبة ، ولا يحرّز له من مُصيبة^(٣) . وكلّ كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدعتهم أذوم . فإذا كان أصل السرّ معلوماً عند عدّةٍ أو أقلّ من العدّة ، فما أَعسر استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب الخيانة فيه إذا كان لبس هو الذي أفساه ، ولا من قبّله عليم .

٥٧ ظ

ولو أن أوزنَ الناسَ حينما ملّكَ لسانه وحصّن سرّه وقلّل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينيّه ، وسجّنة وجهه ، وتغيّرو لونه ، وتبشّته أو قطوبه ، عند ما يجري بلبّه^(٤) من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر^(٥) بباله منه ، فيبدو في وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها البرد في الكامل ٤٣٥ .

(٢) في الأصل : « صار » .

(٣) في الأصل : « ولا يحرّز له بمصيبة » .

(٤) في الأصل : « به » .

(٥) في الأصل : « خطر » .

ومخايبه إذا عَرَضَ بذكره^(١) ، أو سَخَّ له نظير^(٢) أو مثيل^(٣) ، أو حَضَرَ مَنْ له فيه سببٌ - إلا بعد التصنع الشديد ، والتعَفُّظُ المُفْرَط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتَقْلُنِ المرَجِّين^(٤) ، والتعَقُّبِين للأفعال والآقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخاييل الأمور ، فيفسو من هذه الجهات أكثر مما تنفيه ألسُنُ المذاييع البذر^(٥) . فكيف إذا أُسْلِقَ به اللسان ، وعودُ إذاعته القلبُ . والعادة أملك بالأدب .

وربما أدركه الخدس ، وقِيضَ الظن^(٦) ، فنالت صاحبه فيه خُدعة ، بأن يُذكر له طرفٌ منه ، ويُوهم أنه قد فشا وشاع ، فيصدق الظن فيجعله يقيناً ، ويُسَرُّ الجهة فيصيرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها .

وربَّ كلامٍ قد ملأ بطون الطوامير^(٧) قد عُرِفَ جملةُ وما فيه الضَّرَرُ

(١) ط : « عرض ذكره » خلافاً لما في الأصل .

(٢) في الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كسبور وصبر . وفي حديث علي في صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذيع ، وهو من يذيع السرويقيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفي الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قِيضَ : هَيَأَ وميَّه من حيث لا يحتسب . وفي الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسته إلا قِيضَ الله له من يكرمه عند سته » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربي أو دخيل .

منه ، بسعادة^(١) أو طابع^(٢) ، أو لحظة مطلع في الكتاب ، أو حرف تبيين من ظهرة .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لحزم سوء الظن » . وقيل لتخفيف : بم باعتم ما باعتم من الشرف والسودد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل في سررك تحمد عقله دون أن تحمد وده ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر^(٣) :

وما كل ذي لب يؤتيك نصحه ولا كل مؤب نصحه بليب

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن تحب أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلت فيه - ومرجعتك إلى العراق - فيضعفه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنى ما رطلت يدي قط أحداً أوزن منه^(٤) .

وهذا والله - أبقاك الله - الغلط البين ، والمذر الملقق^(٥) ، وتحسين فارط

(١) سعادة القرطاس : ما انشتر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسرها : الخاتم الذي يختم به الكتاب . وفي الأصل : « طائر » ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي . الأغاني ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء يرطله رطلا : رازه يده ليعرف وزنه . كما في اللسان . وأوزن من الرزاة ، وأصل الرزاة الثقل .

(٥) في الأصل : « والمذر الصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كل راجع وعقل ينصح لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أم ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه الملوثة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأعلى رغبة ورهبا ، وتحشنا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذبح أسرار الناس أهلهم وعبيدهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من ^(١)] لم عليهم اليد والساعان . فالسر الذي يودعه خليفة في عامل له يتلحقه زينه وشينه ، أخرى ألا يكتمه . وهذا سبيل كل سر يستودعه الجلة والعطاء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللامة .

وقال سايبان بن داود في حكته : ليكن أصدقاؤك كثيرا ، وصاحب سرّك واحدا من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدّ من تعرف ألفا وتفضي إلى واحد بسرّك ^(٢) إن لم يكن ذلك الواحد موصفا للأمانة في السر . لكنه قيل : رجل يساوى ألف رجل ، ورجل لا يساوى رجلا . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة ^(٣) » .

فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأننا قد نجد الرجل يوزن بالامة ، ونجد الامة لا تساوى قلامة ظفر ذلك الرجل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ط : « سر » خلافا للأصل .

(٣) وروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة :

البعير القوى على الأسفار . أراد أن السكامل الزاهد في الدنيا قليل كما أن الراحلة النجبة نادرة في الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَنْ نفع عليه الشريعة معدوماً - شيئاً من يؤتق بحله وعقوله ،
وأمانته ونصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في الشرِّ الذي يُضمر ولا يجرمُ
عليه كتاباته ، ومن قد وُأى على نفسه بالشرِّ والحفظ^(١) ؛ فإنه ليس كلُّ من
ظ ٥٨ ضَمَنَ فلم يضمنْ ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبلْ مستحققاً ، ولا من
استخلف فلم يخلفْ خائناً ، وإنما بالحقه الحدُّ والذمُّ ؛ والأجر والإثم إذا ضَمَنَ
الأمانة ثم خَثرها^(٢) - فكانَ القومُ قالوا : لا تودعنْ سركَ أحداً . وإلا فُتِي
تجد رجلاً فيه الصفة التي وصفَ بها مسكينُ الدارميِّ نفسه حيث يقول :

إني امرؤ مني الحياء الذي ترى أتوه بأخلاقٍ قليل خداعها^(٣)

أواخي رجالاً استأطِيعَ بعضُهم على سِرِّ بعضٍ غير أني جماعها^(٤)

يَظُنُّونَ شَيْئاً في البلاد وسرهم إلى صحرة أعيان الرجال انصداعها^(٥) ؛

وقيل لرجلٍ : كيف كتابتك للسرِّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفنه فيه

إلى يوم التشور .

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفي حديث وهب : « قرأت في
الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسي أن أذكر من ذكرني » . عداه يعلى
لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسي .

(٢) أى خاها . وانظر ما سبق في ص ١٤٧ .

(٣) للتطوعة في حماسة أبي تمام في أول باب الأدب . انظر شرح الرزوقي
١١١٥ - ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكامل ٤٣٥
وأمالى القالي ٢ : ٦٢ والرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشيء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء .

(٥) أى أن صدورها فتصدع . وروى : « أعيان الجبال انصداعها » .

وقال الآخر^(١) :

« وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العنقِ^(٢) »

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومةٌ بالأفعال . والمغرورُ من اغترَّ بما يمدُّه الواعدُ منها دون أن يبَيِّنَ الخبر .

والذي جرَّ بناءً ووجدناه : أن من يقصُّ إليه بالشئ ، يبلغ من إذاعته ونسره ما لا يبلغه الرسولُ المستحفظُ للمعنى بقبليغ الرسالة ، الحمودُ المجازي على أدائها ؛ حتَّى ربما كان يبلغ^(٣) في الإذاعة من أرادها أن يقصد للبلاغه من الرجال^(٤) ، المعروف بالثميمة والتفتيت^(٥) ، فيوممه أنه قد استحفله السرُّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظلمة .

وهذا فعلُ عمر بن الخطَّابِ رضي الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامه فقال : من أتمَّ أهلَ مكة ؟ قيل له : جميل بن النخيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتبه عليه ، فلم يُبسِّ وبمكة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضي الله عنه .

(١) هو أبو محجن الثقفي . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره في ديوانه :

« وأكشف للآزق الكروب غمته »

وفي الحيوان :

« وقد أجسود وما مالى بذى فنع »

وفي الأغاني :

« وأطعن الطنة النجلاء عن عرض »

(٣) في الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عن بذلك وإن لم يكن مذكوراً في المعاجم للتداول

(٥) التفتيت : مبالغة من الفت ، وهو التهمة .

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السر الاستعداد له ، والتعذير من نشره ؛ فإن النهى أغرى ؛ لأنه تكليف مشقة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو خطر ، والنفس طيارة متقلبة ، تمسق الإباحة وتغرم بالإطلاق .
ولعل رجلاً لو قيل له : لا تمسح يدك بهذا الجدار - وهو لم يتسخطها به قط - غرئاً بأن يفعل .^(١)

وكذلك ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره ، لعله ألا يخضر بياله ؛ لأنه موجود في طبائع الناس الوثوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول . ٥٩ و

فتريد أن نعلم : لم صار الإنسان على مامنع - وإن كان لا ينفعه - أحرص منه على ما أبيع من غير علة ولا سبب إلا امتحان ما كثر عليه^(٢) ، واستطراف ما قلّ عنده ؟ ولم أقبل على من ولى عنه وولى عن أقبل عليه ؟ ولم قالوا : إذا جدت المسألة جدّ المنع ؟ وقال الشاعر^(٣) :

الحرّ يأتى والمصا للعبير وليس للمنجف مثل الرّد
ولم صار يتقى الشئ ، ويذّدر فيه التذوّر ، ويتقطع إليه شوقاً ، فإذا غلّغ به صدّ عنه وأخلق عنده ؟ ولم زهد اللوك فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس ؟

فنقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبالغاً من الوسع لا يمكنها تجاوزه ، ولا تنسع لأكثر منه . فكان معها فيما دون الوسع الفقر

(١) غرئ بالشئ غراً وغراء : أولع به وأغرى .

(٢) في الأصل : « ولا امتحان بما كثر عليه » ، صوابه في ط .

(٣) هو بشر بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوف الإخوان ، وفيما تجاوزه عز الغنى وأمن العدم . وبهذا وبمثله من اليعمل
والحرص استغفنت من احتاج إليها ، وأعقلت من استغنى عنها . وجعلها تواة
مشاقة ، مطرقة مالة^(١) ، كثيرة النزاع والقلب ، تستحك عليها الفتنة^(٢) ،
ويؤتى خيرها [من شرها^(٣)] وصبرها من جزئها . ولولا هذه الخلال سقطت
المحنت ، فهي تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة
النزاع والشوق إن كان من طرف شهواتها ؛ فإن صنوف الشهوات كثيرة ،
ولكل صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه . وتتعجب من الغريب النادر ،
وبضحكها البدیع الطارئ . إلا أنه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز
المطلوب مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهيراً وفصلاً استغفنت به وقل في أعينها
كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدت إليه الفقر والحاجة وإن قل
قدره^(٤) ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تنوق
إليه وتشتاقه مكاناً من قواها ، له^(٥) . فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً ،
وقضى ذلك الأرب وطراً بما كان ملتحح إليه ، وروى مما كان ظامناً إليه ،
انصرف عنه وقلاه ، وحال عشقه بغضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك : أن الدنيا دار زوال وملال ، ليس في كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) التطرف والاستطراف : الذي لا يثبت على أمر . وفي الأصل : « مطرقة » .
واللغة : الكثيرة اللل .

(٢) في الأصل : « تستحك عليها الفتنة » .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « ضرره » .

(٥) أي مكاناً له من قواها .

هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدار القرار .
فالسامة تلحقها في محبوبها ، كما يصيب التثبي من الطعام والشراب والباء ،
فإنه ليس شيء أبغض إلى من ينهض فيه إلى غايته ، من التفار إلى ناحيته ،
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطبايع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك
القوة من محسوسها لم تجد لها وراءها طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضرر . فبعض
التفار يُسمى ، والصوت الشديد يُصم ، والرائحة المُنْفَنَة تُبطل الشم ،
والأطعمة الحارة المُحرقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطرق كل واحدة منها ؛ فبين الطيب عند مَنْ بعد عيذه [به] ،
والجماع والسماع ، وبين من هو مغموس فيه بون بعيد جداً ، في الخلوة
وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ؛ فإنه كلما كثر كان أشهى
وأعجب ؛ لأن قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الحاجة كما يُريده
أهل الفناعة والزهادة ، وإنما يراد لقمع الحرص ، والحرص لا حد له
ولا نهاية ؛ لأنه سعى لا حاجة ، وإيضاع لا بُغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن لابن آدم واديين
من ذهب لا بَغَى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »^(١) .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَغْنَى بما يَغْنِيه فكل ما في الأرض لا يَغْنِيه

(١) حديث صحيح ، أخرجه في الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلغند : « لو كان لابن آدم واد من مال لا يَغْنَى إليه ثانياً ، ولو كان له واديان لا يَغْنَى لهما ثالثاً » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَتَحْمِلُونَ الثَّاقِلَاتَ حُسْبًا كَيْفًا ^(١) 〉 . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبِيبٌ خَلِيبٌ لَشَدِيدٍ ^(٢) 〉 . وقال الشاعر :

وَالنَّاسُ إِنْ شِيعَتْ بِطَوْنِهِمْ فَعْيُونُهُمْ فِي ذَلِكَ لَا تَشْبَعُ

فَأَمَّا الحديث الذي جاء : « لَا يَشْبَعُ أَرَبٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ : أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ ، وَأَتَقَى مِنْ ذِكْرٍ ، وَعِلْمٌ مِنْ عِلْمٍ ^(٣) » . فَإِنَّ الْعَيْنَ لَا تَشْبَعُ فِي الْجَلَّةِ كَمَا لَا يَشْبَعُ الْخَبْشُومُ مِنَ الْإِسْتِنْشَاقِ . فَأَمَّا مِنْ صَنِيفٍ مِمَّا يَرَاهُ دُونَ صَنِيفٍ ، فَإِنَّهُ يَشْبَعُ وَيَرَوَى ، وَيَصْدُقُ وَيَصْدِفُ إِلَى غَيْرِهِ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَادَّ بِهِ ، فَمَنْ حَلَّتْهُ أَشْرَفُهُ وَغَرَفُهُ فَإِنَّهُ لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، وَلَمْ يَزِدْ لَهُ طَنْبًا إِلَّا أَزْدَادَ فِيهِ رَغْبَةٌ . وَمَنْ مَلَابَ مِنْهُ مَقْدَارُ كِفَاتِهِ وَحَاجَتُهُ كِفَاهُ مِنْهُ الْيَسِيرُ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلَأُ مِنْ كَثْرَةِ عِلْمِهِ أَنْ يَرَى فِيهِ الْغَنَى وَالْكِبْرِيَاءُ أَيْضًا . وَقَدْ يُعَلِّ كَمَا يُعَلِّ كُلُّ شَيْءٍ . وَتَعَلَّى الْعَيْنُ أَيْضًا مِنْهُ وَمِنْ السَّالِ .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم ومطالع ذنبا . وهذه القضية ^(٤) تدلُّ على الخروج عن العقل ؛ لِأَنَّ النَّهْمَ تَجَاوُزُ الْقَدْرَ .

(١) الآية ٢٠ من سورة القمر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٢ بلفظ : « أَرَبٌ لَا يَشْبَعُ مِنْ أَرْبَعٍ » .

(٤) في الأصل : « القصة » . والقضية : الحكم .

وَأَمَّا^(١) الحرص على المتنوع الذي لا يفتن به ، والعجب مما يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإِنَّمَا ذَلِكَ فِعْلٌ مِنْ اسْتَوْحَشَ مِنَ الْحِجَّةِ ، وَشَرَّدَ عَنْ عِلْمِ الْعَالِ وَالْأَسْبَابِ .

وإفشاء السرِّ إِنَّمَا يُوَكَّلُ بِالظَّهْرِ الزَّائِعِ ، وَالْمُخْطَبِ الْجَلِيلِ ، وَالْمُفَوَّنِ الْمَعْمُورِ ، وَالشَّعْثِ الْأَبْلَقِ ، مِثْلَ سِرِّ الْأَدِيَانِ^(٢) لَعَلَّيْهِ الْمَوَى عَلَيْهَا ، وَتَضَاغُنِ أَهْلِهَا بِالْإِخْتِلَافِ وَالتَّضَادِّ ، وَالْوَلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ . وَمِثْلَ سِرِّ الْمُلُوكِ فِي كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَكْنُونِ شَهْوَاتِهِمْ وَمُسْتَوْرِ نَذِيرَاتِهِمْ ، ثُمَّ مِنْ بَابِهِمْ مِنَ الْعُقَا ، وَالْجَلَّةِ ؛ لِنَفَاسَةِ الْعَوَامِّ عَلَى الْمُلُوكِ^(٣) ، وَأَنْتَهُمْ مِمَّا مُنَّطَلَّةٌ عَلَيْهِمْ ، أَعْيُنُهُمْ إِلَيْهَا سَامِيَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ بِهَا مَمْلُوءَةٌ ، وَرَغَبَاتُهُمْ وَرَهَبَاتُهُمْ إِلَيْهَا مَصْرُوفَةٌ . ثُمَّ عَدَاوَاتِ الْإِخْوَانِ ؛ فَإِنَّمَا صَارَتِ الْعَدَاوَةُ بَعْدَ الْمَوَدَّةِ أَشَدَّ لِاطَّلَاعِ الصَّدِيقِ عَلَى سِرِّ صَدِيقِهِ ، وَإِحْصَائِهِ مَعَايِبِهِ ، وَرَبِّمَا كَانَ فِي حَالِ الصَّدَاقَةِ يَجْمَعُ عَلَيْهِ السَّقَطَاتِ وَيُحْصِي الْعُيُوبَ ، وَيَحْتَفِظُ بِالرَّقَاعِ ؛ إِرْصَاداً لِيَوْمِ الثَّنْوَةِ ، وَإِعْدَاداً لِحَالِ الصَّرِيْمَةِ .

وقد شكنا بعض الملوك تنقيب^(٤) العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناسُ منَّا ما ينهم الناسُ عنَّا

٦٠ ظ

(١) في الأصل : « وإِنَّمَا » .

(٢) في الأصل : « الأدمان » ، صوابه في ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه بنفس نفساً ، بالتحريك ، وتعامة كسجاية .

(٤) في الأصل : « تنقب » .

لَوْ سَكَنَّا بَاطِنَ الْأَرْضِ لَكُنَّا حَيْثُ كُنَّا
إِنَّمَا مَهْمُهُمْ أَنْ يَنْشُرُوا مَا قَدْ دَقَّقْنَا

وَلَمْ تَرَى حُبَّ الطُّغْيَانِ عَلَى الْمُلُوكِ^(١) ، وَالتَّجَسُّسَ عَلَى أَخْبَارِهِمْ ، وَعَشَقَ
نَشْرِ الْمَغَائِبِ ، وَاسْتِحْلَالَ الْغَيْبَةِ ، ظَاهِرًا فِي طَبَاعِ النَّاسِ لَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ حُلُمُهُ وَعَظُمَتْ مَرُوءَتُهُ ، وَظَهَرَ سُودَدُهُ ، وَاشْتَدَّ
وَرَعُهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : « الْغَيْبَةُ فَكُهُ النَّسَاكِ » .

وَرَوَوْا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : « الْفَاسِقُ لَا غَيْبَةَ لَهُ » .

وَقَالَ آخَرُ : « أَتَرَى عَوْنَ مَنْ ذَكَرَ الْفَاسِقَ^(٢) ؟ أَذْكَرُوهُ بِعَرَفِهِ النَّاسِ » .

وَلَمْ تَرِ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ رَخَّصَ فِي اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ ، بَلْ ضَرَبَ الثَّلَّ فِي الْغَيْبَةِ
بِأَكْرَهٍ مَا تَكْرَهُهُ النَّفُوسُ ، وَمَا تَخْتَارُ مِنْهُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَقَالَ :
﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصُكُمُ بَعْضًا أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ^(٣) ﴾ .

وَإِغْتِيَابُ النَّاسِ جَمِيعًا خَطِيئَةٌ جَوْرٌ فِي الْحِسْمِ ، وَسَقُوطٌ فِي الْهَمَةِ ، وَسَخَافَةٌ
فِي الرَّأْيِ ، وَدَنَاءَةٌ^(٤) فِي الْقِيَمَةِ ، وَكُلْفَةٌ عَرِيضَةٌ ، وَحَسَدٌ وَفَاسَةٌ ، قَدْ

(١) فِي الْأَسْلَ : « وَلَمْ نُوْجِبِ الطُّغْيَانِ عَلَى الْمُلُوكِ » وَفِي ط : « وَلَمْ نَرْحِبِ
الطُّغْيَانِ عَلَى الْمُلُوكِ » وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . انْقَطَعَ لِتَأْيِيدِ هَذَا الْأَسْلَابِ مَا سَبَقَ فِي
ص ١٥٤ س ٨ وَمَا بَعْدَهُ .

(٢) بِقَالَ وَرَعَ مِنْ الشَّيْءِ بِرَعٍ بِكَسْرِ الرَّاءِ فِيهِمَا وَيُورَعُ ، كَيُوجَلُ ، أَيْ تَخْرُجُ
وَنَاقُصٌ . وَفِي ط عَنْ نَسْخَةِ الْمُخْتَارِ : « أَتَرَأَعُونَ » .

(٣) الْآيَةُ ١٢ مِنْ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ .

(٤) فِي الْأَسْلَ : « وَدَنَاءٌ » .

استحوذت على هذا العالم وغلبت على طلباتهم ، وتوكدت لسوء العادة عندهم ، ولعلو الشر على الخير ، وكثرة الدَّعَلِ والنَّقْلِ والحسد في القلوب . فليست ترى منها ناجياً . إنا نأظر بعين عدل وإنصاف ، فهو يرى ما يُنكر فيبدو في وجهه ولسانه . وإما نأظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من الميوب في عدوه ما يُمينه على التخرُّص عليه^(١) فيقويها ويزيد فيها . وإن عَدِمَ الحقَّ تَقَوَّلَ وقبح الحسن ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله - إلا ما لا يَلِ به - ذكرُ الناس ، وانفو وخطأل ، وهجر وهذاء ، وغيبة وهمز ولز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنَيَّ ، إنا الإنسانُ حديث ، فإن استطلعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكلُّ سِرٍّ في الأرض إنما هو خيرٌ عن إنسان ، أو طيٌّ عن إنسان ، فله في الفية أكثر الحفظ ، وجُلُّها كلفة لا ضرورة ، يُرى صاحبها أنه قد أهمل بحاسبة نفسه ، وغمر ذنوبها وألقى عيوبها ، وقصد قصد غيره ، فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهر تديره ، وتمجَّب من مقابحه ، وجتهد نفسه في تنقُّد أموره . ليس ذلك عن عناية بصلاحه ، ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنه مسيطرٌ عليه ولا محمودٌ عنده على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين للذموم .

وهذا جُلُّ حديثِ البشر وشغلهم في الليل والنهار .

(١) في الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : القول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى قُصُل القول ، وفضول
الخواطر تبعث على اللهو والتفكك .

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما يعنيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِّتِه ، قل
كلامه . ولو حكم العدل ^(١) في أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين
إخوانه ومعاليه ، لطاب عيشه وخَفَّتْ مؤثنته والمؤونة عليه ؛ فإن الله تبارك
وتعالى لم يَخْلُقْ مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحَ على القنوب من الإنصاف ،
ولا أمرٌ من الظلم ، ولا أبشعَ من التجلور .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حُكْم به عليه » . ومن
استعمل العدل دُلَّه على أنَّ الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم
مثل الذي يجد إذا ظلم ، فكبره ثم ماكره لنفسه ، فأنصف ولم يظلم .

وينظالم الناس فيما بينهم بالشرِّ والحرص المركَّب في أخلاقهم ، فذلك
احتاجوا إلى الحكماء - وقد أُطْلِقَ لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم ^(٢) - التي
ردَّت إليهم بالأحكام فيها ^(٣) ، ما جُنِبَتْه عليهم أكثر مما بطالهم به
الخصوم ^(٤) .

(١) في الأصل : « العدى » .

(٢) في الأصل : « تصريفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) في الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) للراد بالجناية جزاء الجناية ، كما في قوله تعالى : « يلقى أناما » أى يلقى
جزاء الأنام ، وهو الإثم . وكما في قول بشر بن أبي خازم :

وكانت مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى الجباز له أنام

وقال بعض الحكماء : إن من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ، ومواساتك أخاك في مالك ، وذكر الله . أما إني لأعنى قول سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإن ذلك لمن ذكر الله - ولكن ذكره عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعة الله فعلته ، وإن كان معصية الله اجتنبته .

٦١ ظ

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظله : رجل لم يبغ أخاه بغيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ؛ فإنه لا يصلحه حتى يهجم على آخر^(١) ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس . ورجل لم يقدم يداً ولا رجلاً حتى يعلم : أفي طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجل لم يلتصق من الناس إلا مثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تُنصِّفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ، وشغله عيبه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم^(٢) : « يا بني إسرائيل أرى أحكم القذاة في عين أخيه وبعثي عن الجذع للمعرض في عينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي ما لا يمتنني .

وقال عمرو بن عبيد : أعيتني ثلاث خلال : تركي ما لا يمتنني ، ودرهم من حله ، وأخ إذا احتجبت إلى ما في يديه بذله لي .

(١) أي على عيب آخر في نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ - ٤ .

وما أُحَقِّقُ مِنْ أَحْصَيْتُ الْفَنَاطِلَ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَبْذُرُ مِنْهُ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَنِيدٌ ، وَمَنْ أَحْصَيْتُ عَلَيْهِ مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ جَلْدُهُ وَجَوَارِحُهُ - أَنْ يَضِيقَ لِسَانَهُ .

وقد جاء في بعض الآثار : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيهَا لَا يَتَعْنِيهِ .

وكلُّ امرئٍ غَصِيبٌ نَفْسِهِ ، غَيْرُ مَأْخُودٍ بغيرِهِ ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جلَّ ثناؤه - وقوله الحق - ﴿ كُنْ أَمْرِي بِمَا كَتَبَ رَبِّهِ^(١) ﴾ . وقال : ﴿ بَيِّنَاتٍ لِقَوْمٍ آمَنُوا وَعَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَبْشُرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ^(٢) ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط .

وقال بعض الحكماء : شيطان لا صلاح لأحدهما إلا بالآخر : اللسان والسيف .

وأنت إذا تأملت أكثر ما يفتاح به للشعثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ، ويكثر لما لا يكرهه ، ويُعنى بما لا ينفعه ولا يضره ؛ وأكثر المجيبين يُعيب ولم يسأل ، ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألَكَ لا تنضح ، ولو حاجته فيما ادعى ووقفه لا تقطع . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ^(٣) ﴾ .

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة النازعة .

(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّة هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول ، وعليه حَلَّةٌ ذِيَالَةٌ^(١) يسحبها في الثراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أفسدت ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيتَه في النار . قال : وما ينفعُك من ذلك ؟ فأخذه غاية الإخغام .

ولو تهيأ المتكلفين في كل وقتٍ مثل صرامة هشام لآزدجر من به حياءُ منهم ، ولقلت الفضول والكلف والغيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلَّ من مفتاب ؛ لأنه يحقن شخصه ، ويطلب من حشّه ، ويغض من صوته ؛ ولا يريد^(٢) بما يناله من ذلك إلّا بأن يرفع من قدر خصمه ويعلم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى من النبيل ؟ هو الذي إذا رأته هبته ، وإذا غاب عنك اغتبتَه .

وهي لعمري سبيل العظماء عند العوام ، وللولوك عند الرعيّة ، والسادة عند العبيد .

فلم يأخذ المفتاب من اغتابه شيئاً بعضيته إِيَّاهُ^(٣) إلّا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المفتاب لا يستتر من النية إلّا بمن يخاف سطوته ، كان أعدر . ولكن الثؤم للتمكّن منه يعمل على اغتياب عبده وأمه ، فضلاً عن كفته ونظيره .

(١) الذبالة : الطويلة الدليل .

(٢) في الأصل : « ولا يريد » .

(٣) المضية : الإفك والبهتان والكذب .

ويفتاب الرجل عند عدوه والمُشاحِر له ، مساعدة له بالضعف ، وتقرباً إليه بالهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طَوْل ، أو يلتمس منه على ما تقرّب به إليه جزاء أو سُكُورا .

ثم لعلّه ينكئ إلى الذي اغتابه وقصّبه^(١) من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعلّه أيضاً ولا صرفق ولا ربح أكثر من الدلّة التي يندّھا في نفسه ، والضعف في مثنته ، كما بعثم الغنى بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فتى كوشيف أو غوتب لبيته ذلّة أخرى من السكينة بالمعاذير الكاذبة ، والاعتصام بالآيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُرْبته فهو حريّ أن يُطلّع على دِخْلَة أمره ، فلا يقبل منه عذر ، ولا يُصدّق في قول ولا حلف ، وقد تسرّب الدلّة ، وتدرّع الخضوع .

٦٢ ظ

وليس من سُوس النفس الكريمة الشَّهْمَة^(٢) ، أن تاتى الناس بخلاف ما يتخافون به^(٣) ما لم تات ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغيبة فيها الرأى الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقل فيما يغفل له ويعسّن به ، بعد أن تميّبه الحيلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق واللّلاية .

وإنما قيل : « قلّ من اعتذر إلاّ كذب » ، لكثرة النطاف في الناس^(٤) ،

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والحلق ، والسجية .

(٣) في الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطاف : بالتحريك : التلطف بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار
نهت عن كلفة الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت
عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للمعذر على حقيقة وإن أظهر
القبول ، لما جرب من سخاء الناس ^(١) بالأيمان ، وبعدم من الإقرار بالذنب
ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيجئ على المعتذر - إن كانت في نفسه
قيمة - أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يحده عذرا ، ولا يجعل إلى التين ^(٢)
وهو لا يحده للحجة مكانا .

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سقطته ،
وابقاء سلطانه .

والمشقهون يتأولون في الإيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان التهمة ،
ويكرههم الفطنة ، سيما ^(٣) في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدم والمال ،
وحتك السر .

ولا حسم لهذا الداء إلا بأطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ
في الأعراض ^(٤) ، ويستسر بالفضيحة والبهت .

(١) في الأصل : « النفس » .

(٢) اللين : الكذب ، مان يمين . وفي الأصل : « المين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفي أساس البلاغة :
« ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويبلغ في دماهم » . والفعل من باب تنع ،
ووعد ، وورث ، ووجل . وفي الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجزء بعض النسخة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(١) . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكيه .

وكتب على بعض أبواب المدن بالسند^(٢) : احفظ رأسك .

وقال الأول : قد تصلّ التّصال إلى الإخوان فتُستخرج ، وأمثال التّصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرج أبداً .

وقال بهرام^(٣) ، وتسمع في الليل صوت طائر فتعدّاه بهيم وهو لا يراه ، إلا أنه تتبع الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطائر أيضاً لو سكت كان خيراً له !

وقيل : مائىء أحقّ بطول سجن من لسان^(٤) .

وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتم ؟ فيقتلن :

بخير إن تركتنا !

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ، ٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في رواية عن كتاب المختار : « بالسند » ، أى بالخط السند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن زردجرد ، ملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبني له الخورنق . قال للسعدي في التنبية والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعماد بن جبل : « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم ^(١) » .

وقال عيسى عليه السلام ^(٢) : « أعمال البر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقاً في غير ذكر الله فقد أَمَّا ، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سَهَا ، ومن كان صمته في غير تفكير فقد لها » .

فانظر بأي الأمرين قطعت عمرك ؟ أبا الحكة أم بالآغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أتى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ ^(٣) ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ^(٤) ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ^(٥) ﴾ . وصان عنه أسمع أهل الجنة وألسنتهم فقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ^(٦) ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت » .

وقال علي بن أبي طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار القرج ^(٧) » .

(١) في اللسان (حصد) : « أي ما قلة الأسنة ، وهوما يقطعونه من الكلام الذي لا خير فيه ، واحدها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جد » . وتكلم عليه في الترهيب والترهيب ٥ : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنين .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّامات في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكي عنه محرِّفاً فيضطرَّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إنما قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حُكي عنه شاهداً لمن وثق به ، وادعاء لتحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي بينة له ^(١) .

لكان ذلك من أكثر فضائل الصَّمت .

وربما ذكر رجلُ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكرُ إنما له ، لأنه قد يُدخله في باب تفضيم الذنب الحقيق والإغراء والتَّحريض ، فيسفك الدم الحرام ، أو يعظم الجرح الصغير . بل ربَّما ضحك وتبسَّم ، فأغرى وسرَّض ، وأثم وأوبق . قال بعض الشعراء ^(٢) :

فإن شئتُ أدنى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندي في سرٍّ
فإن أنا لم أمز ولم أنه عنكما ضحكتُ له حتى يَلجَّ ويسنثري
وقالت العرب ^(٣) : « من كُفي شرٌّ لقلقه وذَبَذبه وقَبَقبه فقد كُفي الشرَّ » .

وهذا بابٌ فولا أن تشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجود لمن طَلَبه ، وجملةٌ واحدةٌ فيها

(١) في الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ - ١٥
ومجالس ثعلب ١٧ - ١٨ وأمالى الرضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١ و ١٣ : ١٠
وجمع الجواهر ٣ والمجهر ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنما تختلف الألفاظ التي تجعل كسوة لثلك المعاني . وإلا فإنك إذا نظرت إلى جميع شُرور الدنيا وجدت أولها كلمة عارت فحقت حرباً عواناً^(١) ، كحرب بكر وتغلب ابني وائل ، وعبس وذيان ابني بغيض ، والأوس والخزرج ابني قَيْلَة ، والفجار الأول والثاني ، وعامة حروب العرب والمجم . وإذا تأملت أخبارَ الماضين لم تُخصِ عددَ من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه .

وليس العجب من أفصى سره إلى من ليس له بموضع ، ممن تقدمت معرفته وزالت الشكوك عنه في أمره ؛ ولكن العجب عين العجب من استنام سره إلى من لم تقدم معرفته ومن أنس إليه عن اللقاء واللقاءتين^(٢) ، دون معرفة المين والاسم ، والسبب والنسب ، فانخدع في أول وهلة وغبن عقله قبل أن يُبين دينه وماله ، وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ؛ فإن البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض السماوي وما خولته الأقدار سراً بعد اجتهد صاحبه رأيه ، وحيلته في طلب الخير . وصوابُ تدييره فيه أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً . وإنما الكربُ اللازم والدماءُ التياء ما اجتمع على صاحبه مع النتيجة والحاجة ، واللقص والثلة ، غمُ الندامة والأسف على ما فرط منه ؛ إذ كان الجاني على نفسه بيده .

(١) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) في الأصل : « اللقاء واللقاءتين » . وفي ط : « عن اللقاء واللقاءتين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللقاء » شرح الرضي للشافية ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكروه التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنّا نحتاج من هذا ومثله - متقدمنا ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول . وإلى هذا أجرينا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبٌّ وعقل ، لكن الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والحظ في هذا القول كله لمن عقله والآخذ به ، أوفرُ [منه ^(١)] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنه إنما يمتحن ثمرة الصواب ، ويختلف برّقه ^(٢) من صدق قوله بفعله ؛ فإن الحكمة قول وعمل ، وإنّا حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ؛ وحسن الصفة يزول بزواها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدتها - إلى أن يملأ القائل والسامع - يسيرة .

والأفعال الحمودة متصلة بالنفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذخور ^(٣) للأعقاب ، وحديث جميل ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كله توفيقُ الله وتسديده ؛ فإن القلوب في يده ، والخيرات مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء . القصير الرشاء السهل الطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما في الأصل .

تم كتاب كتان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله
وتأييده ، ومشيتته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين
الطاهرين وسلامه .

٤

كِتَابُ

فَخْرُ السُّودَانِ عَلَى الْبَيْضَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب نثر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ثان فلوطن النشرة في لندن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسي ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة في الأصل هي الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية يجعلها الرابعة في الأصل كانت سببا في تغيير أرقام الرسائل بالقص ، كما اضطررنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل في الرسالة المكررة ، وتبّت الأرقام التي بعدها على جوانب النسخة ، فبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ط) .

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من النسيء - أنك قرأت كتابي في حاجة^(١) الشرحاء للهجناء ، ورد الهجناء ، وجواب أخوال الهجناء ، وأنى لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان^(٢) . فاعلم حفظك الله أنى إننا أخرت ذلك متعمداً .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبت لك ما حضرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعي : قال الفزري عبد فزارة^(٣) وكانت في أذنه خربة^(٤) :
إن الوثام^(٥) يسترع في جميع الطمش^(٦) : لا يقرب العنز الضأن ما وجدت

(١) في ن ، س : « حكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص في الحيوان ٢ : ٢٤٠ - ٣٤١ محرفاً . وفيه « الغرير عبد بن فزارة » .

(٤) الخربة بالباء : ثقب شحمة الأذن ؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفي قول ذي الرمة :

كأنه حبشى يتنقى أترأ أو من معاشر في آذانها الحرب
وفي ن ، س : « خربة » ، والخربة بالناء تكون في الحديد من الناس والإبرة .
وانظر ماسياني في ص ١٩٨ .

(٥) في جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ماسياني من الكلام على الرجز الثاني . والوثام : الوقت .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

(١٢ - رسائل الجاهظ)

للماعز^(١)، وتنفّر الشّاء من المِغْلَب ولا تأنس بالخفّ^(٢).
وأشدّ أبو زيد النّحويّ:

* لولا الوثائم هلك الإنسان^(٣) *

وقال شداد الحارثي^(٤) - وكان خطيباً عloquentاً - : قلتُ لأمة سوداء بالبادية : لمن أنتِ يا سوداء؟ قالت : لسيد الحفّار يا أصلع . قال : قلت : أو لستِ سوداء؟ قالت : أو لست أصلع؟ قلت : ما أغضبكِ من الحق . قالت : الحقُّ أغضبكِ ، لا نستمح حتى تُرعب^(٥) ، ولأنّ تتركه أمثلُ .
وقال شداد : لقد كلّمتها وأنا أظنُّ أنّي أفي بأهل نجد^(٦) ، وما تزعّت عني إلّا وأنا عند نفسي لا أفي بأمتي .

وقال الأصمعيّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرّمة : قاتل الله أمة آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان المطر عندكم؟ قالت : غشنا ما شئنا^(٧) .

= عني بالطمش هاهنا الخلق من إسي ووحشي . والتزع : التسرّع وفي الحيوان : يسرع « وفي ن ، س : » ينزع « .

(١) في الأصل : « ما وجبت » ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت في س ، ن .
(٢) في الحيوان : « ولا تأنس » .

(٣) في الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه في المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب الصنف ٣٨٨ . وانظر للثل أساس البلاغة (وأم) وأمثال الميداني ٢ : ١١١ .

(٤) في الأصل : « وكان » ، صوابه في البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) في البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أي في الفصاحة ، ويقال وفي به ، أي عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس شعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أَنَّ لِقَابَ الْحَكِيمِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : ثَلَاثَةٌ لَا تَعْرِفُهُمْ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ : الْحَلِيمُ عِنْدَ الْقَضَبِ ، وَالشُّجَاعُ عِنْدَ الْخَوْفِ ، وَالْأَخُ عِنْدَ حَاجَتِكَ .
وَقَالَ لِابْنِهِ : إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَخَالِطَ رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَنْصَفَكَ وَإِلَّا فَاحْذَرِهِ .

وَلَمْ يَرَوْا ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ^(١) . وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا مَدْحُ اللَّهِ إِيَّاهُ وَتَسْمِيَةُ الْحَكِيمِ ، وَمَا أَوْصَى بِهِ ابْنَهُ .

وَمِنْهُمْ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(٢) ، قَتَلَهُ الْحِجَابُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَهُوَ ٧٨ و
ابْنُ تَعَمٍ . وَأَرَبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ الْحِجَابُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً .
وَكَانَ سَعِيدٌ أَوْرَعَ الْخَلْقِ وَأَنْتَقَامَ ، وَكَانَ أَعْظَمَ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَصْحَابُ
الْحَدِيثِ يَطْعَنُونَ فِي الَّذِي يَحْمِيهِ مِنْ قِبَلِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَتَّى يَحْمِيهِ .
[مِنْ^(٣)] سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَأَبُوهُ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَهُوَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ ،
وَقُتِلَ يَوْمَ قُتِلَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : كُلُّنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ : بِلَالُ بْنُ الْحَبَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعبود الأخبار ، والتمثيل والمخاضة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمه ، ولذا يقال في نسبه :
الأسدي الوالي ، وهي نسبة ولاد . قتلته الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست في الأمل .

رضي الله عنه : إن أبا بكرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا^(١) ، وهو ثلث الإسلام .
 ومنهم : مِهْجَع^(٢) ، وهو أَوَّلُ قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : الْقَدَاد^(٣) ، وهو أَوَّلُ مَنْ عَدَا بِهِ فِرْسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : وَحْشَى^(٤) قَاتِلُ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ . وَكَانَ يَقُولُ : قَتَلْتُ خَيْرَ
 النَّاسِ - يَعْنِي حِزَّةَ بَنِّ عَبْدِ الْمَطَّالِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ - يَعْنِي
 مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ .
 ومنهم : مَكْحُولُ الْفَقِيهِ^(٥) .

ومنهم : الْحَبِيقُطَانُ الشَّاعِرُ^(٦) ، الَّذِي كَانَ يُفَضِّلُ فِي رَأْيِهِ وَعَقْلِهِ وَهَمَّتِهِ .
 وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي الْإِخْوَانِ : لَا تَعْرِفُ الْأَخَّ حَتَّى تَرَافِقَهُ فِي الْخَصْرِ ، وَتُرَافَهُ
 فِي الشَّفَرِ .

(١) العُتْبَانِيَّةُ لِلْجَاحِظِ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَجِج » ، صَوَابُهُ فِي السِّبْرَةِ ٤٩٠ وَالْإِسَابَةُ ٨٢٥٥ وَمَحَاضِرَةُ
 الْأَوَائِلِ لِلسَّيْمُونِيِّ ٤٨ . وَهُوَ مَوْلَى عُمَرَ ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : « وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ
 السَّلَاحِيِّينَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ » .

(٣) الْقَدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ ، كَانَ أَبُوهُ عَمْرُو بْنُ ثَعْلَبَةَ حَلِيفًا لِسُكْنَدَةَ
 فَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ امْرَأَةً فَوَلَدَتْ لَهُ الْقَدَادَ ، فَلَمَّا كَبُرَ الْقَدَادَ وَقَعَ شَرِيْبَتُهُ وَبَيْنَ أَبِي شَمْرٍ
 الْكِنْدِيِّ فَضْرِبَ رَجُلُهُ بِالسِّيفِ وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ خَالِفَ الْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَقُوْثَ
 الزُّهْرِيَّ ، وَتَبَنَّى الْأَسْوَدَ فَضْرِبَ بِهِ أَوَّلًا ، فَلَمَّا نَزَلَتْ « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » رَجَعَ إِلَى
 نَسَبِهِ فَقِيلَ لِلْقَدَادِ بْنِ عَمْرُو . تَوَفَّى فِي خِلَافَةِ عُبَيْدَانَ سَنَةَ ٣٣ . الْإِسَابَةُ ٨١٧٩ .

(٤) وَحْشَى بْنُ حَرْبٍ الْحَبَشِيُّ ، مَوْلَى بَنِي تُوَيْلٍ .

(٥) يَدُوْ أَنَّهُ مِنْ سُوْدَانَ النُّوْبَةِ ، فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ أَنَّهُ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْ هَذِلٍ
 مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَأَعْتَقَهُ . وَيُقَالُ كَانَ مِنَ الْفَرَسِ ، وَاسْمُ أَبِيهِ سَهْرَابٌ . تَوَفَّى سَنَةَ ١١٢ .

(٦) ذَكَرَهُ فِي الْبَيَانِ ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قَالَ الْجَاحِظُ : « وَكَانَ خَطِيْبًا
 لَا يَبْأَرِي » . وَأَصْلُ مَعْنَى الْحَبِيقُطَانِ طَائِرُ الدَّرْعِاجِ ، أَوْ الذِّكْرُ مِنْهُ .

ومنهـم : جُلَيْبِيبٌ^(١) الذى نَعَدْتُ الرُّوَاةُ أَنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج فى غَزَاةٍ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَعْدُ فُلَانًا وَفُلَانًا . ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَعْدُ فُلَانًا وَفُلَانًا . ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا فى الثالثة : لا . قَالَ : لَكِنِّى أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا ، اطْلُبُوهُ . فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ بَيْنَ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قُتِلَ . فَقَالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم : « قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ . هَذَا مِئى وَأَنَا مِنْهُ » . قَالَ : ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ حَتَّى حَضَرُوا لَهُ ، مَا لَهُ سَرِيرٌ غَيْرَ سَاعِدَيْ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قَالَ : وَلَمْ يَذْكُرُوا غُسْلًا .

ومنهـم : فَرَجُ الْحَجَّامِ^(٢) وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِدَالَةِ ، وَلِلْقُدَّامِينَ فى الشَّهَادَةِ . ٧٩ ظ
أَعْتَقَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ خَدَمَهُ دَهْرًا يُصْلِحُ شَارِبَهُ وَلَحِيتَهُ وَيَسْبِيتُهُ ، فَلَمْ يَرَهُ أَخْطَأَ فى قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ ، فَقَالَ : وَاللهِ لَأَمْتَحِنَنَّه ، فَإِنْ كَانَ مَا أَرَى مِنْهُ عَنْ تَدْبِيرٍ وَقَصْدٍ لَأَعِثَّنَّه وَلَأَزْوَجَنَّهُ وَلَأَغْنِيَنَّهُ . وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ عَرَفْتُ الصَّنْعَ فِيهِ . فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَحْجِمُهُ : يَا غُلَامُ ، أَعْتَجَمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : وَمَتَى ؟ قَالَ : عِنْدَ الْحَاجَةِ . قَالَ : وَتَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَعْرِفُ أَكْثَرَهُ وَرَبُّمَا غَلِطْتُ . قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ نَأْكُلُ ؟ قَالَ : أَمَّا فى الشَّتَاءِ

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل فى قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إليها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر فى الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فذا كبراه^(١) خاتمة حلوة . وأما في الصيف فسكباجة حامضة عذبة^(٢) . فبلغ به جعفر بن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون^(٣) :

خُلُوا الطَّرِيقَ زَوْجِيَّ أُمَامِي أَنَا حَمِيمُ فَرَجِ الْحَبَشِ **سَامِ**^(٤)

قال : وبلغ من عدالته ونبله في نفسه وتوقيه وورعه ، أن مواليتيه من ولد جعفر وكبار أهل الميرد ، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحفيظان فقال قصيدة تحتج بها البمانية على قريش ومضر ، ويحتج بها المعجم والخبش على العرب ، وكان جرير رآه يوم عيد في قبض أبيص وهو أسود ، فقال :

(١) كذا . وفي الحيوان : « فديعبرضة » . وفي كتاب الطبخ للبغدادى ١٢ « ديكريكة » . قال : « وصنعها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك في القدر ، ويلقى عليه سیر ، ملح وكف حصص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر وورى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعماً ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل مسكر » . وذل يحققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الحلية ، والثقلة ، والصنصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحياناً الزعفران والذباب . انظر صنعة في كتاب الطبخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضاً في الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم في الفهرست ٢٣٣ في جماعة من الشعراء الثقاتين وقال « أبو فرعون الشاشي . ثلاثون ورقة » . يعني أن شعره في ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره في طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) في الأصل : « أنا حمام » . صوابه في الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للناس أير حمار ألف في قرطاس^(١)
 فلما سمع بذلك الحيطان وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :
 لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم^(٢)
 فإني لست بالكف والعرض أزه^(٣)
 وإن سواد اللون ليس بضائر
 إذا كنت يوم الرّوع بالسيف أخطر
 فإن كنت تبغى الفخر في غير كنه
 فرحط النجاشي منك في الناس أنثر^(٤)
 تأتي الجندى وابن كسرى وحارث
 ومودة القبطي والشيخ قيسر
 وقار بها دون الملوك سادة
 فدام له تلك النبع للوفر
 ولقمان منهم وابنه وابن أمه
 وأبرهة الملك الذي ليس بunker
 غزاكم أبو يكسوم في أم دارم
 وأتم كقيس الرمل أو هو أكثر^(٥)

٨٠ و

(١) لم يرد البيت في ديوان جرير .

(٢) أزه : أبيض نقى . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) القيس : العدد الكثير ، يقال : إنهم لقي قيس الحصى . وقال السكيت :

لهم مسجدا الله الزوران والحصى لهم قيسه من بين أرى وأقرا

وفي الأصل : « قيس » ، تحريف .

وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ لَنَا، لَمَّا هَوَىٰ مَا بِبَاقِعَةٍ ، حُجْنُ الْحَالِبِ أَكْثَرُ^(١)
 فَوَ كَانَ غَيْرُ لَقِّهِ رَامَ دَفَاعِهِ عِلَّتْ وَذَوِ التَّجْرِبِ بِالنَّاسِ أَخْبَرُ^(٢)
 وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا أَنْ تَبْتَغُوا إِزَاءَهُ وَأَنْتُمْ قَرِيبٌ نَارَكُمْ تَنْسَعُرُ
 وَيَدْفَعُ مِنْكُمْ فَائِدَ ذُو حَفِيفَةِ نَكَاسُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَذْبُرُ
 فَمَا لَنِي قَلَمٌ فَتَلَمَّ خَلْصُكُمْ نَبْوَةً وَلَيْسَ بِكُمْ ضَوْنَ الْحَرَامِ الْمَنَرُ^(٣)
 وَقَلَمٌ لَقَّاسُخٌ لَا تَوْدَىٰ إِنَاوَةً فَأَعْطَاهُ أَرْبَابَ مِنَ الْفَرِّ أَيْسَرُ^(٤)
 وَلَوْ كَانَ فِيهَا رَغْبَةٌ لَمُتَّوِجٌ إِذَا لَأَنْتَهَا بِالْقَاوِلِ حَمِيرُ^(٥)
 وَلَيْسَ بِهَا مَشَى وَلَا مَتَصِفٌ وَلَا كَبْجُؤَانًا مَاؤُهَا يَتَغَبَّرُ^(٦)

(١) حجن الحالب ، أى حجن محال به . وهـ آل « بدل من التدمير . والحقين : جمع أحجن ، وهو العوج . وفي الأصل : « حجر » تحريف .
 (٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفع خرهم . فأتت لو حاولت هذا الدفاع غلت عاقبة ذلك .

(٣) أى حين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لمة فى صين ، وهى لمة بنى قنص وبنى دبير ، كما فى قوله :

• لَيْتَ شَبَابًا بَوَّعَ فَاشْتَرَيْتَ •

وقلتم ، لعلها « تلتم » .

(٤) اللقاسخ ، كسحاب : انقوم لم يدينوا للبلوك ولم يصيبهم فى الجاهلية سباب . والأرباب ، بالنسخ : الخراج والإناوة . كما فى اللسان (أرى) . وفى ن : س : « أرباب » بالياء ، وليس بشئ . فإنه يعنى العربون . وأراد : أيسر من الفر .

(٥) فى الأصل « لانها » بهذا الإعمال . والقاول : جمع مقول ، بالسكس ، وهو القيل للثقل من ملوك حمير .

(٦) جؤانا ، ويقال جؤاناء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ للعَيْنِ أو متغصنٌ ولكنَّ تَجَرًّا ، والتجارةُ تُحَقَّرُ
أَلَيْسَ كُنُيًّا وَأَمُّكَ نَمِجَةٌ لَكُمْ فِي سَمَانِ الصَّانِ عَارٌ وَمَغْفَرٌ
أَمَا قَوْلُهُ :

نَأْبَى الْجَلَنْدَى وَابْنُ كَسْرَى وَحَارِثُ

وَهُوَذَةُ الْقِبْطِيُّ وَالشَّيْخُ قَيْصَرُ

فإنه يقول : كتبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بني الجَلَنْدَى^(١) فلم يؤمنوا
وكذلك كَسْرَى ، وكذلك الحارث بن أبي تَمِرٍ ، وكذلك هُوَذَةُ بن علي الحَفَاقِ ،
وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية ، وكذلك قَيْصَرُ ملك الروم .
على أنَّ بني الجَلَنْدَى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ، ولكنَّ النَّجَاشِيَّ
أسلم قبل الفتح ، فدام له ملكه ونزع الله من هؤلاء النعمة . وقصر إن كان
قد بقي من ملكه شيء فقد أخرجوه من كلِّ مكانٍ يبلغه ظِلْفُ أو حافر ،
وصار لا يتنعم إلا بالخليج وبالعباب والحصون^(٢) وبالثناء والتلوج والأمطار .
ونفَرَ بَلْقَانُ وابنه .

وَأَمَا قَوْلُهُ :

غَزَاكُمْ أَبُو بَكْسُومَ فِي أُمَّ دَارِكَمَ

وَأَنْتُمْ كَقَيْصِ الرَّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ^(٣)

(١) وكذا ورد في أصول الحيوان ١ : ٩٨ . والمعروف أنهما ابنا الجَلَنْدَى ،
في السيرة ٩٧١ : « وبث عمرو بن العاص السهمي إلى حيفر وعياذ ، ابني الجَلَنْدَى
الأزديين ملكي عمان . ومثله في الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العباب : جمع عبة وهي الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) في الأصل : « كَقَيْصِ الرَّمْلِ » وانظر ما سبق في حواشي ١٨٣ .

فأبته يعني صاحب الدبل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرَّمْل ، فلمْ فررتمْ منه ولمْ يبقه أحدٌ منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أمُّ القرى ، ودارُ العرب ، هي جزيرة العرب ، ومكة قريبةٌ من قراها ، ولكن لما كانت أقدمَها قِدَمًا ، وأعظمَها خطرًا ، جُعِلَتْ لها أُمَّا . ولذلك قيل لفتح مكة : فَتَحَ الفُتُوح . وعلى منسل ذلك سُمِّيَتْ فاتحةُ الكتاب : أمُّ الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أمًّا ما لم يَلِدْ . من ذلك قومهم : ضربته على أمِّ رأسه ، وكذلك أمُّ الهاوية^(١) . والضيف يسمى ربةً منزله أمِّ مثنوى .

وقال أعرابيٌّ وقد أصابته براغيثٌ عند اسمائه كان نزل بها^(٢) :

يا أمِّ مثنوى عِدِمَتْ وجهك أَفَدَنِي رَبُّ الْعَالَا مِنْ مِصْرِكَ
وَلَفِيعُ بُرْغُوثٍ أَرَاهُ مِنْهَا يَكِي أَيْتُ لَيْلِي دَائِبَ التَّحَكُّكِ^(٣)

• تحكك الأجرع عند الثبرك •

وقد أبان الله تعالى مكةَ والبيتَ حين قال : ﴿ إِنِّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ^(٤) ﴾ .

(١) كذا وفي الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمه هاوية ، أي أم رأسه نهري في النار ، قال ابن جري : لو كانت هاوية اسماعيلًا لثار لم يصرف .

(٢) الجزء التالي في الحيوان : ٣٩١ .

(٣) في الحيوان : « دأبم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

يقول : فإذا غزيت - وهي أم القرى وفيها البيت الحرام الذي هو
شرعكم - فقد غزيت جميعكم^(١) .
وأما قوله :

وأما التي قُتِلَتم فتلكن نسوةً وليس بكم صونَ الحرامِ السَّترِ
[وقُتِلَتم لَقاحٌ لا يُؤدِّي إناوةً فإعطاء أريانٍ من القرأيسر^(٢)]
فالتَّلقاح : البلد الذي لا يُؤدِّي إلى الملوك الأريان^(٣) . والأريان : هو
الخراج ، وهو الإناوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :
أَبْوَا دِينَ المُلُوكِ فَهَمَّ لِقَاحٌ إِذَا نَدَبُوا إِلَى حَرْبٍ أَجَابُوا
قال : قُتِلَتم إنا لِقَاحٌ ولنا نُؤدِّي الخراج والأريان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهون من الفرار وإسلام الدار وأنتم مثل عددٍ من
جاءكم المرازِ الكثيرة .
وأما قوله :

وليس بها مشى ولا متصيف ولا كبسواناً ماؤها يتفجرُ
يقول : ليس في الفلحة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن
وغيرهم . وليس بها مشى ولا متصيف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفّون
بجُدّة . وجؤاننا : عين بالبحرين . وليس بمكة شيء يداني ذلك .

(١) في الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت في الأصل ، والكلام الثاني يتعلق به .

(٣) انظر ما سبق في الحاشية الرابعة من ص ١٨٥ . والكلمة واضحة في الأصل
بإياء اللتاة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعين أو متنعس ولكن تجراً والتجارة تُعجز
يقول : ليس بها متنزّهات ، وصيدها حرام ، وإنما بها تجار والتجار
يُعقرون . يقول : هم عند الناس في حد الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي
به يتعيشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنواصب الملوك^(١) ، وهم قوم^(٢)
ليس عندهم امتناع . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهليّ :
ورقاً سبأتُ لدى متجر أسبود كالرجل الأسحم^(٣)
ضربتُ بـفـيـه على نحره وقائمه كبد الأجدم
إلى التاجر العربيّ الشحم^(٤) ح أو حردى النطف الطمطم^(٥)
أراد بهذا كله قريباً^(٦) . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا
خرجوا عاقموا عليهم القتل وساء الشجر^(٧) حتى يفرغوا فلا يقتلهم أحد .

(١) حتى حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النابة ما يئوب الإنسان أى ينزل به من
الهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف النخعي ، وهو ابن أبي حارثة المري . ترجم
له المرزباني في معجمه ٣٩٢ وذكر له آياتاً أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع في ن . س : « ورق » ، تحريف . وارتق : السقاء ، وهو أيضاً
مانقل فيه الحمر . وسبأ الحمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحم : البخيل ، يعنى أنه ينفق في ثمن الحمر . والنطف : بالتحريك جمع
نطفة . وهى القرط . ذل الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقاص أسدل السربال معتدل
والطمطم : الأعجمى الذى لا يفصح .

(٥) فى الأصل ، ون ، س : « قريش » .

(٦) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « السمر » . هذا وليس فى نص الشعر
التقدم ما يقتضى هذا التفسير من تعليق القتل وساء الشجر .

وأما قوله :

أهتَ كليليّا وأثكُ نعمةً لكم في سِمان الضّان عازٍ ومفخرٍ
فإنّ بنى كليبٍ يرْمونَ ياتيان الضّان ، وكذلك بنو الأعرج ، وسليم .
وأشجعُ تَرْمى ياتيان التّمز .

وقال النّجاشي :

ولو شتمتني من قريشٍ قبيلةً سيوى ناكّةٍ المِعزى سليمٍ وأشجعُ
وقال الفرزدق :

ولستُ مضحّكاً مادمتُ حيّاً بشاةٍ من حَلَويةٍ أعرجى^(١)
فما أدري إذا أنفقتُ مالى لعلّ الشاةَ تُبَقّرَ عن صبي^(٢)
وقال الآخر :

إذا أحببتُ أنْ تُنْلي أناثاً فذلّ الدارميّ على شِراها
يُقبّلُ ظهرَها ويسكاد لولا قُحول الظّهر يدنو من قفاها
وودّ الدارميّ لو أنّ فاه إذا نال الحمارَ نال فاه^(٣)
وقال عبد بن رشيد :

قبيلةٌ سوّه خَيْرُهم مثلُ شرّهم ترى منهم للضّان خلاً وراعياً
إذا جُلّيتُ فيهم أعروسٌ لبعليها ترى النّعمةَ البَقعاء أبكى البواكيا^(٤)

(١) البينان مالم يرو في ديوان الفرزدق .

(٢) بقّر : يشق بطنها . وفي الأصل : « تبرع » .

(٣) في الأصل ، س « الحمار ينال » ، وفي ن : « نال فاه » ، والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « عروما » .

ولذلك قال الأخطل :

فَاتَّقِ بَضَانِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَتْنُكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ خِلَالًا^(١)

ولذلك قال الحقيقطان :

أَلَسْتَ كُلَيْبِيًّا وَأُمُّكَ نَعْجَةٌ لَهَا فِي سِمَانِ الْعَصَانِ عَارٌ وَمَنْغَرٌ

أَمَّا الْعَارُ فَالَّذِي شَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ النَّعَاجِ . وَأَمَّا الْمَنْغَرُ يَقُولُ : إِذَا فَخَّرُوا نَحَرُوا بِالنَّشَاءِ ، وَلَا يَبْلُغُونَ إِلَى حَدِّ الْإِبِلِ .

ومن مفاخر الشودان والزيّج والحيفش مع ما ذكرنا من قصيدة الحقيقطان ، أن جرير بن الخطمي لما هجا بني تغلب^(٢) قال :

لَا تَطْلُبُنَّ خَوْلَةً فِي تَنَاقِبِ فَالْزَيْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا^(٣)

غَضِبَ سَمِيعُ بْنُ رِيَّاحٍ^(٤) شَارَ^(٥) ، فَهَجَا جَرِيرًا ، وَغَرَّ عَلَيْهِ بِالزَيْجِ فَقَالَ :

مَا بَالُ كُلَيْبٍ مِنْ كُلَيْبٍ سَبْنَا أَنْ لَمْ يُوزَنْ حَاجِبًا وَعِقْلًا^(٦)

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نق) . وفي الأصل « فأنعم » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والسكال ٥١٤ .

(٤) في السكال ٥١٤ : « رباح بن سميع الزنجي مولى بني ناجية » . ويقال أيضا رباح بن سميع ، وسبيع بن رباح ، كما في اللسان (طول) . وقال ابن الأثير في السكال ٤ : ١٦١ في ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وحملوا عليهم رجلا اسمه رباح ، ويلقب شيرزنجي ، يعني أمد الزنج » .

(٥) في الأصل « سار » ، وإهجمه ثما سيائي . وفي الحيوان ١ : ٢٧٠ : « السارنجي » . وفي ٧ : ٢٠٥ : « السارزنجي » .

(٦) في الأصل : « توازن » ، صوابه في السكال واللسان . يعني جريرا =

إِنَّ امراً جَمَلَ المِرافَةَ وابْنَهَا مثلَ الفرزدق جائر قد فالاً^(١)
 والزَّيْجُ لو لا قِيَتَهُم في صَفِّهِم لا قِيَتَ تَمَّ جَحاجِجاً أبطلأ
 فسَلَّ ابنَ عمرو حين رامَ رماحَهُم أَرأى رماحَ الزَّيْجِ تَمَّ طَوالاً
 لَجَمَعُوا زِياداً بَينَهُ وتَنازَلُوا لَمَّا دُعُوا النَّزَالِ تَمَّ نِزالاً^(٢)
 ومَرَبُطِينَ خِيولَهُم بِفِئائِهِم وَرَبَطَتْ حَوْلَكَ شَيْباً وَسِخالاً^(٣)
 كانَ ابنُ نَدْبَةَ فيكُمُ من نَجَلنا وخُفَّافٌ لَتَحُلُّ الأثقالا
 وابناً رُبَيْبَةً عَنزَةً وهَراسَةً ما إِنْ نَرى فيكُم لَهْمُ أمْشالاً
 سَلَّ ابنُ جَيْفَرٍ حينَ رامَ بلادنا فرأى بِغزوتِهِم عليه خَبالاً
 وَسَلَّكَ الأيْثُ الهِزْبُ إِذا عَدَا والقَرْمُ عَبَّاسٌ عَولَكَ قَعالاً
 هَذَا ابنُ خازِمِ ابنِ عَجَلَى مِنْهُمُ غابَ القَبائِلُ نَجْدَةً ونَوالاً
 أَبْناهُ كُلٌّ نَجْبِيَّةٌ لَنَجْبِيَّةِ أَشَدُّ تَرْبَبٌ عِنْدَها الأَشْبالا
 فَلَنَحْنُ أَنْجَبُ من كَلِيبٍ خُوْلَةٍ وَلَأَنْتَ أَلَمُ مِنْهُمُ أَسْوالاً
 وَبَنُو الحُجَابِ مَطاعِنٌ وَمَطاعِمُ عِنْدَ الشَّاءِ إِذا تَهَبُّ شَمالاً^(٤)

== وجاء في قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) غطاطياً لجرر :

مَتَكَ نَفْسَكَ أَنْ تَسْكونَ كِدَارِمَ أو أَنْ تَوَازِنَ حَاجِباً وَعَقالاً

وحاجب هو حجاب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من رَهْطِ الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صمصمة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) للمرافة : الأثان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما في القاموس . قال ، بالفاء : أخطأ رأيهُ وضعف . وفي الأصل : « قلا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كيد : جمع شاة . وفي الأصل : « اشأا » تحريف .

(٤) في الأصل : « الحنات » ، ولكن تعقيب الجاحظ فيها بعد ، يعين أنه

« الحجاب » .

أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرو التَّمَكِّي ،
كان خليفة أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلَبَ رِيَّاح شار الزَّنجي^(١)
على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زياد فقتله رِيَّاحٌ وقتل أصحابه
واستباح عسكره .

وأما ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جيفر بن عُباد بن جيفر بن الجُلندى .
كان غزا بلادَ الزَّنج فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزَّنجيات حين تَزَعُوا إلى الزَّنج في البَسالة والأثفة^(٢) .
فذكر خُفاف بن نَدْبَة ، وعَبَّاس بن مِرْدَاس ، وأبْنَى شَدَاد : عنترَة القوارس
وأخاه هَرَّاسَة ، وسُلَيْك بن السَّلَكَة . فهؤلاء أَسَدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً
وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضْرَبُ المثل .

ومنهم : عبدالله بن خازيم السَّكِّي ، وبنو الحباب : عُمر بن الحباب وإخوانه^(٣) .

وكان أيضاً منهم : الجَحَاف بن حَكِيم^(٤) .

٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون بِرِيَّاح أخى بلال وحاله وصلاحيه .

ويفخرون بعاصم بن فُهيرة^(٥) ، بدرىَّ اسْتُشْهِدَ يومَ بئر مَعُونَة ، فرآه

الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق في حواشى ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبي بكر الصديق ، ولما جاء في نسبه التيمى . انظر الإصابة

٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فُهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه

أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكانه أزدى وتيمى .

ومنهم : آل ياسر^(١) .

قالوا : ومنّا الغدّاف صاحبُ عبّيد الله بن الحرّ . لم يكن في الأرض أشدّ منه : كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحُمّة والخفراء .

وكتبويه صاحب المغيرة بن الفزّر ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنّا مريخ الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قديم من الشام أيام قُتَيْبَة بن مسلم ، وكان لا يُرام لقاءه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنّا المغول وبنوه ، وهم من الخول ، ليس في الأرض أعرف^(٢) ولا أقف ولا أعلم بالبادية منهم .

قالوا : ومنّا أفاح ، الذي قطع على القوافل بغراسان وحده عشرين سنة . قالوا : وإنّا قتله مالك بن الرّيب ، لأنّه وطنه في جوف الليل وهو سكران خائر^(٣) . والشاهد على قولنا قول ابنه :

أَمَّا لِكُ لَوْلا الشُّكْرِ أَيقَنْتَ أَنَّهُ

أَخُو الْوَرْدِ أَوْ يُرِي عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ^(٤)

قالوا : ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لكّن الحبشة إلى مكّة ،

(١) كان منهم عمار بن ياسر حليف بني غزوم . وكانت أم عمار مولاة لهم يقال لها سمية . الإصابة ٥٦٩٩ .

(٢) في الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خائر النفس ، أي ثقلها غير طيب ولا نشيط . وذلك من أثر الحمار . في الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ما أثبت .

(٤) الورد : ماثونه الوردة بالضم ، وهي حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

(١٣ - رسائل الجاحظ)

وَجَرَّتْ^(١) أَحْكَامُنَا فِي ذَلِكَ أَجْمَع . وَهَزَمْنَا ذَا نُؤَاسٍ ، وَفَتَنَّا أَقْيَالَ حَمِير .
وَأَنْتُمْ لَمْ تَمْلِكُوا بِلَادَنَا . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَحُزِرَبْ عُحْدَانَا وَهَدَمَ سَقْفَهُ

رَبِطًا بِأَجْنَادٍ وَصُولُهُ قَهْشَرٌ^(٢)

أَمْلَافَتْ بِهِ الْأَجْبُوشُ لَيْلًا فَقَوَّضُوا

بِنَا شَدَّهُ الْأَقْيَالُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ^(٣)

يَجْمَعُ مِنَ الْيَكُومِ سُودٌ كُنْتُمْ

أَسُودُ الشَّرَى اجْتَابَتْ جِلُودًا مِنَ الشُّرَى^(٤)

فَالُوا : وَمَنَا كَبَاجِلَا ، لَمْ يَصُدْ نَهْرُ سَلْيَانٍ وَلَا قَاتِلٌ فِي الْخَارِجَاتِ^(٥) أَحَدٌ
قَطُّ يَشْبُهُ .

(١) ن . س : « ومرت » .

(٢) رباط ، يعنى به أرباط الحبشى . وفى السيرة ٢٦ : « وبينون و سلعين
وعمدان من حصون اليمن الى هدم أرباط ، ولم يكن فى الناس مثله » . وانقار الإكليل
للهمداني ٨ : ٣٩٥ . وفى الأصل وسائر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفى البيت
إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبشى . والبنا : مقصور البناء . وفى ن . س : « بنا شدة »
تحريف .

(٤) اليكوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل فى ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ
كان يكنى أبا يكوم . ويكوم اسم ابنه كما فى التقيى والإشراف ص ٢٢٩ . والسيرة
٤٢ . وفى ذلك بقول لبيد ، وهو يعنى أبرهة ، كما فى اللسان (كم) :
لو كان حى فى الحياة مخلفا فى الدهر ألفاء أبو يكوم
(٥) يعنى بها البارزات ، وهو أن تخرج كل من الفارسين لصاحبه فيأرزوه .

قالوا : وَمِنَّا الْأَرِمُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا بِالْفُرَاتِ أَيَّامَ سَوَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي ، فَأَجَلُّوا أَهْلَ الْفُرَاتِ عَنْ مَنَازِلِهِمْ ، وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِ الْأُبَلَّةِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً .
قالوا : وَمِنَّا الَّذِي ضَرَبَ عُنُقَ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرِ بُشْمَانَ ، بِتَجْعَلٍ بِحَرَّافِي^(١) ،
بَعْدَ أَنْ لَمْ يَجْسُرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

قالوا : وَالنَّاسُ يَجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَمْتٌ السَّخَاءُ فِيهَا أَعْمُ ،
وعليها أغلب من الرُّنَجِ . وَهَاتَانِ الْخَلَّتَانِ لَمْ تَوْجِدَا قَطُّ إِلَّا فِي كَرِيمٍ .
وهي أطبع انْتَلَقَ عَلَى الرَّقْصِ لِلْوَقْعِ لِلْمُوزُونِ ، وَالضَّرْبِ بِالطَّبْلِ عَلَى
الْإِقَاعِ لِلْمُوزُونِ ، مِنْ غَيْرِ تَأْدِيبٍ وَلَا تَعْلِيمٍ .
وليس في الأرض أَحْسَنُ خُلُوقًا مِنْهُمْ . وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ لَمَةً أَخْفَى عَلَى
الْإِنْسَانِ مِنْ لَعْنَتِهِمْ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ أَذْرَبُ أَلْسِنَةً ، وَلَا أَقَلُّ تَعْلِيمًا مِنْهُمْ .
وليس في الأرض قَوْمٌ إِلَّا وَأَنْتَ تَصِيبُ فِيهِمُ الْأَرْتَ وَالْقَافَا ، وَالْقَيْسِي^(٢) ،
وَمَنْ فِي لِسَانِهِ حُبَّةٌ ، غَيْرِهِمْ .

والرجل منهم يَخْطُبُ عِنْدَ الْمَلِكِ بِالرُّنَجِ مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى
غُرُوبِهَا ، فَلَا يَسْتَعِينُ بِالتَّفَاتَةِ وَلَا بِسَكْنَةِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ .
وليس في الأرض أَمْتٌ فِي شِدَّةِ الْأَبْدَانِ وَقُوَّةِ الْأَسْرِ أَعْمُ مِنْهُمْ فِيهَا^(٣) .
وإنَّ الرَّجُلَ لَيَرْفَعُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ الَّذِي تَمَيِّزُ عَنْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ .
وهم شجعاء أشدَّاء الْأَبْدَانِ أَسْخِيَاءَ . وَهَذِهِ هِيَ خِصَالُ الشَّرَفِ .

(١) البحرائ : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذي في لسانه عقدة وحبة ، يعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) في الأصل : « فيها » .

[والزنجي^(١)] مع حسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه أبداً إلا ملتبس النفس ، تحوُّك السن ، حسن الظن . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولتقصير روياتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بش ما أنبئتم على السخاء والأثرة ، وينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبجل الناس بُحلاً وأقلهم خيراً . وقد رأينا الصَّالِبَةَ أبجل من الزُّوم ، والزُّوم أبعد روبةً وأشدُّ عقولاً . وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصَّالِبَةُ أسخى أنفساً وأصحَّ أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً ، والصَّيَّانَ أضعف عقولاً منهم ، وهم أبجل من النساء ، والنساء أضعف عقولاً من الرجال . ولو كان العقل كلما كان أشدَّ كان صاحبه أبجل ، كان ينبغي أن يكون الصبيُّ أكرم الناس خصالاً^(٢) . ولا نعلم في الأرض شراً من صبيٍّ^(٣) : هو أكذب الناس وأنتمُ النّاس ، وأشرُّ النّاس وأبجل النّاس ، وأقلّ النّاس خيراً وأفسى النّاس قسوةً .

وإنما يخرج الصبيُّ من هذه الظلال أولاً فأولاً ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجليّة .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ن : ه خلا ه خلافا لما في الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيران ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلة العقل هو سبب سخاء الزنج ، وقد أقررتم لهم بالسخاء ثم ادّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقفناكم على إحداض حجّكم في ذلك بالقياس الصحيح !

وهذا القول يوجب أن يكون الجبان أَعْقَلَ من الشجاع ، والغادر أَعْقَلَ من الوفي . وينبغي أن يكونَ الجَزُوعُ أَعْقَلَ من العُشُور . فهذا ما لا حُجَّةَ فيه لكم ، بل ذلك هبةٌ في الناس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخلق هبةٌ ، والسخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزنج للعرب : من جهلكم أنكم رأيتونا لكم أكفاه في الجاهلية في ناسكم ، فمّا جاء عدلُ الإسلام رأيتُم ذلك فاسداً ، و [ما^(١)] بنا الرغبة عنكم^(٢) . مع أن الباديةَ مثا ملاي^(٣) ثمّ قد تزوج ورأس وساد ، ومنع الدّمار ، وكنتفكم من العدو .

قال : وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمت أمرَ ملوكنا ، وقد متموم في كثير من اللواضع على ملوككم . ولو لم تزوّا الفضل لنا في ذلك عليكم لَمّا فعلتم .

وقال الثّور بن قلوب :

أني ملكه ما أتى تُتغى وأبرهة الملك الأعظما^(٤)

فرقه على ملوك قومه .

(١) ليست في الأصل .

(٢) في ن : « وبنا الرغبة عنكم » ، وفي س : « وبنا الرغبة عنا »

(٣) في الأصل ون : « ملا » ، والوجه ما أثبت مطابقة لتصرف ناسر س .

(٤) العيني ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المعنى للسيوطي ٧٦ والحزانة ٤ : ٤٣٨ .

وبروي : « فأدركه » .

وقال ليبد بن ربيعة :

لو كان حياً في الحياة مخلداً في الدهر أدركه أبو بكسوم^(١)
وهذا شيء من وصف القفيل لم يوصف أحد مثله .
قالوا : ومما^(٢) قدّمتم به ملوكنا على منكم قوله^(٣) :

غلب الليالي خلف آلٍ تحرق وكما فعلان يتبع وبه زقل
وغلبن أبرهة الذي ألقى قد كان خلف فوق غزفة موكل^(٤)
قدّم أبرهة وأراد النسوية^(٥) .

٨٤ و

قالوا : ومن الحليسة عكيم الحبشي^(٦) ، وكان أفصح من العجاج . وكان
علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع بن نبهان .
وكان المنتجع سدياً في أذنه خربة^(٧) ، وقع إلى البادية وهو صبي ، ففرج
أفصح من رؤية .

(١) أبو بكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشي . انظر ما سبق في حواشي ص
١٩٤ ديوان ليبد ٨٣ . أدركه أي أدرك التخليد .

(٢) في الأصل : « وما » .

(٣) يعني قول ليبد . انظر ديوانه والإكبل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ ، والتيجان ٧٦ .
وفي الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن . كما في معجم البلدان . وانظر صفته في
الإكبل ٨ : ١٠٦ .

(٥) معنى النسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والخارث الحراب أمسى قطننا داراً أقام بها ولم يتعادل

(٦) انظر القاموس (عكم)

(٧) انظر ما سبق في ص ١٧٧

ولما^(١) قال حَكِيمُ بْنُ عَيَّاشٍ الْكَلْبِيُّ^(٢) :

لَا تَفْخَرَنَّ بِجَالٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَإِنَّ أَكْرَمَ مِنْهَا الرَّجُلُ وَالشُّوْبُ

اعترضَ عليه^(٣) عُنْكَيمُ الْحَبَشِيُّ ، فقال :

وَبِیَوْمِ عُثْدَانَ كُنَّا الْأَسَدَ قَدْ عَلِمُوا

وَبِیَوْمِ يَثْرِبَ كُنَّا فِخْـلَةَ الْعَرَبِ

وَلِیْلَةَ الْفِيلِ إِذْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ

وَكُلُّهُمْ هَارِبٌ مُسَوِّفٌ عَلَى قَتَبِ

مَنَا النَّجَاشِيِّ وَذُو الْعَقَصِينَ صِهْرَكُمُ

وَجِدُّ أِبْرَهَةَ الْحَامِي أَبُو طَلَبٍ^(٤)

هَبْنِي غَفَرْتُ لِعَدْنَانٍ تَهَكُّمُهُمْ

فَمَا لِحَمِيرٍ وَالْقَوَالِ فِي النَّسَبِ

حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ عَجْرَةٍ

جَمَعَ الشُّبَيْكَةُ نُونٌ الرَّأْخَسِرِ الْجَلْبِ^(٥)

(١) في الأصل : د فلما .

(٢) ترجم له باقرت في معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين السكيت ابن زيد الأسدي مفاخرة .

(٣) اعترض عليه ، أي دخل معه في الشعر ، تما عاقله .

(٤) ذو العقصين ، يعني به الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين ، كان له في رأسه شبه قرنين ، أي عقصتين . والعقص : ضرب من منفر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتي في تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة وعجربة ، كذا وردت في الأصل ، وسنأتي في ص ٢٠٢ برسم « محزوة » واليون : السمك ، واحده نونة . وهو الحوت أيضا

نُعمدان : حصنٌ كان ينزله الملكُ الذي يكون على التَّيَمَن ، وكان عَجَمِيًّا ،
فذا ملكَت الحبشةُ التَّيَمَنَ أَخْرَبَتْهُ إِلَّا بَقَايَا هَدَمَهَا عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي الْإِسْلَامِ . وَقَالَ : « يَنْبَغِي لِمَا تَرَى الْجَاهِلِيَّةُ أَنْ تُنْحَتَى » . وَكَانَ فِي الْحَصَنِ
مَصْنَعَةٌ عَلَيْهَا قُبَّةٌ مِنْ طِائِقٍ ، وَفِيهَا يَقُولُ خَلْفُ الْأَحْمَرِ :

وَمَصْنَعَةُ الطَّلُقِ أَوْدَى بِهَا عَوَادِي الْأَحَائِشِ بِالصَّيْدِ^(١)
وَفِيهَا يَقُولُ قُدَامَةُ حَكِيمُ الشَّرْقِ^(٢) ، وَكَانَ صَاحِبَ كَيْمِيَاءَ :

فَأَوْقَدَ فِيهَا نَارَهُ وَلَوْ أَنَّهَا أَقَامَتْ كَعَمْرِ الدَّهْرِ لَمْ تَنْصَرِمِ
لَأَنَّ الطَّلُقَ لَوْ أَوْقَدَ عَلَيْهِ أَلْفَ عَامٍ لَمْ يَسْخُنْ . وَبِهِ يَتَطَلَّى التَّفَاطُلُونَ إِذَا
أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي النَّارِ .

٨٤ ظ

وَقَالَ لَيْدٌ :

أَصَاحَ تَرَى بُرَيْقًا هَبَّ وَهَنَا كَصَبَاحِ الشَّعِيطَةِ فِي الذَّهَالِ
أَرَقْتُ لَهُ وَأَنْجَدَ بِمَدَدِهِ وَأَصْحَابِي عَلَى شُعْبِ الرُّحَالِ
بُضَى رَبَابُهُ فِي الرِّزِّ حُبْشًا فَيَأْمًا بِالْخِرَابِ وَالْإِلَالِ^(٣)

(١) المصنعة : شبه صهرج يتخذ للماء . والطائِق ، بالكسر وبالفتح : حجر
يراق يتشظى صفائح إذا دق . والصيْدن : الملك . قال رؤبة :

إِنِّي إِذَا اسْتَفْلَقْتُ بَابَ الصَّيْدَنِ لَمْ أَنَسْهُ إِذْ قُلْتُ يَوْمًا وَصْنِي

(٢) فِي الْأَسْلَافِ وَمَا تَرَى السَّخِ : « قُدَامَةُ بْنُ حَكِيمٍ الشَّرْقِي » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي الْحَيَوَانِ
٩٥ : ٥ . وَقَدْ يَكُونُ قُدَامَةُ هَذَا جَدًّا لِقُدَامَةِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ قُدَامَةَ .

(٣) فِي الْأَسْلَافِ : « رِبَاوَةُ » تَحْرِيفٌ ، صَوَابُهُ فِي دِيْرَانٍ لَيْدٍ ١٢٤ . وَالرَّبَابُ :
السَّحَابُ الَّذِي تَرَاهُ كَأَنَّهُ مَدَدٌ ، كَأَنَّهُ أَغْنَاكُ النَّعَامِ . وَالْإِلَالُ : جَمْعُ آلَةٍ ، وَهِيَ
الْحَرْبَةُ . وَفِي الْأَسْلَافِ : « وَبِالْآلَاءِ » ، صَوَابُهُ فِي النَّبِيِّ

وقال ذلك لبيد^١ لأنهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم ،
وراياتهم ، وخبولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضح^٢ أبدانهم - رأيت هولا
لم تر^٣ مثله ولم تسمع^٤ به ، ولم تتوهمه .
وأما قوله :

* ويوم يثرب كنا فحلة العرب *

فإن مسرف بن عتبة المرسي^(١) ، حين كان أباح^٢ المدينة ، زعموا أنه قد كان
هناك أمراً قبيحاً من السودان والجند ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر :
فما نل مسرف المرسي عنكم غداة أباح للجند العذاري^(٣)
فما رجكم على حنق زنوج^(٤) وفز الشام كالأسد الضواري^(٥)
ودافع وهرز^(٦) والقرس^(٧) عنكم ورأس الخبش يحكم في دمار^(٨)
فأفقد نسكم بواد لوس^(٩) وأير^(١٠) مثل غرمول الحار

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسراره في صفك الدماء وانتهاك حرمة
المدينة وانتهاها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين حمله بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية
وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عتبة ، وهذه الصورة ورد في البيان : ٢ : ١٣١ .
وانظر الطبري ٧ : ٥ - ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ - ١٦٢ . توفي مسرف
أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر القهبي أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) في النجوم الزاهرة أنه قد اختلف في وقعة الحرة ألف عذراء . والعذاري
بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهي لغة في جمع عذراء ، وذلكها العذاري
بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يلز فزازة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسي أرسله كسرى أو شروان مع سيب بن ذي بن الحخير ،
مسيحاً له على الخشنة حين غلبت على اليمن . وعمار ، كقطعاهم وسحاب : بلد باليمن
على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحة الطلب للذين كما ذكر إباحة مسرف المدينة .

وأما قوله :

حجارةُ نَجعت من كلِّ محزوة جمع الشبكة نون الزاخر اللجب^(١)

فإنه ذهب إلى ما تقول الرواة أن حجر كانت حجارة .

وأما الشبكة فأراد الشبكة .

وقال الشودان : فهذا التنصّل فينا ، ولم يصلّ النبي صلى الله عليه وسلم قط إلا على جنازة أو قبر ، إلا النجاشي فإنه صلى عليه وهو بالمدينة وقبر النجاشي بالحبيشة .

قالوا : والنجاشي هو كان زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالد بن سعيد^(٢) فجعله وليها ، وأصدق عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعائة دينار^(٣) .

و ٨٥

قالوا : وثلاثة أشياء جاءكم من قبلنا . منها الغالية ، وهي أطيّب القليب وأغزره وأكرمّه . ومنها النّمش وهو أستر للنساء وأشون للحرم . ومنها المصحف ، وهو أوقى لما فيه وأحصن له ، وأبهى وأهيا .

(١) في الأصل : « حجارة » : وكذا في التفسير بدمه . و انظر ما سبق في

ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع السلفين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب - واسمها رملة - زوجة لعبيد الله ابن جعش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فنصر زوجها عبيد الله

قالوا : ونحن أهول في الصدور وأملأ للعيون ، كما أن السودة أهول في العيون وأملأ للصدور من البَيضة^(١) ، وكما أن الليل أهول من النهار .
قالوا : والسود أبدأ أهول . وإن العرب لَتَصِفُ الإبل فتقول : الصَّهْبُ سُرْع ، والخمر غُزْر ، والشود بُغْي^(٢) . فهذا في الإبل .
قالوا : ودُمِ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر الشود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى . والخمر الشود أتمن وأحسن وأقوى . وشود الشاء أدسم ألباناً وأكثر زبداءً ، والذئب أغزر من الخمر^(٣) .
وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصاب صلابة وأشدَّ يَبوسة . والأسد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ، ولا أعمَّ منفعة ولا أبقى على الدهر . والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سوداً جذوع .

== وارتد عن الإسلام . بعث فيها رسول الله إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري غطبها عليه النجاشي الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسي . وقد بدأ السود في سنة ١٢٩ أي قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبري ٩ : ٨٢ وفي سنة ٢٠٢ جل للأمون على بن موسى بن جعفر ولي عهده وأمر جده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة في الأبنية والقلائس والأعلام . الطبري ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على الأمون والانقسام في طوائف التوالين للعباسيين . وفي تلك السنة أيضاً وثب أخو أبي السرايا بالكوفة فيض . وهم البيضة . الطبري ١٠ : ٢٤٥ .
ومن البيضة أيضاً أصحاب القمع السكدي انظر صحاح الجوهري (فيض)
(٢) انظر مثيل هذا القول لطيف الحاتم . وكان من آيب الناس أي أحذقهم برعية الإبل . في اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبسه . وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سواداً .

وجاء : « عليكم بالسَّوَادِ الْأَعْظَمُ ^(١) » . وقال الأنصاري :

أَدِينُ وَمَا دِينِي عَلَى بَنَفْسِي رَمٍ

ولكنْ عَلَى الثَّمِّ الطَّوَالِ الْقَرَاوِجِ ^(٢)

عَلَى كُلِّ خَمَّوَارٍ كَأَنَّ جَنُوعَهَا

طَلَبَتْ بِقَارٍ أَوْ بِدَمٍ ذَهَابُ ^(٣)

قَالُوا : وَأَحْسَنُ ^(٤) الْخُضْرَةِ مَا ضَارَعَ السَّوَادَ . قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا :

﴿ وَمِنْ ذَوْنِهِمَا جُنَّتَانِ ^(٥) ﴾ ، نَحْمُ قَالَ لَمَّا وَصَفَهُمَا وَشَوَّقَ إِلَيْهِمَا :

﴿ مُدْهَمَّتَانِ ^(٦) ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خَضِرَاوَانٍ مِنَ الرَّيِّ سَوْدَاوَانٍ .

وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَوْذٌ أَحْسَنَ خَشْبًا وَلَا أَعْلَى ثَمًّا ، وَلَا أَثْقَلُ وَزَنًا

وَلَا أَسْلَمَ مِنَ الْقَوَادِحِ ^(٧) ، وَلَا أَجْدَرُ أَنْ يَنْسَبَ فِيهِ الْخَطُ مِنَ الْآبَنُوسِ ^(٨) .

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ اكْتِنَازِهِ وَالتَّنَامَةِ وَمُتَوَسِّتِهِ وَشِدَّةِ تَدَاخُلِهِ ، أَنَّهُ يَرْسُبُ فِي الْمَاءِ

(١) فِي اللِّسَانِ (سَوْد ٢١١) . « وَفِي الْحَدِيثِ : إِذَا رَأَيْتَ الْاِخْتِلَافَ عَلَيْكَ

بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ » .

(٢) وَكَذَلِكَ فِي اللِّسَانِ (حَوْر) : وَهُوَ سَوِيدٌ بَنِ الصَّامِتِ الصَّعَالِي الْجَلِيلِ .

انْفَرَقَ اللَّيْلَى ٣٦١ وَالْاِفْتِضَابُ ٣٧٥ وَاللِّسَانُ (فَرْح) وَالْإِصَابَةُ ٣٥٩٢ .

(٣) الثَّمِّ : الْعَالِيَاتِ ، يَعْنِي التَّخْلَ . وَالْقَرَاوِجُ : جَمْعُ قَرَاوِجٍ ، وَهُوَ الْأَحْرَدُ

الَّذِي قَدْ شَذِبَ كَرَبَهُ .

(٤) فِي اللِّسَانِ : « وَنَحْمَةُ حَوَارَةٍ : غَزِيرَةُ الْحَمَى » . وَيُرْوَى : « أَوْ بِحَمَاةٍ

مَائِعَةٍ » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « وَحَسَنٌ » .

(٦) آيَةُ ٦٢ مِنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ . (٧) آيَةُ ٦٤ مِنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ .

(٨) جَمْعُ قَدَحٍ ، وَهُوَ أَكَالٌ يَقَعُ فِي الشَّجَرَةِ أَوْ تَصْدَعُ .

(٩) الْآبَنُوسُ . بَنَفْسُ الْبَاءِ ، وَكَسْرُهَا : شَجَرٌ يَنْبُتُ فِي الْحَبَشَةِ وَالْهِنْدِ ، خَشَبُهُ

أَسْوَدٌ صَلْبٌ . دَخِيلٌ انْفَرَقَ لِلْعَجَمِ الْوَسِيطُ .

دونَ جميعِ العبدانِ والنَّحْشِ . ولقد غلبَ بذلكَ بعضَ الحجارة ؛ إذ صار
يرسُبُ وذلكَ الحجرُ لا يرسُبُ .

والإنسانُ أحسنُ ما يكونُ في العينِ مادامَ أسودَ الشعرِ . وكذلك
شعورُهم في الجنةِ .

٨٥ ظ

وأكرمُ ما في الإنسانِ حدائقه ؛ وهما سوداوان . وأكرمُ الأكلالِ
الإميدُ ، وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يدخلُ جميعَ المؤمنين الجنةَ جُردًا
مُردًا مكحلين .

وأضعُ ما في الإنسانِ له كبدُه التي بها تصلحُ معيذُه ، وينضمُّ لمعانيه ،
وبصلاحِ ذلكَ قامَ بدنه ؛ والكبدُ سوداءُ .

وأفسُ ما في الإنسانِ وأعزُّه سويداهُ قلبه ، وهي علقتهُ سوداءُ تسكونُ
في جوفِ فؤاده ، تقومُ في القلبِ مقامَ الدماغِ من الرأسِ .

ومن أطيبِ ما في المرأةِ وأشبهُ شفتيها للتقبيلِ ، وأحسنُ ما يكونان
إذا ضارعتا السوادَ .

وقال ذو الرمة :

لتبأ في شفتيها حُوةٌ أفسُ وفي اللثا في أنيابها شَنَبٌ^(١)

وأطيبُ الفلِّ وأبرَّه ما كانَ أسودَ . وقال الراجز :

• سود غرايب كأظلالِ الحجرِ •

(١) ديوان ذى الرمة • والاسان (شنب) .

وقال حميد بن ثور^(١) :

ظَلَّلْنَا إِلَى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رَكَبُنَا
إِلَى مَسَكِنَاتٍ لِمَنْ غُرُوبُ
إِلَى شَجَرٍ أَلْمَى الظَّلَالِ كَأَنَّهُ
رَوَاهِبُ أَحْرَمَنِ الشَّرَابِ عُذُوبُ^(٢)
وجعل الله الأليلَ سَكَنًا وَجَمَامًا ، والنَّهَارَ لَلْكَسْبِ وَالْكَدِّ .

والذي يدلُّ على أنَّ السَّوَادَ في وجه آخرٍ مقرونٌ بِالشَّدَةِ وَالضَّرْمَةِ ،
وَالهَيْجِ وَالْحَرَكَةِ ، انْتِشَارِ الْحَيَاتِ وَالْمَقَارِبِ وَشَدَّةُ نَوْمِهَا بِاللَّيْلِ ، وَهَيْجُ
السَّباعِ وَاسْتِكْلَافُهَا بِاللَّيْلِ . وَتَحَرُّكُ الْأَوْجَاعِ وَظُهُورُ الْفِيلَانِ ، هَذِهِ
كُلُّهَا بِاللَّيْلِ .

قال : وَأَشْبَهْنَا اللَّيْلَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

فَالْوَا : وَأَبْلَغُ مَا تَكُونُ الْقَائِلَةُ وَأَشْفَعَا لِلنَّفْسِ ، وَأَمْرَعُ لِحَيْثُهَا إِذَا
أَرَدْتَهَا ، وَأَبْغَا لِدَهَابِهَا إِذَا كَرِهْتَهَا ، مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْقَائِمَةِ ، عِنْدَ إِسْبَالِ
النُّجُومِ وَإِغْلَاقِ الْأَبْوَابِ .

قَالُوا : وَلَيْسَ لَوْنُ أَرْسِيخَ فِي جَوْهَرِهِ وَأَثْبَتَ فِي حُسْنِهِ مِنْ سَوَادِ .

وَقَدْ جَرَى لِلنَّاسِ فِي تَبَعِيدِ الشَّيْءِ : « لَا تَرَى ذَلِكَ حَتَّى يَبْيَضُ الْقَارِ ،
وَحَتَّى يَشْرِيبَ الْغُرَابُ »^(٣) .

(١) فِي دِيْوَانِهِ ٥٧ وَاللِّسَانِ (كَنْف . حَرَم . لَأ) وَالْحَيَوَانَ ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عُذُوبٌ : جَمْعُ عَذَبٍ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ .

(٣) الْحَيَوَانَ ٥ : ٥٢٨ .

وهو القرض القلاء^(١) عند الحكماء .

وأكرم المطر المسك والعتبر ، وهما أسودان .

وأصاب الأحجار سودها . وقال أبو دهب الجعفي يمدح الأزرق^{٨٦} و
الخرزومي ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن النغيرة^(٢) :

فإن شكرتك عندي لا اعتضاء له مادام بالجزع من لبثان جلود
أنت الممدح والغلي به ثمنًا إذ لا يعاتب صغر الجندل السود^(٣)

والعرب تغفر بسواد اللون . فإن قل : قعلام ذلك وهي تقول : فلان
هيجان ، وأزهر وأبيض ، وأغر ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياض الجلد ، إنما تريد
به كرم الجوهر ونقاءه . وقد تغرّت خضر محارب بثياب سود ، والشود عند
العرب الأخضر^(٤) . وقال الشماخ بن ضرار :

وراحت رواتنا من زرود فنازعت

زباله جلبابًا من الليلى أخضر^(٥)

(١) في الأصل : « اللاء » . صوابه من تصحيح ن . س .

(٢) في جمهرة ابن حزم ١٤٨ - ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله
ابن الوليد بن عبد شمس بن النغيرة . ونحوه في الشعراء ٥٩٦ . وصناء الأغانى ٦ : ١٥٧
« ابن الأزرق » . وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن النغيرة .

(٣) كذا . وفي الأغانى ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حَتَّى اتَضَائِي الصَّبِيحَ مِنْ لَيْلٍ خَضِرُ

مَثَلُ اتَضَاءِ البَطَالِ السَّيْفِ الذِّكْرُ^(١)

وهم يَشُون الحديدَ أخضرَ لأنَّه صلب^(٢) ؛ لأنَّ الأخضرَ أسود^(٣) .

وقال الحارث بن سِلَازة :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَنَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ رَيْنَ سِرّاً حَتَّى نَهَاهَا الْحِجَابُ

فَهَزَمْنَا جَمْعَ ابْنِ أُمِّ قَطَّامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ^(٤)

وقال المُعَارِبِيُّ وهو يَفخرُ بأنَّه من الخُضِر :

فِي خُضِرٍ قَيْسٍ نَمَانِي كُلِّ ذِي فَخَرٍ

صَعْبِ الْقَادَةِ أَبِي الضَّمِّ شَعِشَاعٍ

وينو النُفَيْرَةُ خُضِرُ بَنِي مَخْزُومٍ . قال عُمرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة بن النُفَيْرَةِ

المَخْزُومِيَّةِ - ويقال لَهَا لِلْفَضْلِ بن العَبَّاسِ الْأَنْهَاسِيَّةِ^(٥) :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَمُرُّنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ

مَنْ يَسَاجِلُنِي يَسَاجِلُ مَا جَسَدًا يَمْلَأُ الدُّلُوكَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) في الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى اتضاء » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفي الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « وأصل الخضرة إنما هولون الرِّيحان والبقول ، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسياء خضراء » .

(٣) في الأصل : « لأنَّه » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « ابن أم قضاع » . وانظر العُلُقَات ٤٩٦ : بشرح ابن الأثير . وابن أم قطام هو حجير بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

وَحُضِرَ غُثَانُ بْنُ جَفْنَةَ لِلرُّكَّةِ ؛ قَالَ الْفَسَائِي :

إِنَّ الْخُضْرَامَةَ أَنْظُرِ الَّذِينَ وَدَّوْا أَهْلَ الْبَرَيْصِ نَحْنُ مِنْهُمْ الْحُكْمُ^(١) ٨٦ ظ

وقد ذكر حسان أو غيره أنظُر من بني عُكَيْم^(٢) حين قال :

وَلَسْتُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ

وَلَا بَنِي جُحَجٍ أَنْظُرِ الْجَلَاعِيْمَ^(٣)

قالوا : وكان ولد عبد المطالب القشرة السادة دُلْنَا^(٤) ضَخًا^(٥) ، نظر إليهم

عامر بن الطفيل يَطُوفُونَ بِمَنْهُمْ جَالٌ جَوْنٌ ، فقال : بهؤلاء تمنع السيادة .

وكان عبد الله بن عباس أدامَ ضَخًا ، وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وه
سُودَ وَأَدَمَ وَدُلُمَ .

(١) الخضرامة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد الخول
وفي الحيوان : « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث تلك القسامة .
وفي الحيوان : « ثمان » .

(٢) في القاموس (عكم) : « وكزير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات في ديوان حسان ١٢٣ - ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عباس
التيمي ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بني أمد أو عبد شمس أو أصاب اللوا الصيد
وصدره فيه :

« أو في البرارة من تيم وضيت بهم »

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفي اللسان : « فل ابن سيدة : وأما قول أهل
اللسنة أضخم ، هـ لدى أصوره في ذلك أنهم لم يشعروا بالفاضلة في هذا البيت فجعلوه
من باب أسمر . قال : وبذلك على الفاضلة أنهم لم يحبثوا به في بيت ولا أن مجرد
من اللام ، فباعتناء من مشهور أشعارهم على أن الذي حكاه أهل اللغة لا يتبع » .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثَ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » .

وقد علمت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والثوبة بيض ولا أحر ، وليس لهم اسمٌ إلا السود .

وقد علمنا أن الله عزَّ وجل بعث نبيَّه [إلى الناس ^(١)] كافة ، وإلى العرب والمعجم جميعا . فإذا قال : « بُعِثَ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ولنا عنده حُرٌّ ولا بيض ، فقد بُعِثَ إلينا ؛ فإنما عنانا ^(٢) بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحر ، فقد دخلت في عداد الروم والصفالية ، وفارسَ وخُرَاسان . وإن كانت من السود ، فقد اشتمت لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدم وسميَّ سودًا ، حين دخلوا معنا في جملتنا ، كما يعمل العربُ الإناثَ من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والثوبة ليسوا بحمرٍ ولا بيض ، وأنهم سود ، وقد بعث الله تعالى إلى الأسود والأحر ، فقد جَعَلْنَا والعرب سواء ، ونسكونُ نحن السودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السودان أخلص ، والعربُ أشباهُ أخلص . فنحن المتقدمون في الدَّعوة . وإذا كان اسمُهم محمولا على اسمنا ؛ إذ كنَّا وحدنا يقال لنا سودٌ ، ولا يقال لهم سودٌ إلا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأتم ترون كثرةَ العدد مجذا ، ونحن أكثرُ الناس عدداً وولداً .

(١) موضع التكلفة يانص في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » . ووجه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحن صنفان : الثمل والكلاب^(١) .

قالوا : ولو عدلتم بالثمل العرب كلها لأرست عليها ، فكيف إذا قرنت إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضمتم إليها الحبشة والنسوبة وقُرآن و مرو وزغاوة^(٢) وغير ذلك من أنواع السودان ؟

ولست قحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبهه ، وأرحامنا بهم أمس من عدنان بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات : فإن لغة عَجَز هوازن^(٣) ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تشعب والتجذر مختلف . ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، علم أن اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قُط ، وإنما رأيتم السبي يعني من سواحل قبيلة^(٤) وغياضها وأوديتها ، ومن مهقنا وسفائنا وعبيدنا ، وليس لأهل قبيلة جمال ولا عقول . وقبيلة : اسم الوضع الذي تُرفق منه سفنكم إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قبيلة ولنجوبة^(٥) ، كما أن العرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) في القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التتبيه والإشراف ١٩١ .

(٣) في الكلام نفس ، ولعل تمتعه : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق في مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) في التتبيه والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يصل ذلك بيلاذ سفلة الزنج وحزيرة قبلاو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

فَظُطَّانٌ وَعَدْنَانٌ . وَأَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مِنْ أَهْلِ لَنْجَوِيَّةٍ أَحَدًا قَطُّ ، لَامِنْ السَّوَاهِلِ
وَلَا مِنْ أَهْلِ الْجُوفِ^(١) ، وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ نَسِيتُمْ الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ .

فَإِنْ قُلْتُمْ : وَكَيْفَ وَنَحْنُ لَمْ نَرِ زَنْجِيًّا قَطُّ لَهُ عَقْلٌ صَبِيٌّ أَوْ امْرَأَةٌ ؟

قُلْنَا لَكُمْ : وَمَتَى رَأَيْتُمْ مِنْ سَبْيِ السَّنْدِ وَالْهِنْدِ قَوْمًا لَهُمْ عَقُولٌ وَعِلْمٌ وَأَدَبٌ
وَأَخْلَاقٌ حَتَّى تَطْلُبُوا ذَلِكَ فَمَا سَقَطَ إِلَيْكُمْ مِنَ الزَّيْجِ . وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الْهِنْدِ
مِنْ الْحِسَابِ وَعِلْمِ النُّجُومِ وَأَسْرَارِ الطَّبِّ ، وَالْخُرُطِ وَالنَّجَرِ ، وَالْقَصَاصِ
وَالصَّنَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَجِيبَةِ ، فَكَيْفَ لَمْ يَتَّفِقْ لَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ مَا سَبَيْتُمْ مِنْهُمْ
وَاحِدٌ عَلَى هَذِهِ الصَّنُوعَةِ ، أَوْ يُمْشِرَ هَذِهِ الصَّنُوعَةُ ؟

فَإِنْ قُلْتُمْ : أَهْلُ الشَّرَفِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ إِنَّمَا يَنْزِلُونَ الْوَاسِطَةَ ، وَيَقْرُبُ دَارَ
الْمَلِكِ ، وَهَؤُلَاءِ حَاشِيَةٌ^(٢) وَأَعْلَاجٌ وَأَكْرَزَةٌ ، وَنَزَالِ السَّوَاهِلِ وَالْأَجَامِ
وَالْقَبُوضِ^(٣) وَالْجَزَائِرِ ، مِنْ أَكْلِيٍّ وَمِنْ صَيَّادٍ .

قُلْنَا : وَذَلِكَ مِمَّنْ رَأَيْتُمْ وَمِمَّنْ لَمْ^(٤) تَرَوْا مِنَّا . وَجَوَابُنَا هُوَ جَوَابُكُمْ لَنَا .

قَالُوا : وَلَوْ أَنَّ الزَّنْجِيَّ وَالزَّنْجِيَّةَ إِذَا تَنَاجَا بَقِيَتْ أَوْلَادُهُمَا بَعْدَ الْحَيْضِ
وَالْإِحْتِلَامِ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ ، كَانُوا قَدْ غَلَبُوا عَلَى الدَّارِ بِالْعَدَدِ وَالْجَلَدِ ، وَالْعِلْمِ
وَالْتَدِيرِ ، وَلَسَكُنَ وَلَدُ الْهِنْدِيِّ وَالْهِنْدِيَّةِ ، وَالرُّومِيُّ وَالرُّومِيَّةُ ، وَالْخُرَاسَانِيُّ
وَالْخُرَاسَانِيَّةُ ، يَقُونُ فِيكُمْ وَفِي بِلَادِكُمْ كِبَاءً أَبَاهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا يَبْقَى وَلَدٌ

٨٧ ظ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْحُوف » ، صَوَابُهُ بِالْجِيمِ كَمَا صَحَّ فِي ن ، س .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « حَاشِيَتُهُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَالْقَبُوضِ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَمَالَهُ » .

الزنجيين بعد الحبس والاحتلام . على أن لا تعيب في عشرة آلاف ، واحد يبلغ ما ذكرنا ، إلا أن يضرب الزنبي في غير زنجيات ، والزنجية في غير الزنج . ولولا أن الزنجية والزنجية قليلا ما يربدان^(١) من الغرائب والغرائب ، لكننا على حال^(٢) - نرى لرجال الزنج نسلا كثيرا . ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي .

قالوا : وكذلك البيضاء منكم ، لا يكادون ينشعلون لطلب الفسل من الزنجيات . والزنجية أبيضاً من الزنجي^(٣) أسرع لقاءاً منها من الأبيض .

قالوا : وأنتم لا تكادون تعدون ممن ولد له من صابه مائة ولد إلا أن يكون خليفة^(٤) ، فيكون ذلك لكثرة الطروقة^(٥) ، ولا تعدون ذلك في سائرهم . والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرة في بلادهم ، لأن الزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا باغن السنين إلا ما يحكى عن ساء قریش خاصة .

والزنج أحرص من خالق الله على نشأته ، ونسأله لم كذلك ، وهن أطيب من غيرهن .

قالوا : فأمثلوا قولنا واحتجنا : فإن قد روينا الأخبار وقلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

(١) حورث في ن ، س إلى : « يلدان » .

(٢) ن ، س : « على كل حال » .

(٣) في الأصل وسائر النسخ : « من الزنج » .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ ، ٩٨ .

(٥) طروقة الفعل : أثناء . والطروقة : الزوجة أيضاً .

وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرتب الأجتناس كلها فلم يجد مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكينة الرنينة وأقام عليها ، وترك النساء ، لذى وجد عندها . وفي ذلك يقول :

يَا رَبَّ خَوِّدْ مِنْ بَنَاتِ الرَّنَجِ تَشَى بِشُورٍ شَدِيدِ الْوَهَجِ
* أَخْتَمَ مِثْلَ الْقَدَحِ انْطَلَجَ *

وكانت دنائير بنت كمبوية الرنينة عند أعشى سليم ، وكانت شديدة السواد ، فرآها يوما وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحلت بالإند ، فقال :

تَخْضِبُ كَفًّا بِكَتْ مِنْ زَنْدِهَا فَتَخْضِبُ الْخَنَاءَ مِنْ مَسْوَدِّهَا^(١)

كَأَنَّهَا وَالْكُحْلُ فِي مِرْوَدِّهَا^(٢) تَكْحُلُ عَيْنَهَا بِمِصْ جَلْدِهَا

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ :

وَأَتَّبِعُ مِنْ لَوْنِ سَوَادُ عَجَائِرِ عَلَى بَشَرٍ كَالْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَنْصَعُ^(٣)

فَسَمَّوهُ أَسْوَدَ ، وَصَاحَ بِهِ الصَّبِيَّانُ فَطَلَّقَهَا . وقد كان صبيحة عرسها قال :

* إِنَّ الدَّنَائِرَ تَكُونُ سُودًا^(٤) *

و ٨٨

(١) ديوانه ١٤٣ والأغاني ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز في الأغاني ١٨ : ٣٦ إلى دعلج الخزاعي . وفي الأغاني : « قطعت » بدل « بكت » . وكلاهما بمعنى .

(٣) الرود ، بتشديد الدال لشعر هو الرود الذي يكحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ - ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة . وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جوار الخلة .

(٥) في ن : س : « سودا » . ولكن هكذا ضبطت « سودا » في الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

صالت :

بياض الرأس أقبح من سوادى وشيب الحاجبين هو القسوح
فأمسك عنها حينئذ عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك
السودان في نساء البيضان . على أن الشهوات عادات وأكثرها تقايد . من
ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار .
والذين أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى
النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما يشتهون حبايبهم
وسببهم . إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس .

قالوا : وأطيب^(١) الأفواه سكة ، وأشدّها عذوبة ، وأكثرها ريقاً ،
أفواه الزنج . والسكّلاب من بين السباع أطيب أفواهها منها^(٢) .

قالوا : والسواد ملاوم^(٣) للمعين^(٤) ، وإذا اعتلت غيف عليها لم يكن لها
دواء خير من القعود في الظلّة وفي يد صاحبها خرقة سوداء . فالسواد للإبصار ،
وخير ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسودان أكثر من البيضان ، لأن أكثر ما يعضد البيضان
فارس والجبال وخراسان ، والرؤم والصفالبة وفرنجية^(٥) والأبر ، وشيئا

(١) سقطت الواو في كل من ن ، س ، خلافاً لما في الأصل .

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ ، ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كذا في أصول ن ، س . ويبدو أنه من اللغة المولدة التي شاعت قديماً .
وفي اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائني ، ولا نقل بلاوني »

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ ، والفهرست ٣٠ ، ٣٤ ، والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والشودان يُعدّون الزنج والحبشة ، وفزان وبربر ،
والقبط والثوبه ، وزغاوة ومرو ، والسند والهند ، والقار^(١) والدَّيْل^(٢) ،
والصَّين وماصين . والبحر أكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصَّين
والزنج مملوءة سوداناً ، كسرنديب ، وكَلَه^(٣) ، وأمل ، وزابج^(٤) وجزائرها
إلى الهند إلى الصَّين إلى كابل وتلك السواحل .

قالوا : وكان الأعلى الاشديام^(٥) يقول : الشودان أكثر من البيضان ،
والصَّخر أكثر من الوحل ، والرمل أكثر من التراب ، والماء المالح أكثر
من العذب .

قالوا : ومنا العرب لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهند
أسفر ألواناً من العرب ، وهم من الشودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم الناس أن العرب ليست بمحر كما
ذكرنا قبل هذا^(٦) .

(١) قار بفتح القاف وكسر ها : موضع بالهند ينسب إليه العود القاري .
(٢) الذي في ياقوت « ديل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة
على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للسعودي ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .
(٣) في الأصل ون ، س : « سودان » .

(٤) في معجم البلدان : « كله : فرسة بالهند ، وهي منتصف الطريق بين عمان
والصَّين ، وموقعها من للمورة في طرف خط الاستواء » .

(٥) زابج قل فيها ياقوت : « وقبل هي بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين
إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفي الأصل : « وترج » . وانظر ماسيني .
والباء تفتح وتكسر .

(٦) الاشديام : رئيس الركاب ، كما في اللسان (شتم) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا التّفخّرُ لنا وللعرب على جميع البيضان إن أُحِثَّ ذلك العربُ ؛ وإن كرهته فإنّ للفخر لنا بالذي ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نسكركم إلّا بالزّاج وحدها لفضّناكم بهم فضلاً ميبناً ؛ وذلك أن ملك الزّاج إن غضب على أهل مملكة ولم يتقوه بالخراج بعث ألف سنبوقة^(١) في كل سنبوقة ألف رجل على أن [لا^(٢)] يخلدوهم ولا يقاتلوهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتّى يتقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُفدون ويأبسون ، أضّرّ عليهم من مقدار الخراج المرار الكثيرة . فإن اتقوهم بالخراج وإلّا أرسل إليهم ألف سنبوقة أخرى ، فلا يجد ذلك الملك بدءاً من أن يتقيّه بكلّ ما طالب ، ولا يأمن أن ينضب قيّاقه عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزّاج على خليج مرّة . والخليجُ فراسخ في فراسخ ، فيبنا هو على مائدته وفي سرادقه على شاطئ الخليج ، إذ سمع صارخة فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل^(٣) . قالوا : امرأة سقطت بها في هذا الخليج فأكله النّساح . قال : وفي مكان أنا فيه شيء يشاركني في قتل النّاس ! ثم وثب فإذا هو في الخليج . فلما رأوه النّاس سقطوا عن آخرهم ، تخضضوه^(٤) وهو فراسخ في فراسخ ، حتّى أخذوا كلّ تمساح فيه أخذاً بيد .

(١) الذي في القادوس « السبوق » ، وفي : « السبوق كعصفور :

ذورق صغير » .

(٢) تسكّلة يستقيم بها الكلام .

(٣) في الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خضض النّاء ونحوه : حركة . وفي الأصل : « تخضضوه » .

فيقال : إن أهل الزاج وأغابيا^(١) أكثر من شعر أهل الأرض .

قالوا : وآخر العمران كله سودان^(٢) ، وما استدار من أقاصي العمران
أكثر من أهل الوسطة ، كطوق الرحي الذي يلي الهواء ، الذي هو أوسع
وأكثر ذرعا مما قصر عنه من فلك الرحي^(٣) ولتعتبر ذلك بالجنح المطيف ،
لا يرى أحد ذرعه مع قلة عرضه ، ونجده أكثر ذرعا من نفس الدار .

وليس خلف الزاج بيضان^(٤) ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة
في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : هذا دليل على أن أكثر ، وإذا كنا أكثر كنا أغبر . وقد
قال شاعرهم^(٥) :

ولست بالأكثر منه حصي وإنما العزة للساكن^(٦)
قالوا : وللقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن
[الولد^(٧)] فولد له منهم نبي عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه
السلام . وطاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ،
وكناه به جبريل .

(١) السكامة مهجة القبط في الأصل . والأغاب : جمع غب ، بالضم ، وهو
العاص من الأرض قل :

كانها في الغب ذي الميطان ذئاب دجن دائم التهان

(٢) فلك الرحي . مدارها وفي الأصل ون . س : « ذلك الرحي » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب عاقبة بن علاثة ، فضلا ، مربي الطويل عليه . والرواية للشيرة :

« منهم حصي » .

(٥) ليست بالأصل . والكلام يقتضيها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنَّحَاس إذا اشتدَّ سواده كان أَمَنَ وأجود . فمن استسكَرَ لونَ السوادِ فإِني فِرَيجة^(١) والرُّوم والصَّقَالِبَة من إفراطِ سُبوطة الشَّعر والرَّقَّة والضمُّوبة ، والحُمرة في شعر الرُّأْس والأَجْعَة ، وبياضِ الحواجِب والأَشْفار ، أَفْيح وأَسْجج . وليس في السُّودان مُغْرَب^(٢) ، ليس المُغْرَب إلَّا فَيْكَم . ولا سَوَاك من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حدَّ التَّمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالفَلَسَف^(٣) والنَّفَر ، ونحن أَتَقَفُ النَّاس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إِنَّ الله تعالى لم يجعلنا سَوْدًا تشويهاً بِخَلْقنا ، وَلَكِنَّ البَلَدَ فَعَلَ ذَلِكَ بنا . والحِجَّة في ذلك أَنَّ في العرب قِبَالَ سَوْدًا كَبِيْئَ سُلَيْم بن منصور . وكلُّ مَنْ نَزَلَ الْخَزْرَاءَ من غيرِ بَنِي سُلَيْمِ كُلِّهِمْ سَوْد . وإِنَّهُمْ لِيَتَغَلَّبُونَ لِلْمَالِكِ الرَّعْيِ والسَّقَاء ، والمُهْنة والخِلْعة ، من الْأَشْبَانِيَّيْنِ^(٤) ومن الرُّومِ نَسَائِهِمْ ، فَمَا يَتَوَلَّدُونَ ثَلَاثَةَ أَبْطَنٍ حَتَّى تَنْقَلِبَ الحُرَّةُ إِلَى أَلْوَانِ بَنِي سُلَيْمِ^(٥) . ولقد بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ الحُرَّةُ أَنَّ قَلْبَهَا وَنَعَامَتَهَا ، وَهَوَامَّتَهَا وَذُبَابَهَا ، وَتَمَالِبَهَا وَشَاهَا وَحَمِيرَهَا ، وَخِيَلَهَا ، وَطَبِيرَهَا كُلَّهَا سَوْدٌ . وَالسَّوَادُ وَالْبَيَاضُ إِنَّمَا هُمَا مِنْ قِبَلِ خَلْقَةِ الْبَلَدَةِ ، وَمَا طَبَعَ اللهُ عَلَيْهِ الْمَاءُ .

(١) انظر ما سبق في ص ٢١٥

(٢) للغرب . بفتح الراء : الأبيض أشفار العينين .

(٣) لعل هذا من أندم النصوص التي ورد بها لفظ الفيلسوف . وهو اللسان : « الفلسفة : الحكمة ، أعمى . وهو الفيلسوف ، وقد تقلب » .

(٤) في الأصل : « الاشباين » بهذا الإجمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ط والثرية ، ومن قَبَل قُرْب الشَّمْس وبعدها ، وشدة حرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير ^(١) .

على أن بلاد بنى سليم تجرى تجرى بلاد الترك . ومن رأى إناهم ودوابهم وكل شيء لهم تركى رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركى لشدة حرهم ورأى الفزاة دون العواصم أخلاط غم الرّوم فلا يخفى عليهم غم الرّوم من غم الشّام ، والرّومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيّات الذين وقّعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد ^(٢) البقل والريحان وديدانها خضراً ^(٣) ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضيت حمراً .

فليس سوادنا ، ممسّر الرّيح ، إلّا كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من أسود من الناس إلّا ^(٤) كإفراط بياض من ابيضّ من الناس . وكذلك الشجرة المتولّدة من بينهما ، وكذلك الزّيّ والحيثات ، وكذلك الصناعات ، وكذلك للطاعم والشّهوات .

(١) في جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) في الأصل : « جزار » ، صوابه في الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك في نوس .

(٣) في الأصل : « خضر » .

(٤) في الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي ، سواد
البيانة فقال^(١) :

أسيلم ذاكم لا خفا بمكانه
لعين تداحي أو لأذنٍ تسمع^(٢)
من الثفر الثمّ الذين إذا انتموا
وهب الرجال حنقة الباب فمتموا
جلا الأذفر الأحمى من لك فرقه
وطيب الدهان رأسه وهو أنزع^(٣)
إذا الثفر السود اللبانون حاولوا
له حوك برديه أرقوا وأوسعوا
وقد عاب بعض البيضاء عبد بن جعدة بلونه ، فقال :

قد عاب لوني أقوامٌ قلتُ لم
ما عاب لوني إلا مفترط الحُمق
إن كان لوني فيه دُعة كلفت
حزن الإهاب فإني أبيض الخاق

(١) الأبيات في الحيوان ٤٨٦ : ٣ والبيان ٣٩٦ : ١ و ٣٠٥ : ٣ والبعلاء
٢١٣ والمقد ٣٤٣ : ٥

(٢) في معظم للراجع : « لعين ترجى » .

(٣) في الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » . صوابه من البيان والحيوان
والبعلاء . والأذفر : الشدب سطرحة الرامحة . والأنزع : الذي انحسر الشعر عن
جانبه .

أَرْضِي الْعَدِيقَ وَأَجِي الظُّمْنَ مَعْرَضًا

صَدَرَ الْقَسَاوِ وَأَكْفَى كَنَّهُ الشَّرْقِ^(١)

وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفو عِرَارًا^(٢) بن عمرو ، وكان ابن

سودا ، فقال عمرو بن شاس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

أَلَمْ يَأْتِهَا أُنَى مَصَوْتُ وَأُنَى

تَحْشَمْتُ حَتَّى مَا أَعَارِمَ مِنْ عَرَمٍ

وَأَطْرِقُ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ ، وَلَوْ يَرَى

مَسَاقًا لَنَابِيهِ الشُّجَاعُ لَقَدْ أَرَمَ^(٣)

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْمُحَوَّنِ وَمَنْ يُرْدُ

عِرَارًا لَعَمْرِي بِالْمُحَوَّنِ فَقَدْ ظَلَمَ

وَيَنْ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ

فَأَنْى أَحَبُّ الْجَوْنِ ذَا الْمَنْكِبِ الْقَتَمِ^(٤)

فَإِنْ كُنْتَ مَنَى أَوْ تُحْبِثَ شِمَتِي

فَكُونِي لَهُ كَالْتَمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ^(٥)

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) في الأصل : « عرار » أو « غراز » . صوابه من الخامسة ٢٨٠ - ٢٨٢

بشرح الرزوقي ومأثرت في حواشها من المراجع . والأغاني ١٠ - ٥٩ - ٦٠ .

(٣) أزم : عجز شديد . وفي الأصل : « أزم » . صوابه في الأغاني .

(٤) في الأصل : « لم يكن » . صوابه من المراجع للتقدمة . والعم : التلويل

الثام من كل شيء .

(٥) في الأصل : « كالشمس » تحريف . قل الرزوقي : والسمن إدارب تحبه

لم يتغير . يريد ولا تعمرى أنت أيضاً . والأدم : جمع آدم ، وهو الجلود .

وإلا فيني مثل ما مان راكب

تزود يخسا ليس في سيره أتم^(١)

وأما الهند فوجدناه يقدّمون في الشجوم والخب ، ولم يخطئ الهندي خاصة ، ويقدّمون في الطب ، ولم أسرار الطب وعلاج فاعش الأدوية خاصة . ولم يخطئ التماثيل وتحت الصور بالأصباغ تتخذ في الحارث^(٢) وأشياء ذلك . ولم الشعرج ، وهي أشرف نعمة وأكثرها تديراً وفطنة . ولم السيوف القلمية^(٣) ، وهم القب الناس بها وأخذتهم^(٤) ضرباً بها . ولم الرقي النافذة في السموم وفي الأوجاع . ولم غنة معجب . ولم الكنككة^(٥) ، وهي وتر واحد يد^(٦) على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والطنج . ولم ضروب الرقص والخفة ، ولم الثقافة عند النذف خاصة ، ولم معرفة الناصفة ، ولم السحر والتدخين والدماركية^(٧) . ولم خط جمع حروف الألفات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) في الأصل : « يجد من الحارث » .

(٣) القلمية : نسبة إلى القلم ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى « كه » ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلمية . انظر معجم البلدان والحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأخذتها » .

(٥) انظر نوادر الخطوط ٢ : ٣٢٤ .

(٦) في الأصل ون ، س : « يمر » ، صوابه ما أثبت .

(٧) كذا ولعله « الترمادكية » ، وهو ضرب من اللوق الطبي ، كافي

معجم استنبجاس ١٣٩٥ .

والأدب . وعندهم أخذ كتاب كثيرة ودمنة . ولهم رأى ونجدة ، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم . ولهم من الرى^(١) الحسن والأخلاق المحمودة مثل الأخيلة والقرن والسوك ، والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وويلح^(٢) واعتدال وطيب عرق . وإلى نساءهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالشود المندى الذى لا يمدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على الستم لم يضرب . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم^(٣) .

قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد ذلك فى القيان إذا كن من بنات السند .

وخصة أخرى : أنه لا يوجد فى العبيد أطيب من السندى ، هو أطيع على طيب الطيب كله^(٤) .

ومن مفاخرهم أنه الصيارفة لا يؤلون أكيستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوم أنفذ فى أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفى ومفاتيحه ابن رومى ولا ابن خراسانى

(١) فى الأصل : « الرأى » .

(٢) للبح ، بالكسر : لللاحه

(٣) فى تفسير أبى حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : « وآدم بالهند . وقيل بمرتديب بحبل يقال له واسم » .

(٤) فى الأصل : « هو أطيع على طيب الطيب كله » .

ولقد بلغ من تيزك التجار بهم أن صيارفة البصرة وبنادرة البرهيات^(١) ،
لما رأوا ما كسب فرج أبو روج السندی لمولاه^(٢) من المال والأرضين
اشتري كل امرئ منهم غلاماً سندياً ، طمعاً فيما كسب أبو روج لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأدغم سيد أهل المشرق »^(٣)
يعنى عبید الله بن أبي بكر . وكان أشد السودان سواداً . وإياه يعنى
عبد الله بن خازم^(٤) حيث يقول :

« حَبَشِيٌّ حَبَشْتُهُ حَبَشَةٌ »

فهذا جملة ما حَصَرنا من مفاخر السودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر
قحطان ، وسنقول في نغر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .

(١) البنادرة : جمع بندار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون العادن ،
أو الذين يحزنون البضائع للغلاء . والبرهيات : الأدوية التي تجلب من الهند من الخشيش
والعقاقير ، والقنوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البرهيات . أنساب
السمعاني ٧١ . وقال الأب أنستاس ماري : المراد بها توابل بر الهند . حواشي
الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما في الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) في المعارف ١٢٦ : « سيد أهل المشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة
الديزج ، شبه به » .

(٤) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي البصري ، أمير خراسان . ولى إمرتها
لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم
ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٢ . انظر الطبري
في حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

(١٥ - رسائل الجاحظ)

تم كتاب نثر السودان على البيضاء

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بمون الله تعالى وتوفيقه ،
ومشيئته وتأييده . بثلوه إن شاء ، تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك
في الجذو والمزل . والله الموفق للصواب .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين
الطاهرين وسلامه .



رِسَالَةٌ

فِي الْمَجْدِ وَالْمَهْزَلِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة في الجسد والمهزل »

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

- ١ - نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .
- ٢ - مختارات فصول الجاحظ ، وهي نسخة التحف البريطاني للودعة صورتها في مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .
- ٣ - نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد ، والتحف البريطاني ، ورمزها « ط » .

جُعِلَتْ فِدَاكَ . لَيْسَ مِنْ أَجْلِ^(١) اخْتِيَارِي النَّخْلَ عَلَى الزَّرْعِ^(٢) ٩٢ ط
أَقْصَيْتَنِي ، وَلَا عَلَى مِيلٍ إِلَى الْعَدَّةِ دُونَ إعْطَائِي الْخَرَاجَ عَاقِبَتِي ، وَلَا لِبَعْضِ
دَفْعِ الْإِنَاوَةِ وَالرَّضَا بِالْجُرْمَةِ حَرَمَتَنِي .

وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَ كَرِهْتَ قُرْبِي وَهَوَيْتَ بُعْدِي ، وَاسْتَنْقَذْتَ رَوْحِي وَتَقَسَّى
وَاسْتَظَلَّتْ عُمُرِي وَأَبْيَامُ مُقَامِي . وَلَمْ سَرَّكَ سَيِّئَتِي وَمُصِيبَتِي وَسَاءَتْكَ حَسَنَتِي
وَسَلَامَتِي ، حَتَّى سَأَاكَ تَجْعَلَ بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ جَزَعِي وَتَضْجُرِّي ، وَحَتَّى تَمْنَيْتَ
أَنْ أَخْطِيْ عَلَيْكَ فَتَجْعَلَ خَطِيئَتِي حِجَّةً لَكَ فِي إِبْعَادِي ، وَكَرِهْتَ صَوَابِي فَبِكَ
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذُرِيَّةً لَكَ إِلَى تَقَرُّبِي .

[فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ ، وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمَوْجِدَتِكَ^(٣)] فَايَسْ
- جُعِلَتْ فِدَاكَ - هَذَا الْحَقْدُ فِي طَبَقَةِ هَذَا الذَّنْبِ ، وَلَا هَذِهِ الْمَطَالِبَةُ مِنْ شَكْلِ
هَذِهِ الْجُرْمَةِ .

(١) هَذِهِ السَّكْمَةُ سَاقِطَةٌ مِنْ م

(٢) أَلْفُ الْجَاهِظِ كِتَابُ : (الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ) لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ
التُّوفِيُّ سَنَةَ ٢٤٣ . فَتَنَعَهُ خَمْسَةُ آلَافٍ دِينَارًا ، كَمَا أَلْفُ كِتَابُ : (الْحَيَوَانُ)
لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فَتَنَعَهُ مِثْلُهَا ، وَكِتَابُ : (الْيَانِ) لِلْقَاضِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ
فَتَنَعَهُ كَذَلِكَ . مَعَ الْأَدْبَاءِ ١٦ : ١٠٦ . وَجَاءَ فِي الْحَيَوَانِ ١ : ٤ نَظِيرُ هَذَا التَّمْنَى
مَوْجُودًا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ : « وَعَبَقْتُ بِكِتَابِ الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالزِّيَّاتِ
وَالْأَعْنَابِ » .

(٣) السَّكْمَةُ مِنْ م

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهها
كان أهون في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .

فأى شيء بقيت للعدو المكاشف والنافق^(١) الملاطف ، وللمعتمد المهر^٢
وللقادر المدل^٣ .

ومن عاقب على الصغير بمقوبة الكبير ، وعلى الخفوة بمقوبة الإصرار ،
وعلى الخطأ بمقوبة العمد ، وعلى معصية المتستر^(٤) بمقوبة معصية المعلن^(٥) ،
ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأفاصي والأداني ، عاقب على الزقي
بمقوبة السرق^(٦) ، وعلى القتل بمقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب
العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب . ومن خرج من جميع الأوزان وخالف
جميع التعديل ، كان بغاية العقاب أحق ، وبه أولى^(٧) .

والدليل على شدة غيظك وغليان صدرك قوة حركتك وإبطاء فترتك ،
وبُعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب ، وعلى كظم الذنب^(٨)
تمسك الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدة الضوالة .

وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .
ولا أعلم نارا أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركة أضعف

(١) م : « وللموافق » .

(٢) في الأصل : « للستر » ، وأثبت ما في م . وفي ط نقلا عن ب : « السر » .

(٣) في الأصل : « للعائد » صوابه في م ، ب .

(٤) السرقة كسب وكنف : السرقة . وفي م . « السرقة » .

(٥) في الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .

تقوّة الأبدان من طلب الطوائف^(١) مع قلة المدد. والجهل بمنافع الجمّام^(٢) ، وإعطاء الحالات أقصاها من التدبير .

٩٣ و

ولا أعلم تجارة أكثر خسرانا ولا أخف ميزانا من عداوة العاقل [العالم]^(٣) ، وإطلاق لسان الجائس المدخل ، والشعار دون الدثار^(٤) ، والخاص دون العام .

والطالب - جعلتُ فداك - بمرض ظفر ما لم يخرج المطلوب ، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا تخرج إلى العدو إلا ومعك من القوى ما يفر^(٥) الفضلة التي ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضا من حزم يحدرك مصارع البنى ، ويخونك ناصر المطلوب^(٦) .

وبعد - أبغاك الله - فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغیظ عذاب . ولربما زاد القسّي في الغيظ ولم ينقص منه . ولست على يقين من نفوذ سهمك في صيدك^(٧) [كما أبقت بموضع النیظ من صدرك] .

(١) الطوائف : جمع طائفة ، وهي النور والدحل ، يقال : طلب بنى فلان بطائفة ، أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمّام ، كجباب : الراحة : م » الجمّام » تصحيف .

(٣) التسكّة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفي اللؤلؤ : « هم الشعار دون الدثار » ، يصغوم بالوادة والقرب . وفي حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) في الأصل : « مالا يفر » ، صوابه من م .

(٦) أى من نظبه . وفي الأصل : « ويحرك ناصر الظلوم » ، صوابه في م .

(٧) في الأصل : « صدك » . صوابه من م رواية عن ب والتسكّة بعده من ب .

والحازم لا ياتمس شفا، غيظه باجتلاب ضيقه ، ولا يطفى نار غضبه تأخر عقوبة من أغضبه ، ولا يدد سهمه إلا والغرض ممكن ، والغاية قريبة ، ولا يهرب إلا والمهرب معجزة .

إن سلطان الغيظ غشوم ، وإن حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طباع شيطان ، والهوى بتصور في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف إلا كل معتدل الطباع ، ومعتدل الأخلاق مستوى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى . فما ظنك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيظ ، ولا سيما من قد تعود إهمال النفس ولم يموّدها الصبر ، ولم يعرفها موضع الحفظ في تجرع مرارة الغنى ، وأن المراد من الأمور عواقبها لا عوالمها^(١) .

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط الشرور فما ظنك بإفراط الغيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يؤرث الغفلة ، ولا في السكافية إذا كان يؤدى إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان يخرج إلى البلدة^(٢) .

جعلت فداك . إن داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داء نمامل ، وسقمه سقم مفاول ، ومعه من التمثيل بقدر قسطه من أناة العيرة السوداء . وداء

(١) في الأصل : « عوالمها » ، صوابه في م .

(٢) في الأصل : « كثرة الغنى » ، صوابه في م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والفاء في الأمور .

الغيظ سفينة طيَّاش ، وعَجُولٌ فحَّاش ، يُعَجِّلُ عن التوبة ، ويقطع دون الوصية ، ومعه من الخُرْقِ بقدر قسطه من التهاب اليرَّةِ الحراء . [والعجول ٩٣ ظ يُعْطَى وإن ظفِرَ ، فكيف به إذا أَحْفَى . على أن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفره لا ينتقص من مقدار زلله ^(١)] . وأنت روحٌ كما أنت وحشٌ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة في الذَّفَقِ والعناق أسرع ، وحدها عن الغلاظ الجفَاء أكلٌ ؛ فذلك اشتدَّ جزعى لك من سلطان الغيظ وغلبته .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت سر الباطل ^(٢) ، ووردت ^(٣) القطن كَلِّها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفادت نتائجك ، وقتلت كلَّ شيطرنجى لك ، ورفعت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت الروح كَلِّها حَمَى ، وكنت صدق المرادين ^(٤) ، وبرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى في صورة أبى رملة ^(٥) ورددت شطاط خَلْقِكَ إلى جمودة أبى حنة ^(٦) وكنت أول من سنَّ بيع الرجال في النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المقالم ، وحوّلت إليك عقل أبى دينار ، وطبعت على بيان مانويّه ، وأعنت على موت المنعم ، وغضبت لمصرع الأفشين ^(٧) ، واستجبت للديك الأبيض

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) في الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت في ط : « جزم للردان » .

(٥) لم أحده ذكر آ في كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبى حنة الثاني .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : النطول وحسن القوام . والجمودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح المعزة وكسرها . كافي وفيات الأعيان ٢ : ٦٥ . واسمه =

الأفرق^(١) وأحببت صالح بن حنين^(٢) ، وأحوجتك إلى حاتم الريش^(٣) ،
وكان أبو الشَّامِخَ صديق ، والفارسي من شيعتي - لكان ما تركبني به سرفاً ،
ولكنت في هذا العتاب^(٤) متمذياً .

جملتُ فذاك ، لا تمرضن لعداوة عقلاء الرواة ، ولضعف حفاظ
المثالب ، وللسان من قد عُرِف بالصدق والتوخي ، وبقله الخطل والتكسب^(٥) ،
ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت الذَّهَبَ عنه واسعاً . ولا تعاقب
واذا وإن اضطررك الواد ، ولا تجعل طول الصُّحبة سبباً للتضجر ، واصبر
على خلقه فإن خلقه خير من جديد غيره . وصداقة المتعارف تحرور^(٦) ،

== خيذر بن كلوس ، وكان مقدم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فعليه هو
وبابك ومازريار في سنة ٢٢٦ .

(١) الأفرق : للفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في
حواشي ط . وكفة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من
الأصل وثانية في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق
يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٣٠٧ ، ٢٥٩ ولكنهم أيضاً
كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢ : ٣٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البضاء الثقلاء ، ذكره أيضاً في البغلاء ٦ . قل الجاحظ :
« ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين
وإلى ابن النواء وإلى بعض البضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فائرة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبي الواسع ،
وقتيبة ، وحسين بن الضحاك . الأغاني ٦ : ١٠٤ . وصماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥
« حاتم الريش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافاً لما في الأصل .

(٥) التكب ، أراد به العدول عن الصواب والحق وفي الأصل : « التكسب »

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملائة الصديق أفن ، والعلم بأقدار^(١) الذنوب غامض ، وحدود الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يحمل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار^(٢) . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نَجَم ، وعُشُّ الذي منه دَرَج ، ومغْرِسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التَّابِع والتَّزَع^(٣) ، وفي النزوع والثبات ، وإلى قِبحته عند التَّزَع ، وإلى حياته عند التعريض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية^(٤) ؛ فإنَّ فَضْل و ٩٤ الفطنة ربما دلَّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالَّة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدةٍ مرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في التقدير ، أو من طريق [فرط^(٥)] الأنفة وغلابة طباع الحمية من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زينت له من عمله ، وأنه مقصَّره مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبالغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه .

(١) في الأصل : « ما قرار » .

(٢) في الأصل : « الأقدام » .

(٣) التابع في الشيء : التفات فيه والإسراع إليه . والتزع : التسرع إلى الشيء .
وفي الأصل : « التابع والتزع » والوجه ما أثبت .

(٤) للراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التي لا يفهمها إلا القطن . ومنه التورية البلاغية التي يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه .
وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً قرأ بغيره ، أي ستره .
وكي عنه وأوم أنه يريد غيره . وفي الأصل : « التورية » تحريف .

(٥) التسكدة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجارى ،
فليس يقف عليها كريم ، [ولا يلتفت لها حليم^(١)] .

ولست أسميه بكثرة معروفة كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه
غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع
للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلم ترض لصاحبه
بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم
من الأشراف .

ومتى كانت علتة طبيعة البذاء^(٢) ، وخلقة الشرارة والتسرّع^(٣) ، فاقنله
قل العقارب ، وادمغه دمع رموس الحيات .

وإذا كان من لا يسيء فيك القول ، ولا يرصدك بالكروه إلا لتمطيته
على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفدك ، واحتل
في منعه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيت على هذه الشريطة ، وأعظمت
من هذه الحكومة فقد شاركت في سب نفسك ، واستدعيت الألسنة
البذيئة إلى عرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وأنت فيه قسيمه^(٤) ، إلا أن عليك
غُرمه ولك غُنمه .

(١) التسكلة من ب .

(٢) في الأصل : « البذاء » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت في ط :
« البذاء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر شرأ وشرارة ، بضم شين المضارع وكسر ها .

(٤) في الأصل : « قسمة » .

ومن العدل الخس والإنصاف الصحيح أن نحدِّثَ عن الحمود نصفَ عتابه ، وأن تقتصر على [بعض^(١)] مقداره ، لأنَّ ألمَ حسدِهِ لك قد كفَّاكَ مؤونة شَطَرٍ غيظِكَ عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرضْ له البتة ، [ولا تلتفتْ لِفَتْنِهِ^(٢)] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تقترِ بقوله إني وادٌّ ، ولا تحكِّم له بدعواه بأنِّي جدٌّ وامق . وانفاز أنت في حديثه وإلى تخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقتيه وطبيعته ، وإلى خالفه وحليقته ، وإلى تصرفه وتصميمه^(٣) وإلى توقُّفه وتَهَوُّره . وتأملْ مقدارَ جزعه من قلةِ اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عن انصرفِ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلُّه من الشر وتعرضه له ، وإلى مُداهنته وكشْفِ قناعه . بل لا تَقْصِرْ^(٤) له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالَّت الأيام وكثرت الشهور ، حتى تنقظم الحالات ، وتستوى فيه الأزمان .

نعم ، ثُمَّ لا تحكِّم له بذلك حتى تكون حاله مقصورةً على محبتك ، ومحنوةً على نصيحتك ، بالعلل التي توجب الأفعال . والأسباب التي تدخّر القنوب للودّات ، كالأعمال الثابتة في الصنعة ، والأسباب للوجود مع مولى

(١) ليست في الأصل .

(٢) التكلفة من ب .

(٣) التسميم : الضى في الأمر بعد إرادته . وفي الأصل : « نصحيه » .

(٤) في الأصل : « لا يقصر » .

العقاقة ؛ فإنَّ عليهما خلافٌ علل مولى الكلالة^(١) ، وخلاف علل الصديق الذي لم يزل يرى أَنَّهُ مثلك ، وَأَنَّهُ يستوجب منك استيجابك ، ولا سيما إذا كانت الصنعة أنت ابتدأتها ، وأنت أبو عذرتها .

فإنَّ أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تنقض له بأقصى الغاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل ، وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبر بيَّنه زور ، وكلُّ دلالةٍ فاسدةٌ . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشدَّ تثبيتاً من شهادات الرجال » . إلاَّ أن يكون في الخبر دليل ، ومع الشهادة برهان ؛ لأنَّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمانٌ من فسادٍ ما كان الإمكان قائماً .

وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يُحمد الإخوان ، ومتى صار تفضيل العنب وتقرُّب الشمر يورث الهجران ، ومتى تميَّزوا هذا التميُّز^(٢) وتهاكوا هذا التهاك ؟ ومتى صار تقديم النخلة ملةً ، وتفضيل السنبلة نخلةً^(٣) ؟ ومتى صار الحكم للتمجة نسباً وللكرمة صبراً ، ومتى^(٤) تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة ، ويحدث عنها حجة .

(١) الكلالة من القرابة : ما خلا الوالد والولد .

(٢) في الأصل : « التميز » .

(٣) في الأصل : « منعة » .

(٤) في الأصل : « وحق » .

٩٥ و

وقد كنا نَعْجَب من حرب البسوس في أَرْعَ نَابٍ^(١) ، ومن حرب بُعَاثٍ في خَرْفِ نَمَرْ^(٢) ، ومن حرب غَطْلَانٍ في سَبَقِ دَابَّةٍ^(٣) . فَنَحْنُ أَنْتَ بنوع من العَجَبِ أَبْطَلَ كُلَّ عَجَبٍ ، وَأَنْتَنَا بِكُلِّ غَرْبٍ ، وَحَسَنَ عِنْدَنَا كُلَّ قَبِيحٍ ، وَقَرَّبَ عِنْدَنَا كُلَّ بَعِيدٍ .

فَإِنْ جَهَلْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - غَضَبَكَ فَتَلَى جَهْلَ مَلَأَعَلَةَ لَهُ ، وَإِنْ عَجَزْتُ عَنْ احْتِمَالِ عِقَابِكَ فَتَلَى ضَعْفَ مَالَا يَطْبِقُ حِمْلَهُ . وَلَا عَارَ عَلَى جَارِعٍ إِلَّا فَيَا يُمْكِنُ فِي مِثْلِهِ الصَّبْرُ ، وَلَا لَوْمَ عَلَى جَاهِلٍ فَيَا لَا يَنْجِيهِ فِي مِثْلِهِ التَّفَكُّرُ .

وَأَيْسَ هَذَا أَوَّلُ شَرِّكَ نَصَبْتَهُ ، وَلَا أَوَّلُ كَيْدِ أَرْنَعْتَهُ ، وَلَا هِيَ بَأُولِ رُبُوبَةٍ غَطَّيْتَهَا وَسَتَرْتَهَا ، وَحِيلَةٍ أَكْتَنَتْهَا وَرَبَّصَتْهَا .

وَقَدْ كَانَتْ التَّقِيَّةُ وَالْاِقْتِصَادُ أَسْلِمَ ، بَلْ كَانَتْ الْعَفْوُ أَرْحَمَ ، وَالتَّفَاقُلُ أَكْرَمَ .

(١) كَانَتْ لِبَسُوسٍ بَذَتْ مَنَقَذَ التَّيْمِيَّةِ . حَتَّى جَسَاسُ بْنُ مَرَّةٍ ، نَالَهُ يَقَالُ لَهَا «سَرَابٌ» ، فَرَمَى كَلْبِيَّ ضَرَعَ تِلْكَ النَّاظَةِ بِسَهْمٍ وَقَدْ رَأَاهَا غَرِيْبَةً فِي إِبْلِهِ ، فَاسْتَعَاثَتْ بِالْبَسُوسِ بِخَالَتِهَا جَسَاسٍ ، فَطَلَمَنَ جَسَاسٌ كَلْبِيَّا فَقَتَلَ . فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ لَذَلِكَ . الْعَقْدُ ٢١٣ : ٥ وَمَا بَعْدَهَا .

(٢) انْخَرَفَ بِكُسْرِ الْمِيمِ : زَيْدٌ صَغِيرٌ يَخْتَرِفُ فِيهِ أَطْيَابُ الرُّطْبِ . وَبَنَتْهَا : الْحَافِظُ مِنَ التَّخَلُّلِ . وَانْقَلَبَ لِحَرْبِ بُعَاثِ الْأَعَاثِيِّ ١٥٤ - ١٥٨ وَكَانَ ابْنُ الْأَثِيرِ ١ : ٢١٧ وَوَدَاعُ الْوَفَاءِ ١ : ٢١٥ حَيْثُ تَضَعُ لَكَ إِشَارَةَ الْجَاهِظِ إِلَى الْخَرْفِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكُسْرِهَا مَعًا .

(٣) السَّبَقُ ، بِالضَّرِيكِ : اتَّخَذَ يَوْضَعٌ بَيْنَ أَهْلِ السَّبَاقِ ، فَمَنْ سَبَقَ أَخَذَهُ . يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى حَرْبِ دَاخِسٍ وَالْبُرَاءِ ، حِينَ صَدَّ أَتْبَاعُ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ صَاحِبِ الْقُرْسِ الَّتِي تَسْمَى الْعَرَاءِ ، فَارْسَ فَيْسَ بْنِ زُهَيْرٍ وَكَانَ يُسَمَّى «دَاخِسًا» . فَثَارَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ عَبَسٍ وَدِيَّانَ ابْنِ بَيْشَنَ بْنِ رَيْثَ بْنِ غَطْلَانِ أَرْبَعِينَ سَنَةً . الْعَقْدُ ٥ : ١٥٠ = (١٦ - وَسَائِلُ الْجَاهِظِ)

ولا خير في عقوبة نشت العدو المتقادم^(١)، ويُنادى بها العدو الحادث .
والآناة أبلغ في الحزم ، وأبعد من الذم ، وأحد مدبّة ، وأبعد من خرق العجلة .
وقد قال الأول : « عليك بالآناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت موقّعهُ أقدر منك
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال^(٢) :

قد يدرك الثأني بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل لو قال : والثأني يدرك حاجاته أحقّ ، والمستعجل بقوت حاجاته
أخلق ، لكان قد وُفِيَ المعنى حقّه ، وأعطى اللفظ حظّه ، و [إن^(٣)] كان
القول الأول موزوناً والثاني منشوراً^(٤) . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من
العجلة لما قرّنه بالثأني . ويبني أن يكون الذي غلطه قولهم : « ربّ
مَجْلَةٍ تَهَبِرُنَا » . فجعل الكلام الذي خرج جواباً عند ما يعرض من
السبب ، كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .
فإذا سميتَ العمل مجلّةً وربّناً فاقضِ على الريث بكثرة القوت ، وبقدر ذلك من
العجز ، وعلى المجلة بقلة التّجريح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والريثُ والآناة في بلوغ الأمل وإدراك النّعمة كاتهاز الفرصة والاحتبال

= والأغاني ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ . وجمهرة أنساب العرب
٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) في الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامي . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر محاسن
ثعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقي ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « مبتورا » .

الفِرَّة . والأناة وإن طالت [فليست من جنس الريث^(١)] ، وانهاز القرصة وإن كان في غاية الشرعة فليس من جنس العجلة .

وريت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جُمِلَتْ حَقُّه ، وصارت هي حَقُّه
والدالة عليه دون غيره ، كالخزم والعلم ، والحلم والرفق ، والأناة واللدارة ،
والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمل^(٢) ، وكالتخرف والعجلة ،
والدهانة والتسرع ، والفلو والتقصير .

وريت كلمة تدور مع خلتها ، وتتقَاب مع جاراتها^(٣) ، وإزاء صاحبها^(٤) ،
وعلى قدر ما تقابل من الحالات ، وتلاق من الأسباب ، كالحب والبغض ،
والغضب والرضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجد والفتور^(٥) ؛
لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب التَّجَلَّة - أعزك الله - صاحب تفرير ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمده
طالم ، وإن لم يظفر قطعته للالوم . والريث أخو التعجزة ، ومقرون بالحسرة ،
وعلى تدرجة الثلاثة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالفهم ، ونفع نفسه
بشمرة العلم ، وأطاب ذكره دوام شكره^(٦) ، وحفظ فيه ولده . وإن حُرِم

(١) هذه الكلمة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهي من مقترحات ناشر ط .

(٢) في الأصل : « اليأس والأذن » وفي م : « اليأس والأمن » .

(٣) في الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما في م .

(٤) في الأصل وم : « وإرادة صاحبها » . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) في الأصل : « والفتوة » ، صوابه في م .

(٦) م : « وطاب ذكره » ، ودام شكره » .

فبسط عذره ، ومصوب رأيه مع انتاعه بعلمه وما يجد من عز حزمه ونبل صوابه^(١) ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء ، وبعذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان^(٢) لأسد بن عبد الله^(٣) وهو على خراسان ، حين مر به وهو يدهق في حبيسه^(٤) :

إن كنت تعطى من ترحم فارحم من تطلم^(٥) . إن السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جنة إلا الثقة بنزول الغير^(٦) ، ولا سلاح إلا الابتهال إلى موئى لا يمجزه شيء .

يا أسد ، إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مرتعه وخيم ، فلا تغتر بإبطاء العقاب^(٧) من ناصر متى شاء أن ينيث أغاث . وقد أملى لقوم كي يزدادوا

(١) في الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه في م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالداً على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجلال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان يده ولايتهما في سنة ١٠٦ وعزلاً سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفي الأصل : « في حبه » تحريف . وفي العقد ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسرى ، وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعض في حبيه ، وحول أسد مساكين يستجدونه ، فأمر لهم بدارهم تقسم فيهم » فقال الدهقان ... » .

(٥) في العقد : « إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم » الفعلان « يرحم » و « يظلم » بالبناء للمفعول .

(٦) الغير : اسم بمعنى تغير الحال . وفي الأصل : « التغير » .

(٧) في العقد : « الثيئات » .

إثماً^(١) . وجميع أهل السعادة إما سالم من ذنب ، وإما تارك للإصرار^(٢) .
ومن رغب عن التناذى فقد نال أحد الفئتين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية
له إلا دار الندوة^(٣) . وسوء - جعلت فداك - ظفنت بالبطش والنشم ،
أو ظفنت بالمدحس والدس^(٤) . فتاورز تلك ، وناظر حرملك ، وقف قبل
الوثبة ، واحذر زلة العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار الملاة وقد طبعته الاستطراف ، وجعل
الخطرة ذنباً^(٥) ، والذنب ذنباً ، ومقدار الطرفة إسراراً ، والصغير كبيراً ،
والقليل كثيراً ، عاقب^(٦) على المتروك الذى لا ينفياً به ، وبلغ بالبطش إلى حيث
لا بقيّة معه^(٧) ، ورأى أن القطيعة التى لا صلة معها ، والتخليج الذى لا تجل
معه ، الحرزم الحمود ؛ وأن الاعتزام فى كل موضع هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده
الذى لا يكذبه ، والمتأثر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما لا يهواه على

(١) إلى هنا ينتهى نص العقد . وفيه : « وقد أدلى لقوم ليزدادوا إثماً .
فأمر أسد بالسكف عنه » .

(٢) فى الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا فى الأصل ، وجعلت فى ط : « الشقوة » .

(٤) الدحس : التدسيس للأمور تسبيلها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) فى الأصل : « وعاقب » ، والواو مقسمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم اللباسة فى الإفساد .

ما يهواه^(١) ، ولم ينصر تالفة الإخوان على الطارف ، ولم ينصف الملول المبتدع من المستطرف المقرب ، ولم يخف أن تجذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجُبَيْهِمَا ، ويصور صورهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضهما على جباذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلا من لا يدرى أي النوعين يبني ، وعلى أيهما يحامي ، وأيها دواؤه وأيها دأؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورطاً في الخطاء مغموراً بالدم^(٢) .

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، وكأنك تشير علي من غير أن تنصني . وتقول : إني لأعجب ممن ترك دقات علمه متفرقة مبثوثة ، وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتجزم^(٣) ، وكيف لا يمتنعها من التفرق^(٤) . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حيزامته^(٥) ، وانحلَّ شِدَادُهُ ، وتغرَّمت رُبُّطُهُ ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنَّة ، تفرَّق ورقه ؛ وإذا تفرَّق ورقه اشتدَّ جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربما ضاع أكثره . والذَّفَّتَانِ أجمع ، وضُمَّ الجلود إليها أضوَن ، والحزْم^(٦) لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تُنظَّم وللأشياء أن تُؤلَّف ؛ فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالدمب » .

(٣) التجزم ، من الجزم وهو القطع . وفي م : « للتجزم » من الحزم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزامة والحزام : اسم لما شديده .

(٦) الأصل : « والحز » ، صوابه من م .

يحدث للتساوى^(١) في الضعف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أفضاها ؛ فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منفلومة ، ومعروفة المواضع معلومة ، لم نحتاج إلى تغليب القاطر على كثرتها ، ولا تنقيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤوتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وأدخرت تلك القوة لنوايب غدك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، واضطناك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن^(٢) وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقاً في الصدور ، ولا مبدأ في الدفائر ، ومفرقاً في القاطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحموده ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحدث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة واثق ، أو رأي خضر أو حكمة

(١) في الأصل : « للتساوى » ، وأثبت ما في م .

(٢) تكملة أبو العباس أحمد بن يحيى تطلب قديماً في أماليه ٦٣ - ٧٠ بيان نسخ القرآن وأمثاله وأرباعه وأخامسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأنساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعمرج . وكذا فعل الجبستانی بعده في الصحاف ١٢٥ - ١٣٠ . رواية عن حميد أيضاً .

نَبَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملَك ، أو علمٌ فاض فلم يُرَد ، استعماله من استعماله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحَظَّ عنايتك من النَّقْل^(١) ، وجمعتُ البعض إلى البعض^(٢) ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدَّمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصَّنَاع ، وفي تحيُّر البياعات^(٣) ، وغرمتُ المال ، وشغلتُ البال ، وجمعتها مصحفاً مصحفاً ، وأجبتها صينفاً صينفاً ؛ ورأيتُ أني قد أحكتُ شأني ، وجمعتُ إلى أقطاري ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستأنق ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهرتُ على تعب البدن ؛ إذ كانتِ الأسافل مُثقلة بالأعلى ، وإذا كان الانتصاب يُسرِّع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوَّة الناظر ؛ إذ كُلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدي بِثقل جرِّمه ، وضيق صدرى بِخفاء حجه . وإذا نُقِلَ أنسكأ الصدر ، وأوهن العظم .

(١) في الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » . قرونة بآل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن القفيع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً . قال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعماله الناس حتى سيويه والأخفش في كتبهما قلعة علمهما بهذا النحو ، فاجتلب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهري : « الصوريون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباه الأصمعي » . اللسان (بعض) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سَدَرْتُ عَيْنِي^(١) ، وتَقَوَّسَ ظَهْرِي ،
واجتمع الدَّمُ في وَجْعِي ، وأَكْرَهْتُ بَصَرِي على غير جِهَتِهِ ، وأَجْرَبْتُ شِعَاعَ
نَاطِلِي في غير مَجْرَاهِ .

٩٧ و

وقَدْ عَلِمْتَ - أَبْنَاكَ اللَّهُ - مع خَيْرَتِكَ بِمَنَافِعِ الْأُمُورِ ، وَمَوَاقِعِ النِّفَاحِ
وَالْمَضَارِّ ، ثُمَّ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، أَنْ مَنْ كَانَ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ ، أَوْ عَلَى
شُرْفَاتِ قَصْرِ ، فَأَرَادَ رُؤْيَا السَّمَاءِ عَلَى بُعْدِهَا ، وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ سَهْلًا
حَقِيقًا ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى الْأَرْضَ عَلَى قُرْبِهَا ، وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ عِثَا
ثَقِيلًا . فَإِنْ بَدَأَ أَنْ يُقَابِلَ عَيْنِي بِهِ الْعَبْدُ ، أَوْ تُوَاجِهَنِي بِهِ الْأُمَّةُ ، كَلَّفْتُ
أَخْرَقَ النَّاسَ كُفًّا ، وَأَقْلَاهُمْ وَفَقًا^(٢) ، وَأَكْثَرَهُمُ التَّفَانَا ، وَأَحْضَرَهُمُ نَعْمَا ،
وَأَقْلَاهُمْ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ثَانَا ، وَأَجْبَاهَهُمْ بِمَقْدَارِ الْمَوَاقِفَةِ ، وَلِمَقَادِيرِ الْقَابِلَةِ ،
وَبَحَلَّ الْيَدَ وَرَفَعَهَا ، وَإِمَاتَهَا وَنَصَبَهَا . ثُمَّ رَأَيْتُ فِي تَضَجُّرِهِمْ وَتَسْكُرَتِهِمْ
وَفِرَارِهِمْ مِنْهُ ، مَا صَبَّرَ تَجَشُّمِي لثَقَلِ وَزْنِهِ ، وَمُقَاسَاتِي لَجَفَا حَبْثِهِ ، أَهْوَنَ عَلَى
يَدِي ، وَأَخَفَّ عَلَى قَلْبِي . فَإِنْ تَعَاظَيْتُهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِنَفْسِي فَشَفَا حَاضِرٌ ،
وَإِنْ أَلْزَمْتُهُ غَيْرِي فَنِيظٌ قَاتِلٌ . وَحَتَّى صَارَتْ أَخَالُ فِيهَا دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِ دَرَسِهَا
وَالْعَاوِدَةِ لِقَرَاءَتِهَا ، مَعَ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْفَائِدَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالنِّفَاحِ الْجَامِعَةِ ، وَمِنْ
سَحْذِ الْعَلِييَةِ ، وَتَحْكِيمِ حُسْنِ الْعَادَةِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الشُّغْلُ عَنْ خَوْضِ الْخَائِضِينَ ، وَالْبَعْدُ عَنْ هَوَى
الْأَلَهِينَ ، وَمِنْ النِّبْيَةِ لِلنَّاسِ وَالْتِمَاسِي لَهَا فِي أَيْدِيهِمْ ، لَقَدْ كَانَ نَفْعُ ذَلِكَ كَثِيرًا ،
وَمَوْفَقُهُ مِنَ الدِّينِ وَالْفِرَاضِ عَظِيمًا .

(١) سَدَرَ بَصَرَهُ سَدْرًا : تَحَبَّرَ فَلَمْ يَكُنْ يَبْصُرُ . (٢) الْوَفَقُ : بِالْفَتْحِ : الْمَوَاقِفَةُ .

ومتى نُقِلَ الدرس تناقلت النفس ، وتفاعست الطبيعة . ومتى دام الاستغفال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ السكدرَ سَخَّ الزُّهْدُ . وفي ترك النظر عَمَى البَصَرُ ، وفي إهمال الطبيعة كلال حدِّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنَّه على قدر غريرة العقل تصحُّ الخواصِّ^(١) وتَسَقُّ ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرك الجراحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرف يحدث العي ويظهر العجز ويبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان^(٢) يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

٩٧ ظ قد بلغت ما أردت ، ونيت ما حاولت . فحسبك الآن من شج من بأسوك ، ومن قتل من يقتل فيك .

جُمِلت فداك . إنه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجد . وليس يُنجينى منك مَعْقِلٌ وَعِل ، ولا مَفَازَةٌ سَبْعٌ ، ولا قَمَرٌ بَحْرٌ ، ولا رَأْسٌ طُودٌ ، ولا دَعْلٌ ولا دَحْلٌ^(٣) ، ولا نَفَقٌ ولا مَفَارَةٌ ولا مَطْمُورَةٌ . وليس ينجينى منك إلا مَفَازَةُ الْمَهْلَبِ^(٤) . فإن أعرتى قلبه وعَلَّتْنِي حيلته ، وأمكنَتْنِي من سِكْنِيهِ . وإلا فأنا أول من ابتلعت تلك الحية . ولا والله إن بي

(١) فى الأصل : « الجوانح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بهذا مصحفاً ناسخ ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) السفل بالتحريك : الشجر الكثير للثقف . والسحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يوسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوة على الثعبان^(١)، فكيف الثنين. أعفني من حبة المهلب ثم اقتلني أي قتل شئت.

إن احترست منك ألفت نفسي كذاً شديداً، وغماً طويلاً، وطال اغترابي وافترقي الآق، وتعرضت للعدو، وتعرضت بالسباع. فإن استرسلت إليك لم تر أن تقتلني إلا شر قتل وآلها، ولم تعذبني إلا بأشدّ التعم وأطولها. ولو أردت ذبني لاحتريت الكليل على الشرف، والتقلويل على التذفيف^(٢)، حتى كأني علمت عليك: «شاه مات»^(٣)، أو أكلت سبعة وأطمعتك واحدة.

ولقد تقدمت في السكر واستظهرت على في الكيد، حتى توليت ذلك في صغار كتي وفيما لا تحفل به من دوام أمرى، وعلمت أن الدرس قليل وأن الال... .^(٤) للنهار، وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلاً والنيران زاهرة، والصاييح مقربة. وعلمت أن كل من ضف بعصره وكل نظره، فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم ناراً. وأن^(٥) الحرور المحترق، والممرور اللتهب، والبائس المتهافت، إذا كان صاحب كتب ودرس، أنه لا يجد

(١) أي ما بي قوة عليه.

(٢) التذفيف بالبدال للعبة: الإسراع في القتل.

(٣) أي لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشرطيح من قول صاحبه له: «شاه مات».

(٤) يياض في الأصل. وإزاء في هامش النسخة «حراوبه».

(٥) في الأصل: «فإن».

بداً من الصبر على ما يخرقه ويُعميه ، أو التلذذ للقراءة فيها والتعرض لها .
تخبرني بين العمى والجهل ، وما فيهما حظٌ مختار .

وقلت : إذا سجن^(٢) بدنه سجن بوله ، وإذا سجن بوله جرح مثاقفه
وأحرق كليته ، وطبخ فضول غذائه ، وجفف ما فضل عن استمرائه فأحاله
حصي قاتلاً وصغراً جامداً ، وهو دقيق القضيبي ضيق الإحليل ، فإذا
حصاه بورثه الأسر^(٣) ، وفي ذلك الأسر تافُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن ابتليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب
عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره . ٩٨ و

جعلتُ فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التثنع
لنوامض السألة ، والتعرض لدقائق انكروه ؟ ! وما هذا التغافل في كل
شيء يُجمل ذكرى ؟ ! وما هذا الترقى إلى كل ما يحبط من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتهى كلها من الورق الصيني ، ومن السكائد
الخُراساني ؟ !

قل لي : لِمَ زينتَ النسخ في الجلود ، ولم حشيت على الأدم ، وأنت
تعلم أنَّ الجلود جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن كان
يَوْمٌ لثقي استرخت . ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول الغيث ،
وتسكروا إلى مالكيها الخليا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

(١) في الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . في الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمت أن الورق لا يخط في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها جلدا . وإن نديت - فضلا على أن تُملأ ، وفضلاً على أن تفرق - استرسلت فامتدت . ومتى جفت لم تمد إلى حالها إلا مع تقيض شديد ، وتشجج قبيح . وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً ، وأحلى للفس : يفس الكوفي بالواسطي ، والواسطي بالبصري ، ونعتق لكي يذهب ريحها وينجأ شعرها^(١) . وهي أكثر عقدًا وعَجَرًا ، وأكثر خباطًا وأسقاطًا ، والصفرة إليها أسرع ، وسرعة انسحاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب علم أن يعمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه جل بعير . ولو أراد مثل ذلك من القطي^(٢) لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فاتها أحمل للحك والتغير ، وأبقى^(٣) على تعاود العارية وعلى تغليب الأيدي ، ولزديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، وللعاد منها ينوب عن الجدد . وليس لدقات القطي ثمنان في السوق وإن كان فيها كل حديث طريف ، ولطاف مريح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم عذها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ، لكانت أئمن ، ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكاك والعهود ، وفي الشروط وصور المقارنات . وفيها تكون نموذجات النقوش ،

(١) في الأصل : « شعره » .

(٢) أى المنوع من القطن .

(٣) في الأصل : « وأبقى » .

ومنها تكون خرائط البرد^(١) . وهنّ أصلح للجرب ولعناص الجرة وسداد القارورة . وزعمت أنّ الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون القارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبباً للضرة في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبباً البائية في تحويل الدفاتر الخفاف في التحمل ، إلى المصاحف التي تُثقل الأيدي وتحطم الصدور ، وتفتوس الظهور ، وتعمى الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلّد^(٢) ، وألاّ يروموا جمع شيء من أبواب التعلّم بين الدفّتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم .

دع عنك كلّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدي يحيى ذكرى ويحوى ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا بأكله مرأى يرصّدي ، وابن عمّ يحسّدي ، ولا يرتع فيه المعدّلون في زمان السوء^(٣) ، ولا تصطنع فيه الرجال ، ويقضّى به الذّمام . فقد رأيت صنعهم في مال الفقود والناسخة^(٤) والوارث الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الحرق أو الأدم تخرج على ما فيها . والبرد : جمع برید .

(٢) الجاحظ استعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد في نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) الناسخ والناسخة في الميراث : موت وورثة بعد وورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

جُعِلَتْ فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى السَّكَّالَةِ^(١) بما تجود به لأولاد الأصلاب وما منَ تلك الأصلاب ؛ لأنَّ الرحم للسَّائِة والقراية للمتصقة ، والأخمة للمتخمة ، وإن أملت التركة ونازعت إلى المورث ، فمهما ما يطرأها ويثنيها ، ويحزنها ويبكيها ، ويحرك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد إلى أبيه حالَّ أبيّة كانت من أبيه .

وابن العمّ الذي ليس بالعبيد فيحْتَك من جسده ، وليس بالتقريب المحنوّ على رَحِمه ، وسببه الجاذب^(٢) له إلى تمّنى عمّاني أمتن من سببه إلى تمّنى بقائي ، وهو إلى الحال الموجبة للفسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة والمعطف . وليس بنصرك إذا نصرك ولا يحامي عليك لقرابته منك ، ولسكن لعله بأنّه متى خذلك حلّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوّه . فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوّى ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه .

٩٩ و

جُعِلَتْ فداك . ما كان عليك من بُنيّ صغير يكون لي ، ولا سبّا ولست عندك ممن يُدرّك كسبه أو تُبلّغ نصرته ، أو يُعَيِّن بزه أو يؤمّل إمتاعه . وما كان عليك مع كثير سبّ وضعف ركنى ، أن يكون لي ريمانة أثمها وثمرة أضمتها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببا ، وإلى التلّهي سدا ، وأن تكسر لي من جنس سرور الحالم ، وبقدر ما يمتنع به راجي السُّرَاب اللامع ، حتّى حبّبت قِصَر عمرى إلى ولّئى ، وشوّفته إلى ابن عمّى ؛ وحَتَّى زدتَ فبا عنده

(١) السَّكَّالَةُ من القراية : ما عدا الوالد والولد .

(٢) في الأصل : « وسبب الجاذب » .

مع كثرة ماعنده ، وحتى صيرني حبه لموتى إلى حبّ موته ، وتأميل مالى
[إلى ^(١)] تأميل فقره ؛ وحتى شغلتنى عنى كان يشغل عدوى عنى .

وسواء أعيّت على ألا يكون لى ولذا قبل أن يكون ، أو عبت على
ألا يكون بعد أن كان . وإنما يعذب الله على النية والقصد ، وعلى
التوخي والعمد .

وكأنه سواء أن تحتال فى ألا يكون لى مالى قبل أن أملكه ، أو احتلت
فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لأدرى ما كان وجه حبك لإعنائى ، والتشديد بذكر ترائى ،
والتنويه باسمى ، ولألم زهدتنى فى طلب الولد ، ورغبتنى فى سيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلا لتعرض ذنبى للفقراء ، ولم تكثر
مالى إلا لتقوى العلة فى قتلى ، فيالها مكيدة ما أبعد غورها ، ويالها خفرة
ما أبعد قمرها . لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك .
وبعد الفاية .

واقفه لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها الهلب على
سفيان بن الأبرد ، وفُتحت على هرمة فى مكيدة خازم بن خزيمه ، ولو دبرها
لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد ^(٢) ، ولو أراغها ^(٣) قيس بن زهير على جعثن
ابن حذيفة ، ولو توجهت لكثبان بنى أسد على دُهاة قریش . - لقد كان ذلك

(١) ليست فى الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفى الأصل : « أذاعها » ، تحريف .

من تدبيرهم نادراً [بديهة^(١)] ، ولسكن في مكابدهم شاذاً غريباً . وإنها
لترتفع عن قصير في كيد الزبء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها
إلا ستدق على ابن العاص ، ونقص على ابن هند^(٢) ، ويكفل عنها
أخو ثقيف^(٣) ، ويسلم لها ابن سمية^(٤) .

هذا والله التدبير لا تخاريق القراف ، وتزويق الكاهن ، وتهاويل
الحاوي^(٥) ، ولا ما يتعلها صاحب الرئي^(٦) ؛ بل نضل فيها رفق الهند ، وتقر
بها سحرة بابل .

فكنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء .
للزانية ، ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت البر^(٧) ، ثم أذت مع العاقبة ،
ثم أعلت الحرمان ، ثم صرحت باللقوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت
الجليل ، ثم عادت واقتصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لـكنت

(١) التسككة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعني الحجاج بن يوسف .

(٤) يعني زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئي : جنى يتعرض للرجل بربه كهانة وطبا . يقال مع فلان رئي .
وقد أراى الرجل ، إذا صار له رئي من الجن . في الأصل : « صاحب الرى »
وقب : « يتمتع صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .
٢٠٣ : ٦ .

(٧) في الأصل : « الشتر » .

واحداً ممن يصبر أو يزعج ، فلمَّا كنت أعيش بالرفق^(١) ، وأتبع بحُشاشة النفس ، وأعلل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن خبايا الحوادث وبمَنَات البلاء لا يقوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبل الراسي . فلم تدع غايَةً في صرف ما بين طبقات التمزيب إلَّا أتيت عليها ، ولا فضول ما بين قواصم الظاهر إلَّا بلغتْها . فقد مِتُّ الآن فع من تعيش ؟ [بل قد قتلني قَمَن الآفِ تعاشر^(٢)] ، كما قال ديوسقوريدوس للفنِّي لكسرى حين أمر بقتله لِقَتْلِهِ تليذَه بهيذ^(٣) : قتلْتُ أنا بهيذ ، وتقتلني ، فمن يُطربُك ؟ قال : خلّوا سبيلَه ؛ فإنَّ الذي يبق من عمره هو الذي أنطقَه بهذه الحجة .

ولكنِّي أقول : قد قتلتنِي فع من تعيش ؟ أمع الشَّطْرُنجِيَّين ؟ ! فقد قال جالينوس : إِيَّاكَ والاستمتاع بشيء لا يَمُتُ نفعه^(٤) .

إنَّ الكلامَ إنما صار أفضل من الصمت ؛ لأنَّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصَّمت ، ونفع الكلام يَمُتُ القاتل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنَّك بالكلام تخبر عن الصَّمت وفضله ، ولا تخبر بالصَّمت عن فضل الكلام . ولو كان

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال . ولعل صوابها « الرمق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل « بهيذ » في هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما نفيه لذلك ناشرنا ط .

الصمتُ أفضلُ لكانت الرسالةُ صمتاً ، ولكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفُضِّلَ وميَّزَ وحُقِّلَ ، حيث قال : « رحم الله امرأة قال خيراً فغم ، أو سكتَ فسلم » . فجعل حفظ السكوت السلامة وحدها ، وجعل حفظ القول الجمع بين الفينة والسلامة . وقد يسلم من لا يغم ، ولا يغم إلا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة الثّعلبان : لم تر فينا جربنا من جميع الأصناف أبلغَ في خيرٍ وشرٍّ من صاحب .

ولثا عزم ابن زياد على الخفنة بعد أن كان تفحّشها قال له حارثة بن بدر : ما أحَدٌ أولى بتولّي ذلك من الطيّب . قال عبيد الله : كلا ، فأين الصاحب . والله أن لو تُنَجّت في كلِّ عام ألف شَبْدِيز^(١) ، وأُحِبّت^(٢) في كلِّ ليلة أربعة آلاف رجب ، وصار لك كلُّ نهر للبارك^(٣) بدلاً من بعض بابك^(٤) .

(١) الشبديز : ضرب من الحيل قائم اللون أصداً ، ولفظه فارسي . معجم استيعباس ٧٣١ . وفي الأصل : « سبدین » ، صوابه في ب .

(٢) في الأصل : « وقرت » وأثبت ما في ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احترقه خالد بن عبد الله القسري لمشام بن عبد الملك . وفي الأصل : « للبرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر في بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك . معجم البلدان (نهر الثابق) .

وأكلت رأس الجنيد بن حاق الأشيم^(١)، واحتلت ابن ألفز^(٢) من إفراط الشُّبِّي، لما كان ينبغي لك أن تعامانا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القِتلة، ولو اقتصرنا من العقوبة على شيء دون شيء، لكان أعدل، ولو عفوت البتة لكان أمثل.

إنَّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب يعرض لجأج. وليس يُعاقب إلا غضبان.

والغضب يملب العزم على قدر ما مكن، ويغير الله بقدر ما سُلط. والغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور الشكر لأهله.

والغضب يثقله الغضب، ويغلب به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلي بدنه رعدة، وتزاييل أخلاطه، وتنحل عُقده، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيد في دأته، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون مآدة لقواده. وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم.

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله، ولا يقصر في عاداته، لما وسوس إلى الغضببان ولا زين له، ولما أغراه ولا فتح عليه؛ إذ كان قد كفاه، وبلغ أقصى مُناه.

وليس يصارع الغضب أيام شبابه وعسرُ نابه شيء؛ إلا صرعه، ولا ينازعه قبل اتهاؤه وإدباره شيء؛ إلا قهره. وإنما يحتال له قبل هيجه،

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن ألفز: رجل من إباد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نسكاً. تمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال الميداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (أنكح من ابن النر) واللسان (لنز) وفي الأصل: « واحتلت بين النر »، صوابه في ب.

وَيُتَوَقَّعُ مِنْهُ قَبْلَ حَرَكَتِهِ ، وَ يُتَقَدَّمُ فِي حَسَمِ أَسْبَابِهِ وَفِي قَطْعِ عِلَلِهِ . فَإِنَّمَا إِذَا تَمَكَّنَ وَاسْتَفْضَلَ ، وَأَذْكِي نَارِهِ وَاشْتَمَلَ ، ثُمَّ لَاقَى ذَلِكَ مِنْ صَاحِبِهِ قُدْرَةً ، وَمِنْ أَعْوَاهِ سَمَاءٍ وَطَاعَةٍ ، فَلَوْ سَمَطَتْهُ بِالتَّوْرَةِ ، وَوَجَّرَتْهُ بِالْإِنْجِيلِ ، وَلَدَدَّتْهُ بِالزُّبُورِ^(١) ، وَأَفْرَغَتْ عَلَى رَأْسِهِ الْقُرْآنَ إِفْرَاقًا ، وَأَتَيْتَهُ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَفِيقًا لِمَا قَسَّرَ دُونَ أَقْصَى قُوَّتِهِ ، وَلَمَحَنِي أَنْ يُعَارَ أَعْصَافَ قُدْرَتِهِ .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب . ١٠٠ ظ
قال قتادة : ليس يُسْكَنُ الْغَضَبُ إِلَّا ذِكْرُ غَضَبِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ .
وقال عمرو بن عبَّيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . إِلَّا أَنْ يُرِيدَ
الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ^(٢) .

وَيَسْتَعِي لِلتَّوَجُّدِ غَضَبَانِ ، وَاللَّهُ كَوْرُ حَقُّودَا .

فَلَا تَقُفْ - حَفِظَكَ اللَّهُ - بَعْدَ مَضْيَكِ فِي عِقَابِي التَّامَّاتِ لِلْعَفْوِ عَنِّي ،
وَلَا تَقْصُرْ عَنِ إِفْرَاطِكَ مِنْ طَرِيقِ الرَّحْمَةِ لِي ؛ وَلَكِنْ يُفْ وَفَقَةٌ مِنْ يَتَهُمُ
الْغَضَبُ عَلَى عَقْلِهِ ، وَالشَّيْطَانُ عَلَى دِينِهِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ لِّلْعَقْلِ خَصْمًا ،
وَاللِّكْرَمِ أَعْدَاءً .

وإنَّ مِنَ النُّصْفِ أَنْ تَنْتَصِفَ لِعَقْلِكَ مِنْ خَصْمِهِ ، وَتَنْتَصِفَ لِكْرَمِكَ مِنْ
عَدُوِّهِ ، وَتُسْكِنَ إِسْمَاكَ مَنْ لَا يَبْرِئُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَوَى ، وَلَا يَبْرِئُ الْهَوَى
مَنِ انْطَاطَا .

(١) سَطَحَ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي أَتْنِهِ بِالسَّعْطِ . وَأَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي فَمِهِ
بِالْيَجْرِ . وَلَمَّه بِاللَّدُودِ : صَبَّه بِالسَّعْطِ فِي أَحَدِ شَقِي الْقَمِ
(٢) أَيِ إِنْ ذَكَرَ غَضَبَ الرَّحْمَنِ بِاللِّسَانِ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا مَرَادُهُ ذِكْرُ الْغَضَبِ
بِالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ .

ولا تُشكر لنفسِكَ أن تزل ، ولعقلِكَ أن يهفُو ؛ فقد زل آدمُ عليه السلامُ وهفأ ، وعصى ربَّهُ وعوى ، وغرتهُ عدُوُّه وخدعه خصمه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته^(١) . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمنه ، وأسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع اللغات . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع للعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له للدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي . والأسماء^(٢) في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معاني لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لاحت فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسم إلا وله معنى .

في قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(٣) ، إخبارٌ أنه قد علمه المعاني كلها . ولما نعى معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرابع ، وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهى ولا تنهاى . وليس لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسم إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شىء ، ومعنى .

الأسماء التي تدور بين الناس إنشأ وخيعة* علامات لخصائص الحالات ،

(١) في الأصل : « نغته » ، وأثبت ما في ب

(٢) في الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لتأنيح التركيبات . وكذلك خاص الخاص لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما نفع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتعيط بها وتشتمل .
فأما العلوم المبسوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنحى .

١٠١ و

فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما تعنى نهاية الصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوى وأنت أرضى ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع أولى بالضعف .

فلست أسألك أن تمسك إلا ربنا تسكن إليك نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الفيض والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدث ، وترى تضرثم الغضب^(١) وما يقضى لأهله من فضل القوة .

على أن العقل إذا تخلّس من سكر الغضب أصابه ما يصيب الخمور إذا خرج من سكر شرابه ، والنهزم إذا عاد إلى أهله ، والميرسم إذا أفق من برسامه^(٢) .

وما أشك أن العقل حين يطاق من إساره كالقيد حين يفك من قيوده : يمشي كأنزف ، ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك تحمزة داء الغضب بعد تخلفه ، وأن تعتمد بالعلاج بعد مباينته له وتخلصه

(١) في الأصل : « الغرض » .

(٢) الرسام : ذات الجنب . وهو التهاب في العشاء المحيط بالبرثة . العجم الوسيط .

من يده ، فما ظنك به وهو أسيرٌ في مُلكه ، وصريع تحت كلِّكته ، وقد غطّه في بحره ، وغمره بفضل قوته .

وقد زعموا أنَّ الحسنَ أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض المذنبين ، فسكَّمه فلم يَحِلْ بكلامه ، وخوفه فلم يَتَعَطَّ بزجره ، فقال : إنَّك إنما تضرب نفسك ، فإن شئتَ الآن فأقِلَّ ، وإن شئتَ فأكثِرْ .

ومعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والمصمِّمِ الناسي ، ولكي أقول : اعلم أنَّك تضرب من قد جعلك مِن قنله في حلٍّ . وإن كان القتلَ يحلُّ بإحلال المقتول ، وبسقط عنه عِقَابُهُ بهبة المفلوم ؛ ولو أمكن في الدين تَوَاضُعُ قِصاص الآخرة في الدنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة إلى التواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً - لسكنتُ أولَّ من أَسَمَحَتْ بذلك^(١) نفسه ، وانشرح به صدره .

١٠١ ظ

جُعِلَتْ فذلك ، إنِّي قد أَحْصَيْتُ جميعَ أسباب التماذى ، وحصلت جميع عِلَلِ التضاعن ، إلَّا عِلَّةَ عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإني لا أعرف إلَّا مجازَها في الجملة ولا أَحَقَّ خاصَّتِها على التحصيل . وعلى حال^(٢) قد عرفتُها من طريق الجملة وإنَّ جهَّتْها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنِّي فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عامٍّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرايات ، ونعاسُ الأشكال في الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرِّ وأسرعها إلى اللزوة والعقل ،

(١) في الأصل : « ذلك » . أَسَمَحَتْ : أطاعت وامتثلت .

(٢) كذا في الأصل وب . وإخفاها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعى إلى أن تجعل

« وعلى كل حال » .

وأندحها في العرض وأعطىها على الدين^(١)، التنازع على الموارث، والتنازع في نفوس الأرضين. فإن اتفق أن يكون بين المتنازعين في القرابة كان السبب أقوى، والداد أقوى. وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الحظ في الصناعة. ولتلك كتب عمر رضي الله عنه إلى قضاته: أن ردوا القرابات عن حراً التخصا^(٢) فإن ذلك يورث التضامن. ولم أنجب من دوام ظمك، وثبانك على غضبك، وغائط فلبك، ودورنا بالعسكر متجاوزة، ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة، ونحن ننظر في علم واحد، ونرجع في التعلية إلى مذهب واحد؛ ولكن اشتد بحبي منك اليوم وأنا بقرعانة وأنت بالأندلس^(٣)، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب رجاج، وصناعتك جودة الخط وصناعتى جودة الحو^(٤)، وأنت كاتب وأنا أتمى، وأنت خراجى وأنا غسرى، وأنت زرعى وأنا نحلى. فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من نعيم، كان ذلك^(٥) إلى العداوة سبباً، وإلى المنافسة سداً.

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية، وأنت طويل وأنا قصير، وأنت أصلع وأنا أزع، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير، وأنت ركين وأنا عجول، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أودعيرك، ونفع لجميع الرعية، وتبلغ

(١) الخطب: الجمع للعيد والردى، والمراد الإفساد.

(٢) الحرا: الساحة والناحية. وفي الأصل: «حر القضاء»، مع ضبط الحاء بالفتح.

(٣) مرغنة، بالفتح: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لتركستان.

(٤) كذا في ب وفي الأصل: «التجوم».

(٥) في الأصل: «كان لك».

بتدبيرك أقمى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أمتى وعبدى .
 وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت مصطنع وأنا
 صفيعة ، وأنت تفعل وأنا أصرف ، وأنت مقدم وأنا تابع ، وأنت إذا بازعت
 الرجال وناهضت الأكنفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت
 قلت كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت
 الأمور على حقائقها ، وسلت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد
 قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تسكمت^(١) نعمت ، [وإن جازيت
 أبدعت^(٢)] ورأيي كله ذرى . وأنت تمد في الشطرنج زبر ، وأنا في
 الشطرنج لا أحد^(٣) .

١٠٢ و

وما أعرف هاهنا اجتماعاً على مشكلة إلا في الإيثار بغز الخشكار
 على الخواري^(٤) ، والباقي على الجوزينج^(٥) ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة .

(١) م : « حلت » .

(٢) التسكمت من م وفيها : « جازيت » ، وفي ب : « وإن جازيت هربت » .
 أبعد ، بالبناء للمجهول وللعلوم أيضاً : كلت راحته أو عطلت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) في الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الحشكر : ما خشن من الطعن ، فارسيته خشكار ،
 وهو القصرى » . وانظر استيعاب ٤٠٣ . والبخل ٨٤ . والقصرى ، كبرى :
 ما يبق في الشخص بعد الاستئصال ، أو القشرة العليا من الحبة . والخوازي يضم الحاء
 وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .
 (٥) الباقي : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بخفيف اللام مع اللد :
 الحب للرووف بالقول والجرجر ، وهو الباقلاء البظية . أما الباقلاء السرية
 فهي الترمس . اللسان ، وتذكره داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع
 من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جُرمي في مساوانك في خبز الخشكار ، وإيثاري الباقي ،
والمعرفة بتقدير اللذن وإجراء التقى ، أن أتقى من جميع الأرض ، وأن تجعل
في دمي الجمائل ^(١) : فإني قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ، ونزلت
الوبر بدلاً من اللذر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به علياً ، وكفى به شهيداً ،
وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بهجراً من يلقه مالا يعلم جرأة وتعزساً ،
وكفى بحاله عند الله بُعداً ومقتاً - لقد أردت أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ،
وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الملك ، فرأيت أن من انطيانة
لك ومن اللوم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة ، وأن أريك أنني قد
جُدت لك بأنفس علق والعلق معدوم . ليس أن من قد فذاك فقد جعل
فذاك ، ولسكتها نهاية من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد .
ومن أعلن الاجتهادك واستسر خلاف ذلك فقد نافق وخان ، وغش
والآثم ^(٢) . وأخلق بمن أخل بهذه ألا يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحة
ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا تشفيك من السم للجهاز ، ولا السم الساري : فإنه أبعد غاية
في التطويل وأبلغ في التمزيب . لا ولا لعاب الأفاعي وداهية الدواهي ، فإنه
يُعجز الرقى ويقتو دَرع الأمباء . لا ولا نار الدنيا ، بل لا تشفيك من نار
الآخرة إلا الجحيم ، ولا تشفيك من الجحيم إلا أن أرى في سوانه ^(٣) وفي

(١) الجمائل : جمع جمالة . وهي بتلث الجيم ما يجعل في مقابل العمد .

(٢) الآثم : آثى بما يلام عليه .

(٣) سواء الشيء . وسطه .

أصلطه ناره^(١) ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصميم من طيبه . بل لا تسكنني بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الحاوية ، بل لا ترضى إلا بعذاب آل فرعون ، أشد العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي زين الخمر للعباد ، وبثه في البلاد ، والذي خطأ الرب وعادته وردّ قوله ، وغير عليه تدبيره ، ولم يزد إلا شكاً ولجاجة ، وتمادي^(٢) وإصراراً . ثم لم يرض من الجدة في مخالفة أمره ، وحلّ العذار في شدة الخلاف عليه إلا بأن يعلف على شدة اجتهاده في ذلك بمرته ، فجعل المرأة اللائنة من إسقاطه سبيلاً إلى إسقاطه ، والقسم المجاز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبعرّتك لأغويهم أجمعين^(٣) ﴾ .

١٠٢ ظ

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأ كفاء إن كنت لنفسك تشقى .

لا ولكنتك استغمرتن واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرقاء^(٤) ، وتريد أن تتعلم في معاقبة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني .

سبحان الله ، يسلم عليك حيدر الأفشين^(٥) ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) في الأصل : « تباينا » ، صوابه في ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهي كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٣ : ٦٥ أنه بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء الثلاثة من تحتها . قال : « وإنما قيدته لأنه يصحف على كثير من الناس بجدر بالحاء البهلاء واسم أبيه كلوس ، كما في الأغاني ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد^(١) بك أهدى البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل
الجبال التماساً للنسب وحُباً للسلامة ، وتتغافلُ إلى الحَقَرَاتِ طلباً للتمرُّضِ
وحُباً للشرِّ .

ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعلِ العدوَّ عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى
لم تتغافل عنه تكثرُ ما أو تدعُه احتقاراً ، ومتى اكترتَ لكبيرِ وضائقِ
صدرِك عن شيءٍ عظيمٍ فهأنذا بين يديك ، فكُلِّني بحِلٍّ وخرذل ؛ فواللهِ
إنَّكَ لنا كَلَهٌ غثًّا غيرِ مَرِيٍّ ، وخيبتاً غيرِ شَعِيٍّ .

لا والله ، لكأنَّكَ وقعتَ على مطمورة ، وغلفتَ برأسِ خافان . كنتَ
أظنُّ أنَّ الرِشَاقَةَ والحِلْمَ لا يجتمعان ، وأنَّ ظَرْفَ الإنسانِ وأصالةَ الرأى
لا يفتقران^(٢) ، وأنَّ اللَّزْزَقَ والخَلْفَةَ مقرونان بخَفَّةِ البدنِ ، وأنَّ الرُّكَّانَةَ والأَنَاءَ
مجموعان لصاحبِ السَّنَنِ ، حتى رأيتُكَ فاعتقدتُ بك خلافَ ذلكِ الرأى ،
واستبدلتُ فيكَ ضدَّ ذلكِ الظَّنِّ . فتركتُني حتى إذا نازعتُ الرجالَ ، وتعرَّضتُ
للشُّجَى ، وشغلتُ نفسى بطلبِ الخِصَامِ^(٣) ، وانقطعتُ إلى أصحابِ القُدُودِ ،
وجعلتُ عُذْوَانِي^(٤) في تقديمِ القِصَافِ^(٥) ، وطالَ لِسَانِي ، وأظهرتُ الاستبصارَ
في فضلك ، وجعلتُ مِرْاجَ أخلاقك هو الحجة ، واعتدلتُك هو النهاية ، وطبيعَتُك

و ١٠٣

(١) في الأصل : « ويسود » .

(٢) في الأصل : « وإطالة الرأى لا يفتقران » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفي الأصل : « عداوتي » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشقوق الجسم .

هي المسكة^(١)؛ وزعمت أن منظر ك يغنى عن مخبرك، وأن أولئك ينجلي عن آخرك. شددت على شدة المهر الأرين، وتسرعت إلى تسرع الفير التزيق، وألححت [على^(٢)] إلحاح اللجوج الحقيق. كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم للتسرّع، وبما تضاف إليه من سُخف المتترع^(٣)، بعد أن تكذب قولي وتفتد خبري^(٤).

وقد تقدمت التجربة أن الحديد لا يكون حقوداً^(٥)، وأن الصنم لا يكون للصنعة حاسداً، فقصدت على رأس^(٦) إلى القياس للمتحن وفقدته، وإلى الطبايع المعتدلة فنقضتها، وإلى القضايا الصحيحة فرددتها.

وقالوا بأجمعهم: حالان لا تقبلان الحسد، ولا يحلوان من الرشد: حال الصنعة لمصطنعها^(٧)، وحال المولى لمعتقه. فكيف إذا كان الصنعة صديقاً، وكان للخاصة محتملاً.

ولأنما صارت — أبقاك الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، واختلاف أخلاطها، وتباعد أماكنها، نفساً واحدة وجسداً واحداً،

(١) المسكة، بالنم: القوة، والقل: وفي الأصل: «المسكة».

(٢) التمسكة من ب.

(٣) التترع: التمرير السريع إلى ما يليق له. وفي الأصل: «التترع».

(٤) التفتيد: التكذيب. وفي الأصل: «وتفتد».

(٥) الحديد: ذو الحدة، وهي الغضب والنشاط والسرعة في الأمور. ولكن

الحجاج بن يوسف كان يقول: «أنا حديد حقود». الحيوان ٣: ٤٧ / ٥: ٤٩٢ والبيان ٣: ٢٥٥.

(٦) في الأصل «على رأس».

(٧) يقال فلان صليمة فلان، إذا اصطفه وأدبه وخرجه ورباه.

لاستواء الخواطر ، ولاتفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحابة ، متفقان في الهوى ، متشاكلان في الشهوة ؛ وتعاونكما كمتعاون جوارح أحدهما ، وتساكما كمتساالم المتفق من طبائكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كاللعاني للضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها . فوئى هو موتُ صديق ، وحياتى هى حياة صديق . فلا تبعده من قلبك بُعد بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعض طبائع الخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطع من كلّ سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضارى ، ومن السم السارى .

ثم اعلم أنّ الموثّق بمودّته قليل ، وقد صار اليومُ المعتمدُ عليه فى صحّة القعدة ، وفى كرم النيب والعشرة ، عنقاء مُغرب^(١) . ولا أعلم السكربت الأحمر إلاّ أوجد منه . وإني لأظنّ القناعة أكثر منه . وما أكثر من جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لا يقطع سببه قناعة .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شئ أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديق قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع التدخ^(٢) .

(١) عنقاء مغرب . بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون .
قل فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يعد فى طيراته ، أو من الأناط الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « السرح » .

لا والله إن تعرف^(١) على ظهرها موضعاً للسر ، ولا مكاناً للشكوى ،
ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من
جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يعمل الفنى . ومحتمل الفقر قليل ،
ومحتمل الفنى عديم .

إن أخير — أبقاك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك به في أيام
قلته ، وإن الشر في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته ، وأنت
غريب في المصطنعين . وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ،
ونسب للشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة ، أقرب من نسب الرحم ؛ لأن
الأرحام مولة بالتحاسد ، لهجة بالتقاطع ، وأن التعاب على طبع المشاكلة .
والتلاقي على وفاء من الطبيعة ، أبعد من التماسد ، وأبعد من التعادى .
وسبب التعادى عرض في طبائع الغرباء ، وجوه في طبائع الأقرباء .

واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي
تسكّر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بئسك ، وتفضي إليه بذات
نفسك . ومتى رأيت محباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك
إياه . فمن أغاب عليك فمن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أن شيبتي التي بها استعظمتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك ،
اللتان لم يحدنا على إلا وأنا في ذراك ، ولم يحدنا على إلا وأنا في خللك ، لسكان
في شفاعة الكبرة ، واسترحام الصعف والرهنة ، ما يردك عن أشد الردع ،

(١) جعلت في ط : « لن تعرف » .

ويؤثر في طباعك أئين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقويت عظمي أغلظ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهل هربت إلّا في طاعتك ، وهل أخلفتي إلّا معاناة خدمتك !

قال علي بن أبي طالب : رأى الشيخ الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي^(١) .

وأنا أقول كما قال أخو تقيف^(٢) : مودة الأخ التالذ وإن أخلق خيراً من من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، وراعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأبه^(٣) ، وليس بفانٍ من بقي أثره .

وما كثر القتل ولا^(٤) وفر التجربة شيء كنفصان البدن ، وكأخذ الأيَّام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما فتح الرجال شيء كالوِكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخيرُ الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يُتبع الغضب مواقع الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ ، وفي أمثال الميداني ١ : ٣٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » . وأشار الميداني إلى أن علياً قالها في بعض حروبه .

(٢) يعني الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أي حاضرآ . وقوم شهود أي حضور .

(٤) في الأصل : « إلا » .

ولقد منحتك جَدَّ شبَّابٍ كَمَلًا ، وَغَرَبَ نَشَاطِي مُقْتَبَلًا ، وَكَانَ لَكَ
مَهْنَاهُ^(١) ، وَثَمَرَةُ قَوَاهُ^(٢) ، وَاحْتَمَلْتُ دُونَكَ غُرَاتِهِ وَغَرَبَهُ^(٣) ، وَكَانَ لَكَ
غَنَمُهُ وَعَلَى غُرْمِهِ ، وَأَعْطَيْتُكَ عِنْدَ إِدْبَارِ بَدْنِي قُوَّةَ رَأْيِي ، وَعِنْدَ تَكَامُلِ مَعْرِفَتِي
نَتِيجَةَ تَجَرُّبَتِي ، وَاحْتَمَلْتُ دُونَكَ وَهْنَ السَّكْبَرِ وَإِسْقَامَ الْحَرَمِ .

وَخَيْرَ شُرَكَائِكَ مَنْ أَعْطَاكَ مَا صَفَا ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مَا كَدَّرَ . وَأَفْضَلَ
خُلَفَائِكَ مَنْ كَفَلَكَ مَوْثِقَتَهُ ، وَأَحْضَرَكَ مَعُونَتَهُ ، وَكَانَ كَلَالَهُ عَلَيْهِ ،
وَنَشَاطُهُ لَكَ . وَأَكْرَمَ دَخْلَانِكَ وَأَشْكَرَ مُؤْمَلِكِكَ مَنْ لَا يَظُنُّ أَنَّكَ تَسْعَى
جَزِيلَ مَا تَحْتَمِلُ فِي ذَلِكَ وَمَوَاسِنَكَ مَوْثِقَةً ، وَلَا تَتَّابِعُ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ
نِعْمَةً ، بَلْ يَرَى أَنَّ نِعْمَةَ الشَّاكِرِ فَوْقَ نِعْمَةِ الْوَاعِبِ ، وَنِعْمَةُ الْوَادِ الْخَالِصِ
فَوْقَ نِعْمَةِ الْجَوَادِ الْمُتَمَنِّ ؛ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ فِي إِعْطَاءِ الْمَجْهُودِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَلْعٍ
جَمِيعَ مَالِهِ إِلَى مُؤْمَلِيهِ وَالتَّحَرُّمِينَ بِهِ ، حُسْنَ تِلْكَ الشَّاكِرِ الْوَاقِعِ ، وَحَقُّ
تَمَنِّي الْوَادِ الْعَارِفِ .

وَلَوْ اتَّصِفْتَ جَمِيعَ حَقُوقِكَ عَلَيَّ ، وَأَنْكَرْتَ جَمِيعَ حَقُوقِ عَلِيكَ ،
أَوْ جَعَلْتَ حَقِّي عَلَيْكَ حَقًّا لَكَ ، ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّ حَقَّكَ لَا يُوْدَى إِلَى شُكْرِهِ ،
وَأَنَّ حَقِّي لَا يُلْزِمُ حُكْمَهُ ، وَأَنَّ إِحْسَانِي إِسَاءَةٌ ، وَأَنَّ الصَّغِيرَ مِنْ ذُنُوبِي كَبِيرٌ ،
وَأَنَّ الْأَمْسَ مِنِّي إِسْرَارٌ ، وَأَنَّ خَطَأِي عَمْدٌ ، وَأَنَّ عَمْدِي كُلَّهُ كُفْرٌ ، وَأَنَّ

١٠٤ ظ

(١) أى، مهناه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه »

صوابه فى م . والمغرام : بضم العين : الشدة . والترب : الحدة .

كفرى يوجب القمع^(١) ويتمنع من الزورع لِمَا كَانَ عِنْدَكَ . وما اتسع
قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي أن
يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارئ القَسَمِ في دار البقاء ، لا في دار الفناء .
[و] الذى يجوز بين العباد إنما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوْدٌ أو قصاص ،
أو حبسٌ أو تغريب ، أو إغرام^(٢) أو إسقاط عدالة ، أو إزامٌ اسم العداوة ،
أو عتاب يجمع الألم والتقصير والتسكيل ، فيكون مَضْعُفُ الألم جزءاً له^(٣)
ومعدلاً أسبابه .

وربما قصر الإيقاع على السخط وجاوز حدَّ الغضب . وربما كان
مقصوراً على مقدارهما ، ومحبوساً على نهاية حالهما .

وليس كلُّ عقابٍ نتيجة سخط ، وقد لا يسئ ذلك الموقِع والعاقِب
واجداً كما يسئ سخطاً ، ولا يسئ عاقباً كما يسئ غضبان ، فيخرج كما ترى
من أن يسئ سخطاً أو مَوْجِدَةً وَغَضَباً ، كما خرج عتاب آدم عليه السلام
من هاتين الصفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار
الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة ؛ ومع ما في ذلك من إعراء الجلد ،
والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف التعزُّم ، والاعتزاز بيمين الخضم .

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل
عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم
صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلدُّ مَرَبَّ السَّيَاطِ ورضَّ العظام ،

(١) في الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : الترخيم ، وهو العقوبة المالية .

(٣) في الأصل : « أجرا له » .

فَجَنَّبَ « دندن » أحمل ، والسَّوْطُ في ظهر فاسم أحسن ، وأبدانها تحت
السيَّاط أثبت ، وإنَّ أرواحها أبقي ، وهى بأرواح السكَّلاب أشبه ، وإلى
طبائع الضَّباب أقرب ، وأرحامهم بالخير أَمْسُ ، وَمَنْ يُشِيرَ فِيهِمْ بِذَلِكَ
أَكْثَرُ ، والأجر في ضَرْبِهِمْ أعظم . فاستدِمْ اللَّذَّةَ بطريق اللَّذَّةِ ، وضع
الأُمُورَ في مواضعها يَطْلُ سرورُك بها .

١٠٥ و إنَّ عتاقَ الخليل وأحرارَ الطَّيِّر أدقَّ حيًّا ، وأشدُّ اكترانًا .
والكوادِنُ الفِلاظُ والحامِرُ النُّقالُ ^(١) ، أَكْلُ حِثًّا وأَقْلُ اكترانًا .
وليس الصَّيْرُ بالصَّمتِ والسَّكُوتِ ، ولا بقلَّةِ الصَّياحِ والضُّمُورِ ^(٢) . وقد يصيح
تحت السَّوْطِ مَنْ لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يذلُّ على عورة نفسه . والكلبُ
المضروبُ يجمع الصَّياحَ والحربَ ، والفرسُ العتيقُ يمدو ولا يصيح ، والخافرُ
كلُّهُ قَلُومٌ ضامِرٌ ^(٣) ، والغلبُ كلُّهُ ضَجُورٌ صَيَّاحٌ ، والصَّجَرُ في الخُفِّ عامٌ ،
والبَيْخَانُ أضجر . فَمِنْ التَّلَفِّ عامٌ ، وهو في الضَّانِ أخفى ، وكلُّ مضروبٍ
هاربٍ صَيَّاحٌ ، ومنها ما يجمع الخصال كالسَّكَبِ والبَعرِ . والحربُ من
المَكْرُوهِ عَمُودٌ ، والمقامُ عليه مذمومٌ ؛ كالذى يمتري العيرُ السَّقيمُ ^(٤) وتجمده
في الفرسِ السَّكرِمِ ، من قلةِ الإكترانِ وشدته .

(١) الحامِر : جمع عَمَر ، يقال فرسٌ عَمَرٌ . أى لثيم يشبه الحمار في
جره من بظنه . ويقال للفرس المجين عَمَرٌ أيضاً ، فارسيته « بالانى » . والجمع
الحامِرُ والحامِيرُ .

(٢) الضُّمُورُ ، بالزاي : السَّكُوتُ . وفي الأصل : « الضُّمُور » . تصغير .

(٣) في الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) في الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المتعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفي التل : « مارُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضُّبُّ أطولُ شيءٍ ذمًّا »^(١) . والكلب لئيم ، والضُّبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنًا ، وأجل جمالًا ، وأعفى صيدًا^(٢) ، وأنبِل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يَنْجَحْ كُنْدُرته عن قربه أو هن نفسه^(٣) . ثم بلغ من رقة طبع^(٤) البازي وعيِّقه أنه ينقطع برَدَّ البازيار له^(٥) إلى مسقطه من يده . والصَّقر يتعلّق بسبّاقيه^(٦) من رجل حمل بدرع^(٧) فيضطرب منكسًّا إلى الصَّبح ، ثم تجده وكأنّه لم يزل على كُنْدُرته وعلى مسقطه الذي يؤتّى له .

(١) المتعاضد ، كسحاب : بقية الروح في الذبوح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ .

و ٣ : ٥٠٨ و ٥٠٩ و ٦٠ : ٥٤ و ٦٤ و ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشيء . يصفو ، إذا كثر .

(٣) السكندرة . بضم الكاف والمثال كما في اللسان ، وبفتحهما كما في القاموس ، هي عجم البازي الذي يبيأ له من خشب أو مدر . قل في اللسان : « وهو دخيل ليس يرى » . وأوهق نفسه : جمعها في الوهق ، وهو جبل مغار يرى ، فيه أنشوطه ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفي الأصل : « أهرق » .

(٤) في الأصل : « طمع » .

(٥) في الأصل : « رده البازيار له » . والبازيار ويقال له « الباردار » أيضًا لفظة فارسيان ، معناها واحد ، وهو القائم بأمر البازي ويحرب فيقال له « البزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان في رحل الجارح من الطير ، من سير أو غيره . وفي ط : « بساقيه » ، خلافا لما في الأصل .

(٧) كذا في الأصل .

فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتعت بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك
ثبات القبر السكيلي الحسن ، ولا أجعل الصّباح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك
أحد ما تتمتع به ، وتدرك به حاجات نفسك .

وقد دلتك على ناس يجمعون لك انفصال التي فيها دوام لذتك ، وتنام
شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذي يثبت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم في
جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس
ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ،
ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالحبل اللطيفة ، والتدبير
النافذ ، وبأن تمضي فيهما حكم الكتاب والسنة ؛ فإنه سيحل عقدة أرواحهما
عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع انظيفة ، وتتجيب به إلى
الامة ؛ فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله .
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

١٠٥ ظ

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه ، والله للوفيق للصواب برحمته ،
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين
وسلامه .

٦

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُرَادٍ

بْنِ

سَفِيٍّ التَّشَبُّهِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضي بنداڊ في خلافة للتوكل ، ولاء القضاء بعد أن فلج
أبوه أحمد بن أبي دواد ، ثم عزله للتوكل ومات في حياة أبيه أحمد في ذي الحجة سنة ٢٣٩ .
وترجم له الخطيب في تاريخ بنداڊ ١ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داماد ، وعليها اعتقادنا في إخراج
هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ في أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك في أواخرها .

أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عرفتَ - أكرمك الله - ما كان النَّاسُ فيه من القول بالنَّشِيبِ
والتَّعاونِ عليه وللعادة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والقرينة
القاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوَّة الظاهرة ، والسلطان
للكين ، مع تقليد العوامِّ وميل السُّفلة والطَّعام .

ولست لخاصَّة قوَّة بالعانة ، ولا لعلية قوَّة على الأراذل ؛ فقد قالت
الأوائلُ فيهم ، وفي الاستعاذة بالله منهم :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا
لم يُملِكُوا ، وإذا تفرَّقوا لم يُعرَفُوا .

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلَّا ضَرُّوا ، ولا تفرَّقوا إلَّا نفعوا »
ف قيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطَّيَّان
إلى طبيئته ، والحائِك إلى حياكته ، والمَّلَّاح إلى مِلاحته ، والصَّائِغ إلى
صياغته ، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكلُّ ذلك مَرْفُوعٌ للمُسلمين ، ومَعْنُونٌ
للمُحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظرَ إلى الطَّعامِ والخُشُو قال :
« قَبِّحَ اللهُ هذه الوجوه ، لا تُعرَفُ إلَّا عند الشرِّ » .

وقال الخريجي^(١) عند ذكره إياهم ، في شعره ، بالتعاوى مع الخلوخ^(٢) :
 من البوارى ترأسها ومن الـ شخص إذا استلأمت مغافرها^(٣)
 لا الرزق تبى ولا العطاء ولا يحشرها بالفناء حاشرها^(٤)
 وقال شبيب بن شيبه : قاربوا هذه السفلة وابعدها ، وكونوا معها
 وقاروها ، واعلموا أن الغلبة لمن كانت معه ، وأن المقهور من صارت عليه .
 وقد وصفهم بعض العلماء فقال : يجمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون
 من حيث يجمعون ، لا يفصل غريبهم إذا صالوا ، ولا تنجع فيهم الحيلة
 إذا هاجبوا .

والعوامل - أبكاه الله - إذا كانت نشرا^(٥) فأمرها أيسر ، ومدة هيجها
 أقصر . فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وإمام مقدر ، فعتد ذلك

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهي . قال الخطيب : « وأصله من خراسان
 من بلاد السند ، وكان متصلا بخريم بن ناعم المري وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان
 اتصاله بجمان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٣٣٦٩ .

(٢) تعاوا معه : اجتمعوا . والخلوخ هو الخليفة الأمين أخو المؤمنين . وقصيدة
 خريم رواها الطبري في تاريخه ١٠ : ١٧٦ - ١٨١ في حوادث سنة ١٩٧ وبعض
 أبحاثها في الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البوارى : الحصر للزوج ، واحده بوري وبورية ، وبارى وبارية .
 والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست الأئمة ، وهى الدرع . والمغافر :
 جمع مغفر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث في الطبرى
 ١٠ : ١٧٨ .

(٤) في الطبرى : « ولا يحشرها لقاء حاشرها » .

(٥) التشر بالتحريك : القوم المشرقون لا يجمعهم رئيس

بِنَقْلِ الطَّمْعِ ، وَبِمَوْتِ الْحَقِّ وَبِقَتْلِ الْحَقِّ . فَلَوْلَا أَنَّ لَهُمْ مَتَكَلِّمِينَ ، وَقُصَاصًا ١٠٧ وَمُنْتَظَمِينَ ، وَقَوْمًا قَدْ بَابَنُوهُمْ فِي الْمَعْرِفَةِ بَعْضَ الْمَبَايِنَةِ ، لَمْ يَاجْهَقُوا بِالنَّاصَةِ ، وَلَا بَاهِلِ الْمَعْرِفَةِ الثَّامَّةِ . وَلَكِنَّا كَمَا نَخَافُهُمْ نَرْجُوهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ نَطْمَعُ فِيهِمْ .

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحدين وإخافة علماء المتكلمين . ولولا الكلام لم يقم لله دين ، ولم ينب من الملحددين ، ولم يكن بين الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والثاني فصل ، ولا بانت الحاجة من الحيلة ، والدليل من الشبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كل صناعة ، ومزية على كل أدب . ولذلك جعلوا الكلام عياراً على كل نظر ، وزماناً على كل قياس . وإنما جعلوا له الأمور وخصوه ^(١) بالفضيلة لحاجة كل عالم إليه ، و [عدم ^(٢)] استغنائه عنه .

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتى وضع الله من عزهم ، ونقص من قوتهم . وليس لأمر الله مرد ، ولا لقضائه مدفع . وحتى تحول إلينا رجال من قادتهم ومن أعلامهم ، والمطاعين فيهم ، وارتاب قوم وناقى آخرون . وحتى تحولت الحنة عليهم ، والتقية فيهم . وذلك كله على يد شيخك وشيخنا بعدك - أعزه الله - بما يبذل من جهده ، وعرض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وعرّض مراره ، صابراً على جريمه ؛ يرى الكثير في ذلك قابلاً ، والإغراق

(١) في الأصل : « وخصوا » .

(٢) تسكلة يفترق إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذل النفس يسيرا . على حين خار^(١) كل بطل ، وحاد كل مُقدم ،
وعرّذ كل رئيس ، وأضاف كل مستبصر^(٢) ، وطاح كل نقاج ، واستخفى كل
مُراء . وحتى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملايمة ، ويحسّنون عنده المقاربة ،
ويخوّفونه العاقبة ، وزعمون أنَّ لكلِّ زمانَ تدبيراً ومصلحة ، وأنَّ إبعادهم
أفقر^(٣) لعلبانهم ، وإنَّ إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتى سمّوا المداينة
مدارة ، وإعطاء الرضا تقيّة ، والشّدّة عند الفرصة خرقاً ، والأنعياز مع صواب
الإقدام رفقا ، وموالاة المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ،
والضعف في الدّين احتمالا . كما سمّى قومَ الفرار انعيازاً ، والبخل اقتصادا ،
والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخطل بلاغة . فكذلك كانوا وكان .
وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

١٠٧ ظ

ثم يصول أحدُهم على مَنْ شتمه ، ويسالم من شتم ربه ، ويقضّب على
من شته أباه بعده ، ولا يقضّب على من شبه الله بخلقه ، وزعم أنَّ [في^(٤)]
أحاديثِ المشبهة تأويلاً ومجازاً ومخارج^(٥) ، وأنها حقٌّ وصِدق . فإذا
قبس^(٦) طلب لهذا المجاز ظم ، وقال ما يليق بالقظ الحديث ،

(١) خار : ضعف . وفي الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : : أشفق وحذر . وفي الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) في الأصل : « ومخارجا » .

(٦) يابس في الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته^(١) لصحة أحاديثهم مُقَرَّراً ، فيصير فيها بدعى من خلاف تأويلهم مدعى . ولو كانت هذه الأحاديث كلها حقا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذب بمدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمن ينتحل طريقتنا ، ويسلك بزعمه سبيلنا ، جور شديد ، ومذاهب قبيحة ، وتقرب^(٢) فأحش .

وليس ينبغي لديان أن يواد من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

فتى إذن نزول التفتية ، ويجب إظهار الحق والنصرة للدين ، والنباتة للمخالفين ؟ ! أحين يموت الخصم ويبعد أثره ويهلك عقبه ويقل ناصره ، ويزلو جميع الخوف ويكون على يقين من السلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحق مطيعاً ، والله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والشقة . وهل المعصية إلا ما مازجه الحموى والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابه الكروه والكلفة^(٣) ، وكيف يتكلف ما لا مؤونة فيه ، وكيف يحمد ما لا مرزنة عليه . وكيف يكون شجاعاً من أقدم في الأمن ، وتكثن في الخوف . أو ليست النار مخوفة بالشبهات ، أو ليست الجنة مخوفة بالكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيام قدرتهم أقوى منا في حقنا أيام قدرتنا .

(١) في الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت - أرشد الله أسرك - أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين
ومُهانين وممتحنين، فإنَّ عدد الجاحم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان
عليه، والذين ماتوا قليلٌ من كثير. ونحن لا ننتفع بالنافق، ولا نستعين
بالمرتاب، ولا شق بالجاحح، وإن كانت المبادء قد نقصت فإنَّ القلوب
أفسد ما كانت.

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة، وعلى المدد والثروة،
وعلى طاعة الرعاع والسفلة؛ فقد صاروا اليوم إلى النازعة^(١) أميل،
وبها أكلف؛ لأنهم حينما يتسوا^(٢) من القهر بالخشوة والسفلة، وبالبيعة،
وبالولاية الفسقة، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة. ولا بدَّ لِمَن كانت هذه صفته،
وهذا نمته، من أن يستعمل الحيلة والحجة، إذ أنجزه البطش والصولة.
وكلُّ مَنْ كان غيظه يفصل عن حلمه، وحاجته تفضل عن قناعته، فواجبٌ
أن ينكشف قناعه، ويظهر سره، ويبدو مكنونه.

وقد أطعني فيهم مناظرتهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا. وقد صاروا
بعد السب يحقون^(٣)، وبعد تحريم الكلام يحالسون، وبعد التصام
يستمعون، وبعد التجليح يدارون^(٤)؛ والعامة لا تفضل لتأويل كُفها،
ولا تعرف مقاربتها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من مياها، وأصفت
لما ترى من استماعها.

(١) في الأصل: « على النازعة ».

(٢) في الأصل: « مسا ».

(٣) حقه بحقه مدحه. وفي المثل: « من حفننا أورقنا فليقتصد » يقول:

من مدحنا فلا يقولون في ذلك ولكن ليكلم بالحق منه.

(٤) التجليح: المكاشفة في الكلام.

وقد كتبت - مد الله في عمرك - في الرد على الشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخافق المستغنى ، ولا يرتفع عن الرّيش المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامة ودعاه أهل التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفصل من حشوة الناس^(١) ، ويختدع به المحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف آي كثيرة إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بينت ذلك بالوجوه القوية ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدت الكلام المعروف ، والقياس على الموجود .

وهو مع ذلك كله كتاب قصّد ، ومقدار عدل ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم ينصر عن مقدار البغية . على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا ينشط له ، وجاز قدر احتماله : لأن غاية التكلم انتفاع السامع . وقد قال الأولون : « قليل الوعظة مع نشاط الموعوظ ، خير من كثير وافق من الاستماع »^(٢) نبوة ، ومن القلوب ملالة^(٣) . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزني^(٤) : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ، وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إن هذه القلوب تمثل كما تمثل الأبدان ، فاجتفوا لها طرّف الحكمة » .

(١) الفصل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس

(٢) في الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى زينة ، ثقة جليل توفي سنة ١٠٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

(١٩ - رسائل الجاحظ)

وقد كان يقال : إنَّ للقنوب شهوة وإقبالاً ، وفترة وإدباراً ؛ فأتوها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أُكْرِهَ القابُ عَمِي .

وقال واصل بن عطاء : طول التعديق يُسَكِّلُ الناظر ، وناظر القاب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير^(١) قال : قال قسامة بن زهير^(٢) : رَوَّحُوا هَذِهِ الْقُنُوبَ نَعَمَ الذِّكْرُ^(٣) .

وقال عبد الملك بن قريش : قال أبو الدرداء : إني لأستجِمُّ نَفْسِي بِبَعْضِ الْبَاطِلِ كَرَاهَةً أَنْ أَحْمَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَقِّ فَأُكَلِّهَا^(٤) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسية : أَنْ جَنَّبْتُمْ حَدِيثَ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ الْأَحْقَادَ . وَعِظْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ مَا نَشِطُوا لِاسْتِيعَابِهَا .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة^(٥) .

ولذلك أمروا بالتحام^(٦) وزيارة النيب .

(١) بن رواية قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . في الأصل : « عمر بن أبي حذنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازني ، له إدراك ، وكان ممن انتسج الأبهة مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً في تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب .

(٣) في الأصل : « يعنى من الذكر » . صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) في الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يئله » .

(٥) يتخولنا : يعمدنا ، وذلك مخافة السآة علينا .

(٦) التحام ، كصاحب : الراحة .

ورويوا أنَّ شرَّ السَّيْرِ الحَفَقَةُ^(١) .

ولأنَّ ينْقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلَيَّ من أن يَفْضَلَ عن مقدار القوة ؛ لأنَّ اللزلة تَفْضُ [في] الجميع ، وترْهَدُ في السَّكَلِ .

فأنا أسألك - أكرمك الله - أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ماخَفَ عليك منه . فإن يصلح الكلامُ [و] كان كما وصفتُ وكما تَحَيَّفتُ ، حَنَنْتَ على قراءته وعلى اتِّخاذه ، وعلى تحليده وعلى تدوينه ، وأمرت مَنْ يحتاج إلى المادَّةَ ، وإلى حُسْنِ المعونة من الموافقين والإخوان الصَّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يَنْتَوُوا ويُسَيِّمُوهُ .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ؛ ولكنَّ الرجلَ الرفيع إذا رَفَعَ الشَّيْءَ ارتفع ، كما أنَّه إذا وضع الشَّيْءَ انْضَع .

وإن كنتَ فيه غَلَطاً^(٢) أو لَمَنْتَهُ مستكثراً ، كان لك بَحْسُنِ نيتك وصلاح مذهبك ، والذي رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العائمة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ما تنقضي بذلك من دِمَامِ التَّحَرُّمِ بك ، والتَّحَلُّي من نيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنِيعَ المشكور .

١٠٩ و

وحرامٌ على كُلِّ متكلِّمٍ عالمٍ ، وفاقه مطابع ، وخطيب مذوَّه إن كان^(٣)

(١) الحَفَقَةُ : شدة السير . وهو في حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، ألَمْ أَفْضَلِ الْعَمَلِ ، وَالْحَسَنَةِ بَيْنَ السَّيِّئِينَ ، وَخَيْرِ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا ، وَشَرِّ السَّيْرِ الْحَفَقَةُ » . أمثال اليداني ١ : ٣٢٧ واللسان (حقق) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) التَّلَقُّ : التَّحَرُّرُ . وفي الأصل : « غَلَطًا » .

(٣) في الأصل : « كَلَفَ » .

عنده من الأمرى ، إلا أن يأتيكم به ، ويذكركم بما عنده ، قل ذلك أو أكثر ،
وصادف منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ،
والغروب إليه أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لما جعل الله عندكم من حسن
الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذ كنتم المتفرغ والمقنع ،
والأثمة والمنزع . ولولا ما قلتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ،
وأن الشغل برعاية حقها والدفاع عنها ، لم يبق في قواكم فضلاً للدعاء
والنازعة ، ولوضع الكتب بالجواب والسألة - لبدأ بكم القرض ، ولكنتم
أحق بهذا الأمر .

على أننا لم ننتق إلا بالسنتكم ، ولم نحتد إلا على مثالكم ، ولم نقو
إلا بما أعرتمونا من فضل قوتكم . وعلى الرزاة من الأدباء ، وعلى أهل
الأسن من الخطباء ، معاوتكم ومكافتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع
منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن ينفذوا لطاعتكم ، وأن يخاصوا في الدعاء ،
وأن يحضروا النصيحة ، وأن يضرعوا غاية الخيبة ، وأن يملوا في كف^(١)
الفيل والحسد ، وأن لا يرضوا من أنفسهم بالتفاف ، وأن يعلموا أن الحسد
لا يقع إلا بين الأشكال ، وأن التنافس لا يكون إلا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .
وكان يقال : ثلاثة توجب الضغن وتكثر من الفيل : المجاورة في المنزل ،
والاستواء في النسب ، والشاكلة في الصناعة .

ولذلك قال شبيب بن شعبة لرجل ادعى محبته ونصيحته : « وكيف

لا يكون كما وصفت وكما ذكرت ، ولست بخطيب ، ولا جار قريب ، ولا ابن عم نسيب .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من نؤم الحسد إلا أنه موكل بالأدنى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين التباينين ، ولا يجوز في المتقاربين .

ولا يكون الطلب إلا بالطمع ، ولا يكون الطمع إلا بالسبب . فإذا انقطع السبب انقطع الطمع ، وفي عدم الطمع [عدم] الطلب . وكيف يتكلف الطيران من لا جناح له ، وكيف يرجو صلاح أمر العامة وترتيب الخاصة من عجز عن تدبير بيته ، وقصر عن تدبير عبده ؟ ! وإنصاف اللسان قليل ، وإنصاف القلب أقل منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ؛ فإن في صلاحهم صلاح قلوبنا لهم . وقد جعل الله الشكر موصولاً بالزيد ، ومن الشكر على نعمة الله علينا بكم أن نعظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر الله . ولا يفعل ذلك إلا الصغير القدر ، والحامل الذكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون^(١) على ما خبئتم وكما وصفت ، وقد أغنيتم من القبلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمتم الشمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم الظلامة ، وأحييتم الشئنة ، وأبرزتم التوحيد بعد اكتتامه ، وأظهرتموه بعد استخفائه ، واحتلمتم عداوة الجميع ، ووترتم للطاعنين في تقويتنا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحن مع قلة عملنا لا نجد أبداً عملنا إلا مقصراً عن عفتنا . وأنتم مع اتساع قلوبكم ،

(١) في الأصل : « يكونون » .

أعمالكم وفق علومكم : لأن كل من بذل كل مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نعمه كالجميع من نعم غيره ، مع خذلان الموافق ونكوص اللوازم ، ثم لم تزد الشدائد إلا شدة ، والوحدة [إلا] أنة - حقيق التفضيل والتعظيم ، والإناية له بالتقديم .

ولعل قائل أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وجملة مشيخته وأقربيه ، حيث حصهم بالتقديم ، وأبانهم بالتعظيم . بل كيف يقدم من صغرت سنه وقلة تجربته على من تقاربت سنه وكثرت تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحب تحصيل ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلت ذلك - حفظك الله - ولا انتحلته ، إلا وبرهاني حاضر ، وشاهدي شاهد . وذلك أن للشباب ^(١) سكرة وطياحا ، وقرعاً وصولة . والهرم داخل على جميع الأعضاء ، وأخذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف بكل ماظره وسامعه ، وذائقه وشامه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تنقص على مرور الأيام قوته ، وكذلك قابله وكل ما بطن من أمره ، على قدر ما نقص من قوى جسمه وتنقص من قوى شهوره . [و] يخف عليه مخالفة هواه ، ومجاربة نواذيره ^(٢) . ومن حقل ^(٣) على نفسه في كمال شبابه وأيام سكرته ، وفي سلطان جدته وكمال قوته ، فظلفها مرة ^(٤) وكبحها

و ١١٠

(١) في الأصل : « للشارب » .

(٢) في الأصل : « وادعه » .

(٣) في الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها

أخرى ، وعاین تلك التكاليف ، وغابَ تلك الرّيح كان أُمِرَ طاعةً ؛ إذ كان أحلَّ للمشقة .

وعلى قدر المشقة تكون الثوبة ، وتعظم عند الله للزلة ، ونفع له في قلوب الناس الخسة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لـ سعد بن أبي وقاص ، حين وجهه إلى العراق : « يا سعد بن وهيب ^(١) ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك من الناس ، واعلم أن مالاك عند الله مثل ما لله عندك ^(٢) . وعن نعتك حالك عند الله بالذي تجد لك في قلوب عباده . وقد ملأ الله بعض الناس أبداناً بعض ، ولم يملأ القلوب أحداً غيره » .

وأما قولهم : إن الغزاة مقرونة بالحدائث ، والحنكة موصولة بطول التجربة ، فإنّ الذهن الحديد والطبع الصحيح ، والإرادة الوافرة ، بنال في الأيّام اليسيرة ، ويذكر في الذهور القصيرة ، ما لا تدركه العقول الخدوجة ^(٣) ، ولا الطباع المدحولة ، والإرادة الناقصة ، في الأيام السكتيرة ، والذهور الطويلة .

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبي وقاص بن وهيب . واسم أبي وقاص مالك . حميرة أساب العرب ١٢٩ والإصابة ٢١٨٩ وفي البيان ١ : ٢٦١ : يا سعد ، سعد بن أهيب . وأهيب وهيب لثان .

(٢) إلى ينتهي الخبر في البيان والتبيين .

(٣) الخدوجة : الناقصة . من قولهم . خدجت الناقة : ألفت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخذته بمعنى واحد .

وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته^(١) وجودة اعتباره ، زماناً أكثر هجياً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهرته أقل ، وأبائمه أقصر ، فينال مع قلة الأيام مالا ينال سواء مع كثرتها ، ولا سيما إذا أُعِين بِحِفْظٍ ، وأحسن من نفسه بفضلي بيان . ١١٠ ظ

وليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كن نظر فيه على المكتسبة به والمهرب إليه ؛ لأن النفس لا تسيح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ، وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه صفته أقرب ، وله أزم . ولولا ذلك لما ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل اليمن ، وجعل^(٢) إليه قبض الصدقات ، ومحاسبة القتال ، وقلده الأحكام وتعاليم^(٣) الناس الإسلام ، وهو ابن ثمان عشرة سنة . ولا يدق ذلك صاحب خبر ولا حامل أثر .

وعلى مثل ذلك عقد لأسامة بن زيد الإمرة ، وأبانه بالتقدمة على جلة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السائف المتقدمين .

وعلى مثل ذلك ولي عتاب بن أسيد^(٤) مكة ، وبها عظام قریش وكبراء العرب وذوو الأخطار من كل قبيلة ، وذوو الأسنان من كل جيل .

(١) في الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) في الأصل : « وحمل » .

(٣) في الأصل : « وحمل » .

(٤) بفتح الحمة ، كما في الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ، واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكة فتح الفتوح ، وأُم القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأعظم والحج الأكبر ، والأصل والفخر .

وقد رأيتم ما بلغ بخالد بن يزيد في الشوهد والعبّة ، وقوّد الجيوش والتهبّة ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الكميّ بن زيد فقال :

قاد الجيوش لخمس عشرة حجةً ولدائه عن ذلك في أشغال^(١)
قدّمت بهم همتهم وسماحه همّ النوك وسورة الأبطال^(٢)

فأما ابن بيض^(٣) فقال :

بلغت لعشر ماضٍ من سناء لك ما يبلغ السيد الأشيبُ
فهشك فيها جامُ الأمور وهمّ لدانك أنْ يلعبوا

(١) البيت في فتح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » .
وفي الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) في الأصل : « قدّمت بهم هامة » . وعند البلاذري أن الشعر مقول في عهد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خلیع ماجن كان منقطعاً إلى اللهب بن أبي صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبي بردة . واكتسب بشعره مالا بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغني ١٥ : ١٤ - ٢٥ والثؤنلف ١٠٠ وحوادث الحيوان ٥ : ٤٥٤ - ٤٥٥ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن بيض قتل البتين لخالد بن يزيد بن اللهب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدق في يزيد بن المهلب :
 مازال منذ عقدت يداه إزاره ودنا وكان لحمة الأشبار^(١)
 وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار^(٢) ١١١ و

وعلى هذا الجرى مدح الشاعر من مدح فقال :
 ما زلت في عقل الكبير ير وأنت في سن الصغير
 وقد رأيت ما بلغ محمد بن القاسم^(٣) من الفتوح العظام والأيام الجسام ،
 والقهر للأعداء ، وبنوع الحجة في الأولياء ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد
 ذكر ذلك زياد الأنجم فقال :

ما إن سمعت ولا رأيت عجيبة كمحمد بن القاسم بن محمد^(٤)
 فاد الجيوش لخمسة عشرة حجة يا قرب ذلك سوددا من مولد^(٥)

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزاعة ١ : ١٠٣ . والرواية في الديوان : « قدنا
 فأدرك لحمة الأشبار » . وفي الخزاعة : « وصما فأدرك لحمة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحسك بن أبي عقيل ، أحد ولاة الحجاج ،
 غزا السند وفتحها في أواخر أيام الحجاج . فتوح البلدان للبلاذري ٦١٢ - ٦١٩ .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن الروعة والسياسة والندى ل محمد بن القاسم بن محمد

(٤) في الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت . يمكن في فتوح البلدان
 « ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفي عيون الأخبار : « قاد الجيوش
 لسبع عشرة » .

وقال الآخر^(١) :

إذا المرء أعيته الروءُ ناشئاً فطلبها كهلاً عليه عير^(٢)

وقال آخر^(٣) :

إذا ما ترعرعَ فينا القلام فليس يقال له من هـو^(٤)

إذا لم يَدَّ قبلَ شَدِّ الإزار فذلك فينا الذي لا هـو

ولى صاحبٌ من بنى الشَّصَّبان فطوراً أقولُ وطورا هـو^(٥)

وزعموا أن عمرو بن سعيد^(٦) قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ

ويعظم - إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟ قال : إنَّ أبى أوصى إلى ولم يوصِ بى .

قال : فبِمِ أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاَّ يفقد إخوانه منه إلاَّ وجهه^(٧) .

(١) هو اللوط بن بطل القريش ، كما في التنبيه على الحماسة لابن جني ،
وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفي الحماسة بشرح الرزوقي ١١٤٨ : « وقد رُجل
من بني قريظ » .

(٢) في الأصل : « كهل » ، صوابه في المراجع النقدية . وأما « عير »
فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية في الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما في ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شص) وثمار
القلوب ٥٥ . وللائيات قصة في الديوان واللسان . ورويت في الحيوان ٦ : ٢٣١
بدون نسبة .

(٤) في الديوان واللسان : « فما إن يقال له »

(٥) الشصَّبان . بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجُن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ،
المعروف بالأشدق . جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبري ٧ :

١٧٨ - ١٨١ وحوادث البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) في البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر في عيون الأخبار ١ : ٢٣٥

وأمالى الرقيق ١ : ٢٧٧ .

فهذا كله دليل واضح ، وبرهان بين .

والمثل قائل أن يقول : إنما الفضل في خشونة الثياب : وليس ذلك
لن مدحت ، ولا هذه صفة من وصفت .

وهذا باب - أبقاك الله - قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفطن
ما لم يكن ثاقباً ، والأريب ما لم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرياسة والقدر
والتباهة على قدر قسّف الجلدة وبدادة الهيئة ، وكثرة الصوم ، وإثارة الوحشة
والسياحة - لكان عثمان بن مظعون متقدماً لأبي بكر الصديق رضوان الله
عليه ، ولكان بلال بن رباح غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب زهري : ليس الناسك^(١) إلا من غلب الحرام
صبره ، والحلال شكره .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكنتنا من الاحتجاج . وما أشك أن من
خبر أمرك أكثر من اختبأ به كان عنده أكثر من عصى . وعلى أن منترك
— أسعدك الله — بُنى عن الخبر ، والفراصة فيك . سكنى مؤونة التجربة
لك . وقد نقّلت بحمد الله أخلاق شيخك^(٢) ، واحتذيت على مثاله كما احتذى
على مثال من كان قبله . ولولم يتعقبوا أمرك ، ويتصنعوا سيرتك في نفسك
ثم في خاصتك وعامتك ، لكان في صدق الفراصة وظهور الحجة ما تقضى به
النفوس ، ويستدل به الحجرب .
وظن العاقل كيقين غيره .

(١) في الأصل : « ليس الناسك » . وفي البيان ٣ : ١٨٧ : « ومثل له أيضاً :
ما الزهد في الدنيا : قال : ألا يغلب الحرام صدرك ، ولا الحلال شكرك » .
(٢) نقيله : تشبه به

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنك لن تنفع بعقله حتى تنفع بقلته .
وقال أوس بن حجر :

الألمى الذى يظن لك الظنَّ نَّ كُأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(١)
وقال وهو يمدح ابن كَلْدَةَ بِصِدْقِ الْحَسِّ ، وَصَوَابِ الْحَدْسِ ، وَجُودَةِ
الْفَأْنِ :

أَرِيْبٌ أَدِيْبٌ أَخُو مَأْزِقٍ نِقَابًا يَخْبِرُ بِالْفَنَائِبِ^(٢)
وقال آخر^(٣) يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :
رَأَيْتُ أَبَا الْوَلِيدِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِهِ شَيْبٌ وَمَا قَعَدَ الشَّيْبُ أَبَا^(٤)
وَلَكِنْ نَحَتَ ذَلِكَ الشَّيْبُ حَزْمٌ إِذَا مَا ظَنَّ أَرْضَ أَوْ أَصَابَا^(٥)
وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ ﴾^(٦) .
وقال : ﴿ إِنْ بَعْضَ الْفَأْنِ إِنْهُمْ ﴾^(٧) . وفى ذكره البعض دليل على أنَّ مَأْزِقَ
ذلك صواب وطلاعة .

(١) ديوان أوس بن حجر ٣ ، والكمال ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ :
٦٨ يرى به فضالة بن كَلْدَةَ . وروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٤ والحيوان ٣ : ٦٠ . والثقاب الرجل العالم بالأشياء المبعث
عنها الظن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقاباً » فى الأصل منصوبة . وروى :
« نقاب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أَرْضُ : قرب الصواب فى الرأى وإن لم يصب كل الصواب وفى الأمر :

« أَعْرَضَ » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة مَائِدَةٍ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الْحَجَرَاتِ .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب — أبشرك الله — دون
أبي عبد الله^(١) أكرمه الله، أنكما قد تفرقان في بعض الأمور مجرى وحداً،
ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك، وفرط
عنايتك بما استكفأك واسترعأك. وإن جمعت لي قسماً من وقت فراغك،
ونصبياً من ساعة نشاطك. رجوت أن يصير إلى ما أمتناه عندك من الإناعم
عليّ، والاسترهان لشكري؛ فإن العرب لم تعظم شيئاً قط كتمظيمها موقع
الإناعم والشكر والأحدونة الحسنة، والذكر والتميز، والاستمداد للنعيم،
والكفر حائل بين التؤد والتؤد.

١١٢ ظ

قال عنترة:

نبئت بشراً غير شاكر نعمتي والكفر محبته لنفس النعم^(٢)
وقال السدوسي:

فلم أجز بألحسى وعادت مشاربي بلافع بقروها الحمام المقرقر
تبدلت بالإحسان سوءاً وربنا تنسك للعروف من كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد القاضى . والد من كتب إليه الجاحظ :
هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دعى » وقيل « طاعة » .
ولى أحمد القضاء للمعصم ثم لوائق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق
ووفور الأدب ، وهو صاحب حنة القول بخلق القرآن في أيام المعصم والوائق .
ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفي سنة ٢٤٠ في بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦
ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنترة . والرواية : « نبئت عمراً » . انظر شرح
القوائد السبع الطرزالين الأنبارى ٣٥٥ .

ويدل على حبهم للشئاء وجيل الله كقول الأسدى :

فإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندى أن أموت ولم أَلَمْ^(١)
وقال :

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم بمساعتنا إن الشئاء هو الخلد^(٢)
وقال الفتوى :

فإذا بلغتم أهلكم فتحدثوا إن الحديث مهالك وخلود^(٣)
فجعلوا الذكر بالجيل مثل الخلود في النعيم .
وعلى هذا المعنى قال في ذلك الثار :

فقتلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء العطاس لا يموت من آثار^(٤)
وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا :
ما ظننت أن قاتل دارا يموت !

وهذا القول هو أمدح منه لقائله . ولم أسمع للمعجم كلمة قط أمدح منها .
فأما العرب فقد أصبت لهم من هذا الضرب كلاماً كثيراً .

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيما « بإحصائنا » .

(٣) في بعض نسخ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر
الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهمل ، كما في البيان ٣ : ٣٢٠ وهو بدون نسبة في الحيوان
٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفي الأصل : « وعفوا كعفوك » تحريف . والمقر : القتل
والإهلاك . جزاء العطاس . هو تسميت العطاس والدعاء له بالخير ؛ أى تعجل بذلك
كقدر ما بين العطاس والتسميت وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) .
لا يموت من آثار ، أى لا يموت ذكره . آثار : أدرك نأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكر عند الشَّاكر والشُّكُور له من العرب ،
قولُ أوس بن حجرٍ في حَلِمة^(١) :

سَنَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنَّا [مُتَوَّبٌ]

وحسبك أن يُبَدِّلَ عَلَيْكَ وَنَحْمَدِي^(٢)

وقال بعض الشعراء^(٣) :

فلم أجزء إلاّ النشكرَ جاهداً وحسبك مني أن أقولَ فأحدًا^(٤) و ١١٤

وكانوا يرون للذنب ما لا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

• وَجُرَحِ الْأَسَانِ كَجُرَحِ الْيَدِ^(٥) •

(١) هي حليلة بنت فضالة بن كعدة . وكانت قد أسدت إليه صديعا حين جالت به نائلة فصرعته ، في قصة رواها أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٧ .

(٢) المتوب : المجازي . يقال أتاه وثوبه وثوبه . وفي الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة يابس في الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ١٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . وروى : « عن ثوب » وروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما في الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) في الحيوان :

فلم أجزء إلا للسودة جاهدا وحسبك مني أن أود وأجهدا
وفي بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره في ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

• ولو عن ثنا غيره جاءني •

وقال جرير :

« وَلَا سَيْفَ أَشْوَى وَنَمَّةَ مِنْ لِسَانِيَا ^(١) »

في أشعار كثيرة .

ولست أُمْتُ إِلَيْكَ — أكرمك الله — بعد التوحيد ونفى التشبيه ،
ونصرتي للدين ، بأمر أنا به أوثق من رغبتك في شُكْرِ الكرام والأحدونة
الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ^(٢) ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ
لَلَّذِكْرِ لَكَّ وَلَقَوْمِكَ ^(٣) ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغَّبَهم فيه ،
ولا عُذَّ في نِعَمِهِ .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والمعتصم
رب العالمين ، الذي حقق الله به الدين وسدَّد به الشُّعُور ، وردَّ به المظالم ،
وحسَم به عِرْق البغى ونواجم الفتنه ؛ الذي لم يرَلِ الله يزيدَه في كلِّ حُرُفَةٍ
محبةً ، ومع كلِّ محبةً هَيِّئَه ، ومع كلِّ نعمةً شُكْرًا ، ومع كلِّ شُكْرٍ فضلًا .
وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقلب الذي عليه تدور الرِّسَالَةُ ، وعلى
مثاله احتدَّى من احتدَّى ، وبلسانه نطق ، وعن رأيه حُدِّر . وبُيُمن غيبتَه
ظهِر ، وبفعل قوته نَهَض . وهو أوَّل هذا الأمرِ ووسطه ، به يتمُّ
إن شاء الله تعالى .

(١) صدره في ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

« وليس لسيفي في العظام بقية »

أي هو بكسر العظام ويتجاوزُه لا يغيب فيه أشوي . من الشوي ، وهو
إخطاء القتال . يعنى أن لسانه أشد فتكًا من سيفه ، عني ما في سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إنَّ عقلَ الرسولِ يدك على مُرسِله ، واعتدالُ القناةِ يدك على حدِّقِ
 المنقَف ، ومَدِينُكَ الوزيرَ راجعٌ إلى مَنْ اختاره ، وإنَّ تصوُّبَ ظنِّ المتفرِّسِ
 فيه ومَدِينَتَنَا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمُحتَذَى على مثاله ، بل قد علمَ النَّاسُ
 أنَّ الحظَّ الأكبرَ للأمرِ دونَ اللطيم ، وللمعلمِ دونَ القائل ، ولأنَّ السَّببَ في
 عداله ^(١) وعند النُّظَرِ والتحصيل ، أفضلُ من السَّببِ ،
 والمنبوعُ خيرُ من النابع . ألا تَرَى أنَّ مَنْ مَدَحَ الْأَنْصَارَ فهو للنبيِّ صلى الله
 عليه وسلم والمهاجرين أمدحُ ، وإن لم يظهر ذكرهم في الوصف .

قال جرير :

ظ ١١٤

• تَلَكُمُ قُرَيْشِي وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي ^(٢) •

وقال رؤبة :

• وَمَنْ عَلَى الْمَنِيرِ لِي وَالْمَنِيرُ •

وربما كانت الكتابةُ أبلغَ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح
 والشرح . وربما أتى من السكوت ما يَعْجِزُ القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته
 وغاية أمنيته بالإيثار ، والإشارة ، حتى يكون تكلف القولِ فضلاً ، والكلامُ
 حَطَلًا .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قَوِيَ عقله بطبيعته ، واتَّصفَ عزيمته من
 شهوته ، وكان عمله وَفَّقَ علمه ، وعمله غامراً لخاصته .

(١) يانح في الأصل بمقدار كعين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

• إن الدين اجتوا محداً ومكره •

وفي الأصل : « نبيهم قرشي والأنصار الصابرين » .

وقد يعزى الملك على عرقٍ صالحٍ ومنشأ سؤءٍ، فيندح ذلك في عرقه وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عرقٌ صالحٌ ومنشأ صديقٍ ، وتكون أذاته تامةً ويكون مؤثراً لهواء ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن فسد عرقه وخُبت منشؤه .

وقد جمع الله لأمر المؤمنين^(١) مع كرم العروق وصلاح النساء ، البعد من إتيار الهوى . وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فَسأل الله الذي أَسَدنا بخلافته ، أن يَمُنَّ علينا بطول بقائه ، وأن يَخَصَّنَا بحسن نظره كما خَصَّنَا بمعرفة حقِّه ، والاحتجاج لملكه ، والذبُّ عن سُلْطانه .

ولربما كان اللسان أنفذ من السنان ، وأقطع من السيف اليمان .
أطال الله بقاءك وحَفَظَكَ ، وأنعمَ نعمته عليك ، وكرامته لك .

تمت الرسالة بمون الله تعالى وبنه وتوفيقه وتأيدده . والحمد لله أولاً وآخراً
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .

(١) يعني الخليفة العتصم .

٧
رِسَالَةٌ

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد
مُخَبَّرُهُ فِيهَا بَكْتَابُ

الْفُرُوسِ ٧ كِأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، من كلام أبي عثان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتياء » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي فقد سبق ترجته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتياء في الحيسوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابي في القول في أصول الفتياء والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتياء ، وليست هي كتاب الفتياء بحد ذاته .

وتم أجد لهذه الرسالة أصلا في غير مجموعة مكتبة داسد ، وعليها اعتيادي في إخراج هذه الرسالة .

أطال الله بقاءك وأعزك ، وأصلح على يدك .

كان يقال : السلطان سؤق ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها .
وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه -
من موضع السلطان بأرفع للكان ؛ لأن من جمل الله إليه مظالم العباد ،
ومصالح البلاد ، وجعله متصفحا على القضاء^(١) ، وعنادا على الولاية ، ثم جعله
الله منزع العلماء ، ومنزع الضعفاء ، ومستراح الحكام ، فقد وضعه بأرفع
النازل ، وأسمى للراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « لما يزرع الله بالسلطان
أكثر مما يزرع بالقرآن^(٢) » .

وقد كان يقال : شيطان متباينان ، إن صدح أحدهما صاح الآخر : الشيطان
والرعية .

فقد صالح السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقق
الأثر ، وتصدق الشهادة في الخير .

(١) إشارة إلى أنه كان قاضي القضاة .

(٢) في اللسان (وزع) : « وفي الحديث : من برع السلطان أكثر ممن
يرع القرآن » . قل : معناه أن من يكف عن ارتكاب المظالم بحياة السلطان
من تكفه بحياة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن
يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار .

فَسَأَلَ الَّذِي مَنَعَكَ حُسْنَ الرِّعَايَةِ أَنْ يَمْنَحَنَا حُسْنَ الْقَاعَةِ .

وقد نظرتُ في التَّجَارَةِ التي اخترتها ، والشوق التي أفتتها ، فلم أرَ فيها شيئاً يَنْفَعُ إِلَّا الْعِلْمُ وَالْبَيَانُ عَنْهُ ، وَإِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالِدُّعَاءُ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا التَّمَامُونَ عَلَى مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ ، وَنَقَى الْفَسَادَ عَنِ الْبِلَادِ .

وَأَنَا - مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّقَرِ ، وَمِنْ خُمَالِ الْأَنْزَرِ ، وَلَا أَكْمُلُ لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَا أَفِي ؛ إِلَّا أَنِّي فِي سَبِيلِ أَهْلِهِ وَعَلَى مَنَاجِيعِ أَصْحَابِهِ . وَلِلرَّءِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ .

وعندي - أَبَقَاكَ اللَّهُ - كِتَابٌ جَامِعٌ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي أَصُولِ الْفَنَاءِ ، الَّتِي عَلَيْهَا اخْتَلَفَتِ الْفُرُوعُ وَتَضَادَّتِ الْأَحْكَامُ ، وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ جَمِيعُ الْمَذَاهِبِ مَعَ جَمِيعِ الْعُلَلِ . وَلَيْسَ يَكُونُ السِّكْرَابُ نَامِئًا ، وَلِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ جَامِعًا ، حَتَّى تَحْتَاجَ لِكُلِّ قَوْلٍ بِمَا لَا يَصَابُ عِنْدَ صَاحِبِهِ ، وَلَا يَبْلُغُهُ أَهْلُهُ ؛ وَحَتَّى لَا تَرْمِي بِكَشْفِ قِنَاعِ الْبَاطِلِ دُونَ تَجْرِيدِهِ ، وَلَا بِتَوْهِينِهِ دُونَ إِطْلَالِهِ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَهَادُّوا تَخَابَرُوا » .

فَحُثُّ عَلَى الْمُدَّةِ وَإِنْ كَانَ كَرَامًا وَشَبَنًا سِيرًا . وَإِذَا دَنَا إِلَى الْبَسِيرِ الْخُمَيْرِ فَهُوَ إِلَى الثَّمِينِ الْخَطِيرِ أَدْنَى ، وَبِهِ أَرْضَى .

١١٦ و

وَلَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَدْعَى إِلَى التَّعَلُّبِ ، وَأَوْجِبَ فِي التَّهَادِّي ، وَأَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَأَشْرَفَ مَرَاتِبِهِ ، مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْعَمَلَ لَهُ تَبَعًا ، وَالْحَقِيقَةَ لَهُ تَوَاتِبًا .

وَلَا غُدْرَ لِمَنْ كَتَبَ كِتَابًا وَقَدْ غَابَ عَنْهُ خَصْمُهُ ، وَقَدْ تَسَكَّلَ بِالْإِحْبَارِ عَنْهُ ، فِي تَرْكِ الْحَقِيقَةِ لَهُ ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ مَا احْتَمَلَهُ قَوْلُهُ . كَمَا أَنَّهُ لَا غُدْرَ لَهُ فِي الْقَصْرِ عَنْ فَسَادِ كُلِّ قَوْلٍ خَالَفَ عَلَيْهِ ، وَضَادَّ مَذْهَبَهُ ، عِنْدَ مَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ

وتنقّم أذخاله^(١) ، لأنّ أقلّ ما يُزيل^(٢) عذره ويُرّج عيّته ، أنّ قولَ خَصمه قد استهدفَ نَحْصه ، وأحصرَ لُسانه^(٣) ومكّنه من نفسه ، وسلّطه على إظهار عورته . فإذا استراح واضعُ الكتاب من شَفَبِ حصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلّا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه^(٤) .

ومن شُكر المعرفة بِغَاوِي الناس ومَرِاشدهم ، ومضارّهم ومتافعهم ، أنّ تحتمل رِقْل مؤوَّتهم في تعريفهم^(٥) ، وأن تنوحي إرشادهم ، وإن جهلوا فَضَّل ما بُسِدى إليهم .

ولم يُصنِّ العلمُ بِمثل بذله ، ولم يُستَبَق بِمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغُ في إرشادهم من تلاقبهم ، إذ كان مع التلاقب يكثر التطفّأ ، وتُفْرِط الثُغرة ، وتشتد الحَيْثِيَّة . وعند التواجهة يُفْرِط حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباهاة والرئاسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والألفة من الخضوع . وعن^(٦) جميع ذلك تحدث الضَّغائن ، ويظهر التباين . وإذا كانت القنوبُ على هذه الصّفة وهذه الحليّة ، امتنعت من المعرفة^(٧) . وعميت عن الدلالة .

(١) الأذخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) في الأصل : « يزيد » .

(٣) أحصر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقالت سويق العلم والبيان » في ص ٢١٧ تحده مع

خلاف يسير في الحيوان ١ : ٨٤ - ٨٧

(٥) في الحيوان : « في تقويمهم » .

(٦) في الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) في الأصل : « الفرقة » ، وفي الحيوان : « التعرف » .

ولمست في الكتب علة تنفع من دَرَك البغية ، وإصابة الحاجة : لأن التوحد بقرائنها ، والتفرّد بنهم معانيها ، لا يباهى نفسه ، ولا يقابل عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجع على واضعه بأمر :

منها أنه يوجد^(١) مع كل زمان على تفاوت الأعصار ، وبعد ما بين الأمصار . وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والتأريخ بالسئلة والجواب . وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، وتبقى العقب^(٢) ويبقى أثره . ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلفت من عجيب حكمها ، ودوت من أنواع سيرها : حتى شاهدنا بها ما غلب عنا ، وفتحنا بها المستغنى علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم . لقد خسرنا حفظنا في الحكمة ، وانقطع سبيلنا من المعرفة ، وقصرت الهمة ، وضعت النية ، فاعتقم الرأي وماتت الخواطر ، ونابا العقل^(٣) .

١١٦ ظ

وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأحسن ما تكلموا به موقفاً ، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنه . فينبغي أن يكون سيدنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أن قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، والناشر^(٤) للحق من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوجد » .

(٢) في الأصل : « العقب » ، وفي الحيوان « العقل » .

(٣) في الحيوان : « وتبلد العقل » .

(٤) في الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقيّة^(١) ، وهبت ريح العلماء ،
وكسد الجهل والعمى^(٢) وقامت سوق العلم والبيان^(٣) .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حسن في عيني ، وحلا في صدري ،
فلست آمن أن يعتريني فيه من الغلط ما يعترى الأب في ابنه ، والشاعر
في قريضه .

والذي دعاني إلى وضعه مع إشفائي منه ، وهيبتي لتصفحك له ، أتي حين
علت أن الغالب على إرادتك ، والمستولى على مذهبك ، تقرب العالم وإقصاء
الجاهل ، وأنت متى قرأت كتاباً أو سمعت كلاماً ، كنت من وراء ما فيه
من نقص أو فضل ، بأوسع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنت متى رأيت زللاً غفرت
وقومت صاحبه ، ولم تفرغه به ، ولم تحزمه له . ومتى رأيت صواباً أعانتته
ورعيت ، فدعوت إليه وأثبتت عليه . ولأني حين أمنت عقاب الإساءة ،
[و] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكره نفسي
عليه ، وصار ذلك موجباً لتنظمه وموحيًا للتقرب به . والسبب أحق بالتفضيل
من السبب ؛ لأن الفعل محمول على سببه ، ومضاف إليه ، وعياله عليه ،
ومضن به .

وإحساني - مد الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنت محسنًا ، صغيرًا

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا يتعنى النص التقارب

لنص الحيوان ، الذي أشرت إليه في ص ٢١٥ .

في جنب إحسانك ، إذ كنتَ للثَّيرِ له من مَرَاقِبِهِ ، والباعثَ له من مراقده .
فذلك صارَ أوفرُ التصيِّينَ لك ، وأمتنُ السَّبينِ مضافاً إليك . وإن كنتَ
قد قصَّرتَ عن الغاية ، فأنا الضَّعِيعُ دونك . وإن كنتَ قد باعَتهَا ففضلكَ أظهر
وحظُّك أوفر . لأنَّ لم أنشطَ له إلَّا بك ، ولا اعتمدتَ فيه إلَّا عليك .

ولولا سوقُك التي لا ينفقُ فيها إلَّا إقامة السنَّة ، وإماتة البدعة ، ودفع
الظُّلَّامة ، والنظار في صلاح الأُمَّة — لكانت هذه الشَّامة بأرة ، وهذا الجَلَب
مدفوعاً ، وهذا العَلَقُ خسياساً .

فالحمد لله الذي عمَّر الدنيا بك ، وأخذ لظُلمومها على يدك ، وأيدَّ هذا
المُلْكَ بيمينك ، وصدَّقَ فِرَاسةَ الإمام فيك .

وأيةَ منزلةٍ أرفعُ وأيةَ حالةٍ أحمَدُ ، مَن ليس على ظُهرها عالمٌ إلَّا وهو
يَحِينُ إليه ، أو قد رحلَ إليه ، أو قد صارَ إلى كَنَفِهِ وتحتَ جناحه . وليس على
ظُهرها ظالمٌ إلَّا وهو يَتَّقِيهِ ، ولا مظلومٌ إلَّا وهو يستعديه .

ومن يَقِفُ على قدرِ ثوابٍ مَن هذا قدرُهُ ، وهذه حاله ؟ !

وعندى — مذاقُه في عمرك — كتبٌ سوى هذا الكتاب ، وليس
يُمنَعُ مِن أن أهدِيها إليك معاً إلَّا ما أعرفه من كثرةِ شُغْلِكَ ، وكثرةِ ما يَملِكُ
من التَّديير في ليلتك ونهارك . والعلم وإن كان حياةَ العقل ، كما أنَّ العَقلَ حياةَ
الروح ، والروح حياةَ البدن ، فإنَّ حَكَمَهُ حَكَمُ الماء . وجميعُ الغذاء ، الذي إذا
فُضِّلَ عَن مقدار الحاجة عادَ ذلك ضرراً . وإنَّما يسوغُ الشَّرابُ ويُسْتَمَرُّ
الطَّعامُ الأوَّلُ فالأوَّلُ . فكذلك العلم يجرى مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأنِ النفوسِ الثلاثةِ لَباً طالَّ عليها ، وكثُرَ عندها . فليس لنا
أن نَكُون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهِلين بما عليه طبائعُ البَشَر ؛

فإن أقوام ضعيف ، وأنشطهم سؤوم ؛ وإن كانت حالاتهم متفاوتة فإن الضعف لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قرئ عليك — أيذك الله — هذا الكتاب اتسنا أوقات الجلام^(١) وساعات الفراغ ، بقدر ما يمكن من ذلك ويتبين . والله الموفق لذلك ، والمهيئ له . ثم أتبعنا كل كتاب بما يليه إن شاء الله .

وليست بحمد الله من باب الطفرة والمداخلة^(٢) ، ولا من باب الجوهر والقرص ، بل كلها في الكتاب والسنة ، وبجميع الأئمة إليها أعظم الحاجة . ثم نسال الذي عرفنا فضلك ، أن يصل حبنا بحبك ، وأن يعملنا من صالحى أعوانك ، المستمعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يحسن فى عينك وزين فى سمعك ، ما تقرّبنا به إليك ، والتسنا الدنو منك ، إنه قريب محجب ، فقال لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك فى الدنيا والآخرة .

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله ومحبيه الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) الجلام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشى الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

٨

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْفَرَجِ بْنِ نَجَاحٍ الْكَاتِبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انقردت بها نسخة مكتبة داماڊ وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والحلطة » ، فهذه لم ترد في مجموعة داماڊ ، وإنما وردت في الفصول المختارة لعبد الله بن حسان ، وكذا في مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوي كذلك في رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماڊ .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما في جمع الجواهر للعصري ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة التوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنه أبي الفرج وأبي عماد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو عماد ، كما ذكر الطبري في حوادث تلك السنة .

والملاحظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني بها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

جُمِلَتْ فِدَاكَ ، وَأَطَالَ اللَّهُ بِقَاكَ ، وَأَعَزَّكَ وَأَكْرَمَكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَأَيْدَكَ .

قد نسخت لك - أعزَّكَ الله - في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في أبي الفرج أدام الله عزَّه ، ذكروا أن فائلاً رجلاً يكنى أبا عثمان ، ولا أدري أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة ^(١) ، أم أبو عثمان عَفَّان بن أبي العاص ^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان عنبسة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان ^(٣) ، ولا أدري أهو أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن مِلْ ^(٤) ، أم أبو عثمان ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن ^(٥) .

(١) جبهة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبي جهل .

(٢) جبهة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جبهة أنساب العرب ١١١ وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) في الأصل : « ملاب » . صوابه من الجبهة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بثلاث الميم - بن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي . أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفي سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد^(١) ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان للنذر بن الزبير بن القوام^(٢) ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك^(٣) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد^(٤) ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن^(٥)] عبد دُهْمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سكرة بن حبيب ابن عبد شمس^(٦) ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز^(٧) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام السجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب^(٨) .

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفي الأصل : هـ بن جندب بن عبد شمس هـ ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ العقلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفي بخران سنة ١٤٤ وراثه للتصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ العنبري^(١) ، أم أبو عثمان
ابن عمر بن أبي عثمان السُمرى^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان المُجِيمي^(٣) ،
أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي^(٤) .

(١) في الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣
وجمهرة أنساب العرب ٢٠٠ . وهو مولى حصين بن مالك بن الحشخاش العنبري .
قال ابن قتيبة في المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الحشخاش فيروز ، أعظم مولى
بالعراق قدراً . وقد ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من
جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءني برأس الحجاج
فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن الهلب
فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تسكيلا وقتله .

(٢) في الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبو
« أبو حفص عمر بن أبي عثمان السمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان المجيمي البصري ، كان من
عقلاء الناس ودهانهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفي
سنة ١٨٦ . ذكره في البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التي رواها الجاحظ في البخلاء ١٤١ - ١٥٣ وعقب
عليها بذكر رد ابن التوام عليها . وانظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٤
حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفي صاحب ابن مناذر الذي
رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هـد ركننا ما كان بالهدود

ولا أدري أهو أبو عثمان سعيد بن وهب الشاعر^(١) ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الحاركي^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي^(٣) ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر اللزني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأعور النحوي^(٤) ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرَة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتعاليب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البرازي .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا الجوهول موضعه ، المقصور نسبة ، أنه قال :
ما راكب الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، وللصبور على السيف الحسام^(٥) ،

(١) ذكره الجاحظ في البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن العز في طبقات الشعراء ٢٤٧ - ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغاني ٣١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له الرزباني في معجمه ٢١٩ وقال : « أزدى بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما في معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الحاركي الشاعر ، في أيام التأمون أو ما يقاربها . »

(٣) ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٧ : ١٢١ في رواية للعبي عنه . والعبي ، هو محمد بن عبد الله العبي الأخباري لتوفي سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ في البخل ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بمجد البلاء وشماتة الأعداء ، مَن تعرَّضَ للمتصفِّحين^(١) ، وتحكَّك
بالمُتَيَّابِينَ ، وحكَّم في عرض الحسدة للفتايين .

فإن سَلِمَ فبحسُنِ النِّيةِ ، ولأنه مدَحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكرِيم
صَفُوحٌ ، والحليم متغافل . وإن ابتليَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .
وقال : اللهم اجعلْ هذا القولَ حسناً في عينه ، خفيئاً على سمعه ، وألِهْهُ
حُسْنَ الظنِّ به ، وبَسْطَ المَذْرُوءِ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَحِيمٌ بِالضُّعَفَاءِ .
والقصيدة هي قوله :

أَعْلَمَ بِدَارِ الْخَفَضِ رَاضٍ بِحُظِّيهِ
وَذُو الْخِرَاصِ يَسْرِي حِينَ لَا أَحَدٌ يَسْرِي
يَظُنُّ الرِّضَا بِالْقَسَمِ شَيْئاً مَهْوًى
وَدُونَ الرِّضَا كَأَنَّ أَمْرَهُ مِنَ الصَّغِيرِ
جَزِعْتُ فَلَمْ أَعْتَبْ فَلَوْ كُنْتُ ذَا حِجَا
لَقَنَنْتُ نَفْسِي بِالْقَلِيلِ مِنْ الْوَفْرِ
أُظُنُّ غَيَّ الْقِسْمِ أَرْغَدَ عَيْشَةً
وَأَجْذَلَ فِي حَالِ الْيَسَارَةِ وَالْقُسْرِ
تَعَزُّ بِهَ الْأَحْسَدَاتِ تُرْعِدُ مَرَّةً
وَتُبْرِقُ أُخْرَى بِالْطُّبُوبِ وَمَا يَدْرِي
سَوَاءٌ عَلَى الْأَيْلَامِ صَاحِبُ حُنُكَةٍ
وَأَخْرُكَابٍ لَا يَرِيشُ وَلَا يَسْبِي

(١) للمتصفِّح : التأمل الثعرف .

فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظة
 طَلوباً لنسائِلِ الكارمِ والفخرِ
 خَضَعْتُ لِبَعْضِ الْقَوْمِ أَرْجُو نَوَالَهُ
 وَقَدْ كُنْتُ لَا أُعْطِي الدِّيَّةَ بِالْقَنْسِرِ
 فَلَمَّا رَأَيْتُ الرِّءْيسَ يَسْأَلُ بِشِرِّهِ
 وَيَجْعَلُ حُسْنَ الْبِشْرِ وَاقِبَةَ الثُّبْرِ^(١)
 رَبَّعْتُ عَلَى ظَلْمِي وَرَاجَعْتُ مَنْزِلِي
 فَصِرْتُ حَافِئاً لِلدِّرَاسَةِ وَالْفِكْرِ^(٢)
 وَشَاوَرْتُ إِخْوَانِي فَقَالَ حَكِيمُهُمْ
 عَلَيْكَ الْقِسَى الثُّرَيَّ ذَا الْخَلْقِ الْقَمَرِ
 فَتَى لَمْ يَقِفْ فِي الدَّهْرِ مَوْقِفَ ظُنَّةٍ
 فَيَحْتَاجُ فِيهِهِ لِلتَّنَطُّلِ وَالْعُدْرِ
 أَعْيَاكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلِ شَامِتٍ
 أَبُو الْفَرَجِ لِلْأَمْوَالِ يَزْهَدُ فِي عَمْرٍو
 وَلَوْ كَانَ فِيهِ رَاجِئاً لِرَأْيَتِهِ
 كَمَا كَانَ دَهْرًا فِي الرِّخَاءِ وَفِي الْبُشْرِ
 أَتَرَعَى - فَدَتِكَ الْيَوْمَ نَفْسِي وَأَسْرَتِي -
 بِتَأْخِيرِ أَرْزَاقِي وَأَنْتَ تَلِي أَمْرِي

١١٩ ظ

(١) أي يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربيع على ظلمه : توقف وانتظر . والظلم : بالفتح : العرج أو شيء به .

ألا يفتي الكتاب والمكر الذي تذر بالحسن وأبد بالنصر
أخاف عليك العين أو نفس وامي وذو الوُد منخوب الفؤاد من الذعر
وعهدى به والله يرشد أمره ويحفظه في القاطنين وفي الشفر
مطلاً على التدبير ما يستقره مسكاً يد محتال عقارب تَسرى
برأي يُزيل العُود من مستقره وأوضح عند الخصم من وضح القجر
وعزيم كغرب الشرف مصمم وقلب ربيط الجأش مثلج الصدر
فيا ابن نجاح أنجح الله سبعكم وأبدكم بالنصر والعدد الدُثر^(١)
فعدت فلم أطلب وجئت فلم أصب خليلاً يواسيني ويرغب في شكري
وإن أخفقت كفى وقد علقنكم قد قال رأي واستنمت إلى شعري^(٢)
أعيذك بالرحمن أن تُشمت العدى فلفنقر خير من شمتة ذى الغدير^(٣)
فإن ترع ودَى بالقبول فأهله ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر
وحبك بي إن شئت ودّاً وخلة وحسبك بي يوم التزاهة والعنبر
ألا رب شكر دثر الرسم دارس وشكر كنش الحيرة في الصخر
قال أبو عثمان المجهول : إذا كان المدح ظاهر الخاسن كثير المناقب
فلم يُعبد الشاعر كان ألوم .

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استقام إليه : أنس به واطمأن إليه . وفي الأصل : « واستنمت »
وإزاءها في هامش الأصل الحرف « ظ » وتحت الحرف « ن » معناه الظاهر
أنها « استنمت » .

(٣) العمر بالكسر وبالتعريك أيضاً : الحق والثل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفة والمعاني النفيسة ،
ويكون التصير متى .

وكيفما تصرفت في الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن
خالفتم فتستغفر الله . وإن شئتم ضعفها بقوة كرمكم^(١) ، وقومتم أودها
بنضل حكمكم ، كان في ذلك بلاغ لما أثنانا . والله الموفق .

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله للوفق للصواب برحمته
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين
وسلامه .

(١) شيعه تشيعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصِّل مَابَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، ومُعنونها :

« فصل ما بين المداواة والحد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الحيران ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجده ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن حاقن ، وزير للتوكل ثم العتمد ، كما يدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتبليغ والإشراف للسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء ، والكتاب للجهشياري ٢٥٤ والقصرى لابن طباطبا ٣١٦ ٢٢٨٠ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة داماد ، وهي النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، ولستشرق باول كراوس نسختهما التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن لجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هي « رسالة الحامد والمهسود » ، وليست في مجموعتنا هذه ، فمرعدها في النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .

(١) «صَبَّ اللَّهُ مَدَنَكَ السَّادَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَقَرَنَهَا بِالْعَافِيَةِ وَالشُّرُورَ ،
وَوَصَّاهَا بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَالسَّكْرَامَةِ الَّتِي لَا تَحُولُ .

هَذَا كِتَابٌ - أَطَّلَعَ اللَّهُ بِقَائِكَ - نَبِيلٌ بَارِعٌ ، فَضِّلَ فِيهِ بَيْنَ الْحَسَدِ
وَالْعَدَاوَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَا إِلَى كِتَابِ فَضْلِ الْوَعْدِ الَّذِي تَقْدِّمُ هَذَا
الْكِتَابَ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوُزَرَاءِ الَّذِي تَقْدِّمُ كِتَابَ فَضْلِ الْوَعْدِ .

وَأِنَّمَا نُبِلْتُ هَذِهِ الْكُتُبَ وَحَسُنَتْ وَتَرَعَتْ ، وَبَدَّتْ غَيْرَهَا ؛ لِمَا كَتَبْتُهَا
شَرَفَ الْأَشْرَافِ ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْأَنِيْقَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَنَارِ الْحَسَنَةِ الْإِطْلَافَةِ ،
وَالْأَحَادِيثِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ ، وَاللِّكَاثِمِ الْبَاقِيَةِ لِلْمَأْتُورَةِ ، مَعَ
مَا تَضَمَّنَتْهُ (٢) مِنْ سِرِّرِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَوُزَرَاءِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَمَا جَرَتْ
عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ .

فَأَنَا أَسْأَلُكَ بِسَامِعِ كَرَمِكَ وَنَاصِعِ فَضْلِكَ ، لَنَا (٣) اِمْتَنَنْتَ عَلَيَّ بِصَرْفِ
عَنَابَتِكَ إِلَى قِرَاءَتِهَا . فَإِنْ لَمْ يَمَكِّنْكَ تَجَرُّهَا وَالتَّقْصِي لَجْمِهَا ، لِلْإِشْفَالِ الَّتِي

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ كَمَا أَمَرَ بِهِ .
وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا سَنَّهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « مَا تَضَمَّنَتْهَا » .

(٣) لَنَا . هُنَا ، بِمَعْنَى إِلَّا ، كَمَا فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا

حَافِظٌ » .

تَعْرُوكَ ، فَيَحْبِسُكَ ^(١) أَنْ تَغْفَ عَلَى حُدُودِهَا ، وَتَتَعَرَّفَ مَعَانِيَ أَبْوَابِهَا بِتَصَفِّحِ
أَوَائِلِهَا ؛ فَإِنَّ مَعَكَ قَلْبًا بِهِ مِنَ الْيَقِظَةِ وَالذِّكْرِ ، وَالتَّوَقُّدِ وَالْحِفْظِ ، مَا يَكْفِي
مَعَهُ النَّظَرَ الْخَاطِطَ ^(٢) .

إِنَّهُ لَمْ يَخْلُ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الذَّاهِبَةِ إِلَّا وَفِيهِ عُلَمَاءُ
مَحْقُوقُونَ ، قَدْ قَرَعُوا كُتُبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، وَدَارَسُوا أَهْلَهَا ، وَمَارَسُوا [الْوَاقِفِينَ ^(٣)]
لَهُمْ ، وَعَانَوْا ^(٤) الْحَافِظِينَ عَلَيْهِمْ ، فَمَخَّضُوا الْحِكْمَةَ وَمَجْمَعُوا عِيدَانَهَا ، وَوَقَفُوا
عَلَى حُدُودِ الْعِلْمِ ، خَفِظُوا الْأَثْمَاتِ وَالْأَصُولَ ، وَعَرَفُوا الشَّرَائِعَ وَالْفُرُوعَ ،
فَفَرَّقُوا مَا بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَالنِّظَائِرِ ، وَصَاقَبُوا بَيْنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَوَصَلُوا بَيْنَ التَّجَاوُرِ وَالتَّوَازِي ^(٥) ، وَاسْتَنْبَطُوا الْغَامِضَ الْبَاطِنَ بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ ،
وَاسْتَظْهَرُوا عَلَى الْخَلْقِ لِلشَّكْلِ بِالْمَكْشُوفِ الْمَعْرُوفِ ، وَعُرَفُوا بِالنِّفَمِ النَّاقِبِ
وَالْعِلْمِ النَّاصِعِ ، وَقَضَتْ لَهُمُ الْمِجَنَّةُ بِالذِّكْرِ ، وَالْفَعْلَانَةُ ، فَوَضَعُوا الْكُتُبَ فِي
و ١٢١
ضُرُوبِ الْعِلْمِ وَفَنُونِ الْأَدَابِ لِأَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَالْأَخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِمْ .
يَزْدَلِقُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْمَتَنِ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ ، وَأَبَانِهِمْ
مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَفَضْلِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَبَاهُونَ بِهِ الْأُمَمَ الْخَاطِفَةَ لَهُمْ ، وَيَقَارُونَ بِذَلِكَ
فِيمَا يَنْبَغُ . وَلَهُمْ حُسَادٌ مَعَارِضُونَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْعِلْمِ وَالْكَتَبِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَبِنَفْسِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « نَظَرَ الْخَاطِطِ » .

(٣) مَوْضِعُهَا يَبَاضُ فِي الْأَصْلِ .

(٤) مِنَ الْعَانَةِ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَعَانُوا » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بَيْنَ التَّجَاوُزِ وَالتَّوَارِي » .

مستحلة يدعون مثل دعاويهم ، قد سموا أنفسهم ببيات الباطل ^(١) ،
 وتسموا ^(٢) بأسماء العلم على الحجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور
 متزلفين متشبعين بما لا يحصول له ^(٣) . يحتذون أمثلة المحققين في زيهم
 وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألقاظهم وألحاظهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،
 ثيبتوا إليهم ويحلوا محلهم ، فاستأوا هذه الحيلة قلوب ضعفاء العامة ،
 وجهلاء الملوك ، واتخذهم ^(٤) المادون للعلماء المحققين عُدَّة يستظهرون بهم
 عند العامة . وحلّ الدُّعْبَةَ للعلم المزور الحسد على بهت العلماء المحققين ،
 وعرضهم والظن عليهم ^(٥) ، وجبرأهم على ذلك ما رأوا من صفوة ضَعْفَةِ
 القلوب وإذلة الناس إليهم ^(٦) ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأملوا
 أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرئاسة على طغاة الناس
 ورعاعهم ، ويستخولوا رُعاتهم ^(٧) وقومهم ، فهمروا وهذروا ^(٨) وتورّخوا

(١) أى ببيات غير حقيقة .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشيع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « انتشيع بما لا يملك كلابس
 نوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وانجدهم » .

(٥) الضم : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إنكاهم .

(٦) الضم : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صفو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الحمر : الدفعة بنضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بقبولهم^(١) ، وكشفوا أغشية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا
سترًا كان مُسدلاً عليهم بالصمت . فقد قيل : « الصمت زين العالم ، وسير
الجاهل » ؛ طمعاً في الرياسة وحُباً لها . وقد قيل :

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وقلما تجدُ الراضين بالقسم

ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك
من الأمم فيما سلف بحُبِّ الرياسة . وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر
فحبُّ الرياسة .

١٢١ ظ وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتي الساعة بحُبِّ الأمر
والنهي ، وحُبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامة أمرُ العالم الحقيقي والمدعى الجارى المتحل للزُّور
والباطل ؛ ثم ترادف عليهم من هذه العلى التي يعنى لها السبيل الواضح
والطريق للنشأ^(٢) ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى القبا المسترهق^(٣) .

ولست آمنُ - جعاني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أعنى
بتأليفها ، وأتأنق في ترصيفها ، يتولَّى عرضها عليك من قد ليس لباسَ
الزُّور في انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسه إلى القوة على نظائرها ، والمعرفة
بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها قايماً عمها ، ونشجع بما لم يُطعمه الله منها .

(١) من قولهم : توردت الحيل الباردة ، إذا دخلتها قليلاً قليلاً قطعة قطعة .
وفي الأصل : « توددوا » .

(٢) في الأصل : « اللتا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفي الأصل : « وذى القبا » ،
ووجه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوَّلَه^(١) ، أو بعضَ من يَهْزِلُ به ، ويرتفع في عقله ويأهبو بآبِه ، ويضعه على طَبْطَابَةِ الْأَمْب^(٢) ، وفي أرجوحة العُبث ، يومه^(٣) الحسدَ له على ما يدعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعائلهم ضراوةً بأدعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أنَّ مثله كما قد قيل :

ومن يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طِحَالُهُ

وَيُعْبِطُ بِمَا فِي الْبَطْنِ وَالْبَطْنُ جَائِعٌ^(٤)

وقد قيل : « الذَّنْبُ يُعْبِطُ وَهُوَ جَائِعٌ » . فيلتوى في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسَطِ ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقصر في تفخيم حروفها ولا يملأ قَمَهَ منها .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الظَّنِّ عليها بقول أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظْهِرَ المعادة لها ، والحسدَ لمؤلفها ، والحلَّ عليها بقول يكون دليلاً على ما يضر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعُه فيه^(٥) ، فيقع ذلك بِخَلْدِهِ . وقد قيل :

« مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ » .

(١) في الأصل : « ما حَوَّلَه » .

(٢) الطَّبْطَابَةُ : خشبة عريضة يلبس بها بالكرة . وفي الأصل : « طَبْطَاب » .

(٣) في الأصل : « في يومه » .

(٤) البيت في الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعرا ٧٣١ وأمثال الديداني ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأنجعُه » .

وليس يقابله أحدٌ برَدٍ^(١) ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً
عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجَرِّ في الخلاء يُسَرُّ »^(٢)
وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَف جَرَى الخيل عند المسابقة ،
وبراعة النظر عند الخاصمة .

وقال لي بشرُّ الريسى^(٣) : عُرض كتابي على المأمون في تحليل التَّيْبِذ ،
وعُضْرته محمد بن أبي العباس الطُّوسى ، فانبرى للطَّعن عليه والمعارضة للحُجج
التي فيه ، وأسهبَ في ذلك وخَطب ، وأكثر وأطَّلب ، فقلَّقَ المأمونُ
واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسى^(٤) وخلاء المجلس له ، وكان

١٢٢ و

(١) في الأصل : « يود » .

(٢) في الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والبيداني
٢ : ٧٣ وأما في القالى ٢ : ٨٩ . وروى أيضاً « مسر » كما في البيان ١ : ٢٠٣ .
وأصله أن الرجل يجرى فرسه في السكبان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى
من فرسه . يضرب للرجل تسكون فيه الحيلة بمعهدها من نفسه ولا يشعر بما في الناس
من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة الريسى ، نسبة إلى مريس
أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف في ضبطها بفتح الهم وكسر الراء مخففة
أو مثناة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكية بكسر الهم وبتشديد الراء .
كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصاراً صابغاً . وإليه نسب فرقة المريسية .
توفي سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعاني ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ :
٢٩ - ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحقار والاستصغار .

يحبُّ أن يَرَّعَهُ وازعجَ بكفه بحجبة تُسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته بذبَّ
عن كتابي قال متملاً :

يَا لَيْتَ مِنْ قُسْبَةٍ بِنَمَرٍ خَلَّالِ الْجَوْ فَيَبْضِي وَاصْفِرِي
وَتَقْرِي مَا شِئْتُ أَنْ تَقْرِي^(١)

فما كان إلا ربَّتَ فراغِهِ من التمثل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي
فدخلتُ عليه ، فقال : يَا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في النبذ ؟ قلت : حِلٌّ طُلُقٌ
يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعنَ الله قليله
إذا لم يسكر [إلا^(٢)] كثيره . ثم قال : إِنَّ عَمْدًا يَخَافُكَ . فأقبلت على
ابن أبي العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافةَ
بينِي وبينكَ . كلاماً يوم به أهلُ المجلس ، حبّاً للتسليم مَنِي والتخاضع من
مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لي
لا أرى أثر قُوَاهُ في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكَه أطبعتُ
في معاني تحليل النبذ ، وابن أبي العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولي
ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوتَه عند حضوري مع كثرة كلامه
في ثَلَبِ كتابي وعيبي - كان - قبل دخولي ، قال متملاً :

مَالِكٌ لَا تَنْتِجُ بِأَكْلِبِ الدَّوْمِ قَدْ كُنْتَ تَبَاحًا فَمَا لَكَ الْيَوْمَ^(٣)

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير .
وقال ابن بري : هو السكيب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان (قبر) .
وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده في الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلى فقال : إنَّ الكتبَ عقولُ قومٍ ورائها عندهم حججٌ لها ،
فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلا إذا كان له دافع عنه ، وخَصَمٌ يبين عَافِيَهُ ؛
فإنَّ أبناءَ النعمِ وأولادَ الأُشدِّ محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، يازاء كل حاسد راعن .

وقد قيل في مثلٍ من الأمثال : « الحسن^(١) محسود » . وفي مثل
آخر : « لن تعدم الحسنة ذامًا^(٢) » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادف مرعى مرمعا أبدًا إلا وجدت به آثار ما كولي^(٣)
يقول : يُماتُ^(٤) في كلِّ [مرعى^(٥)] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيعيبه ذلك .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعد نعمة
إلا وجدت له عليها حاسدًا . ولو أن امرأ كان أقوم من القِدْحِ لوجدت
له غامرًا^(٦) » .

(١) في الأصل : « الحسد » .

(٢) الذام ، بتخفيف اليم : العيب . ومثله القديم . وضبطت في ط بتشديد
اليم سهواً .

(٣) وكذا في أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن في أدب الدنيا والدين ١٣٥
« آثار متجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) في الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تسكئة يقتضها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عثانَ حسده ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نمير السّعدى : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسد الحسن والقيبح .

وقال للّهّب بن أبى صفرة : الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب ، وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينبجهم قرنها ، وتبدى صفحتها في أوقات الهتر . وإلا فإنها كامنةٌ تنتهز أزمته القرض . والحسد مغلوب المقول بإزاء الضمير في كل حين وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موكّل بالأدنى فالأدنى ، والأخضر فالأخضر . والعداوة وإن كانت تقبّح الحسن فهي دون الحسد ؛ لأنّ العدوّ البائن قد يحول وليّاً منافقاً ، كما يحول الوليّ المنافق عدوّاً مباحناً .

والحسد لا يزول عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعلّة^(١) ، فإذا زالت العلّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه^(٢) فهو لا يزول إلّا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أَرْضَى الناس كلّهم إلّا حاسداً نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلّا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحاميين عنها ، والدافعين عنها .

(١) في الأصل : « العلة » .

(٢) كذا في الأصل .

ومن هذا قال المفيرة بن شعبة : النعمة التي يُعاش فيها نعمةٌ محروسةٌ ليس عليها ثأرٌ يفتالها ، ولا ذو حسدٍ يحْتال في غيْرِها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخَيْر وأحصنه خيرٌ عِيشٍ فيه . وكلُّ خيرٍ كان رُضْخٌ^(١) بذلاً كان من التالف ممنوعاً ، ومن الغَيْر آمنة .

وحُسادُ النعمة إن أعطوا منها وتَبَحَّجُوا فيها ، ازدادوا عليها غِيظاً وبها إغراء .

والعداوة تُخْلِقُ وتُكَلِّمُ ، والحسدُ غَضٌّ جديدٌ ، حُرِّمَ أو أُعْطِيَ^(٢) ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ محاسد . وإنما حل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم — أنه نبيٌّ صادق ورسولٌ مُحَقِّقٌ ، يقرءون بعثه في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم^(٣) — الحسدُ ، وحجَزٌ بين عِلسانهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أنَّ الحسدَ آلمٌ وآذَى وأوجعٌ وأَوْضَعُ من العداوة ، أنه مُغَرِّى بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوة عارِبةٌ من ذلك لا تنصلُّ إذا اتصَلت إلَّا بأفعال العباد . ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عادى أحداً لأنَّه حسن الصورة جميلُ الخَسان ، فصيح

(١) رَضَخَ له من ماله رَضْخاً : أعطاه . والبذل : السخاء . وفي الأصل : « يوضح بذلاً » .

(٢) في الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذي يدرس فيه . وفي الأصل : « مدارسهم » .

اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالغبر والشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب الشؤس^(١) .

والحسد أخو الكذب ، يخريان في مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيمان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله إذ لم يستحلوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كفَّرائر الحُشنا ، قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه للدميم^(٢)
والحسد نارٌ وقوده الروح ، لا تبُوح أبداً أو يفتن الوقود^(٣) . والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة^(٤) . والحسد جوهر والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أثنى ، لأنه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فحل ، ١٢٣ .
لأنها عزيزة .

(١) الشؤس ، بالضم : الطبع ، والحلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفى البيان : « حسداً ونيفاً » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « وينى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التثريد العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى فإنه لم يمر منه لأبعد فلا بعد .
فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق ويتحلل العلم والأدب ، انتهى إليه
خبر مشاركه في الصناعة من أهل خراسان وجنبة بلخ^(١) من اتساق الرياضة
في بلده ، وجميل حاله ونبيل محله عند أهل مصره ، وطاعة العامة له ،
وتراؤف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا ، وأخذته الأرباب^(٢) ، ونفس الشعراء
وانتفض انتفاض النفس المطور^(٣) ، فقال لي رجل من إخواني كان
عن يميني ، حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : « لم ير ظالم أشبه
بمظلوم من حاسد نعمة ؛ فإن نفسه متصل ، وكربه دائم ، وفكرته
لا تنام » .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشد لصوقا منه
بغيرهم من الملوك والشوكة . وكان من ناله التفتير في صناعة العلم عن غايته
التقصوى^(٤) قد استثمر حسدا كل ما يرد عليه من طريف أدب ، أو أنيق
كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلفه لضعفه ، وقر في روعه لحاسته^(٥) ،
أنه لا ينال أحد منهم رياسة في صناعة ، ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالظعن

(١) في الأصل : « وجه » ، بدون نقط . والجنبة : الناحية . وانظر الحيوان
: ٤٩ .

(٢) الأرباب : جمع ربو ، وهو البهر والتهيج وتواتر النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده في الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وحسنت فيهم كمطور يلدته
فسر أن جمع الأوطان والطرأ
وفي الأصل : « العلى » تحريف .

(٤) في الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الحساسة : الحسة والدنائة . وفي الأصل : « لحاسه » .

على نواصبهم^(١) ، والعيب لجاتهم ، والتخيف لحقوقهم .

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر ، الذي يُعرف بصريح الفوائ^(٢) : خُيِّلَ إلى نوَكِي الشعراء أَنَّهُمْ لَا يَقْضَى لَهُمْ بَعْدُودَةُ الشَّعْرِ إِلَّا بِهَجَانِي وَالطَّنْ فِي شَعْرِي ، وَلِسَانِي يَهْجِي بِهِ عَرْضِي ، لَا أَنْفَكُ مِنْهَا^(٣) مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، إِلَّا مَا سَبَقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِ الظُّلُونِ وَالْخَوَاطِرِ الَّتِي أَوْهَمَتْهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْجُلُ لَهُمْ بَعْدُودَةُ الشَّعْرِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَرُوا قِيَّ مَا خُيِّلَ إِلَيْهِمْ .

وأخبرني أسيابنا من أهل خراسان أَنَّ أَبَا الصَّلَاتِ الْهَرَوِيَّ كَانَ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ بِمَرُوءٍ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابًا بِاللَّهِ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ ، فَطَقَّنَ أَبُو الصَّلَاتِ فِيهِ ، وَكَانَ الْقَفْضُ عَارِفًا بِالنَّضْرِ الشُّمَيْلِيِّ ، وَاتَّقَا بَعْلَهُ ، مِثْلًا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي الصَّلَاتِ وَقَالَ لَهُ : إِنْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ قَالَ يَوْمًا : إِنْ كَتَبْتُ لَعْنَتُكَ عَلَى مَنْ يَمْلُظُ قَهْمَهُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَيَجْسُو ذَهْنَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَبْلُغُ أَقْصَى عِلْمِهِ مَا فِيهَا^(٤) — يُعْرِضُ^(٥) بِإِسْمَاعِيلَ بْنِ صَبِيحٍ^(٦) — فَيَطْمُنُ فِيهَا وَلَا يَدْرِي مَا يُقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْهَا . إِلَّا أَنْ تَرَى الْحَسَدَ نَاجِيَهُ فَيَهْذِي

(١) التواصي : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما في النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ .
وكان قد اتصل بذي الرِّيَاسَتَيْنِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ، فَوَلَّاهُ بَرِيدَ حَرْجَانَ ، وَبِهَامَاتٍ .
معجم الرزياني ٣٧٢ .

(٣) في الأصل : « مِنْهَا » .

(٤) في الأصل : « أَمَانِيَا » .

(٥) في الأصل : « تُعْرِضُ » .

(٦) كان إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ كَاتِبًا لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبُرَيْكِيِّ . الْجَهْشِيَارِيُّ ١٥٠ .

وقد ذكر إبراهيم الحارثي ديوان زمام الشام وما يليها . الْجَهْشِيَارِيُّ ١٦٨ .

هَذَانِ الْمَرِيضُ ، وَبِهِمْ هَزَبَاتِ الْغَيْرَى ^(١) ، ثُمَّ لَا يَرْضَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ
الطَّمَنِ وَيَمِيلَ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَقْصَى عَلَى نَفْسِهِ إِظْهَارَ جَهْلِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ،
بِاسْتِعْمَالِهِ الطَّمَنِ عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ حِرَاقَتَهُ ، وَلَمْ يَحِطْ بِهِ عِلْمُهُ ، ثُمَّ يُنْسِيهِ جَهْلُهُ
الطَّمَنَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْهُ فِيهَا ، وَيَعْمَلُهُ نَوَكُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا وَالْفَاضِلُهَا ،
فِي كِتَابِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ فِي أَوَّلِ طَعْنِهِ عَلَيْهَا ، وَحِينَ
ثَلَاثُهَا .

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ . وَإِنِّي رَبُّهَا
أَلَقْتُ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ الْمُتَقَنَّ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ ، وَالرِّسَالِ وَالسِّيَرَةِ ،
وَالْمُطَلَّبِ وَالْمُطْرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبُهُ إِلَى نَفْسِي ،
فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّمَنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرَكَّبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ
يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاعَتَهُ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ
مُؤَلَّفًا لِلْمَلِكِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحَطِّ وَالرَّفْعِ ، [وَالتَّرْغِيبِ ^(٢)]
وَالتَّرْهيبِ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِجَاجَ الْإِبِلِ لِلْفَتْلَةِ ، فَإِنْ أَمَكْنَتْهُمْ
حِيلَةٌ فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ
وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلَّفُ فِيهِ الْكِتَابُ غَيْرَ رِئَاسِيًّا ، وَغَيْرَ قَرِيبًا
بَلِيغًا ، وَحَاضِرًا فُطْنًا ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْقَوْا
مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا ، وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتُّوا إِلَيْهِ بِهِ ^(٣) ، وَهُمْ
قَدْ ذَفَرُوهُ وَثَلَبُوهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ ، وَمَوْسُومًا بِي .

(١) الحمز : العيب . والهماز : العيب . وفي الأصل : « هزبان » ، تحريف .

(٢) لبست في الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمثل : التوصل بحمرة أو قرابة .

وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأ ترجمه باسم
 غبرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل ، وسلم صاحب
 بيت الحكمة^(١) ، وعيسى بن خالد ، والتمتاني ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي
 الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان
 أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه
 بخطوطهم ، ويصيرونه إماما يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، وينادون
 به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه على
 لغبرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [و] يأنم بهم قوم فيه ؛
 لأنه لم يترجم باسمي ، ولم يفسب إلى تاليفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مختصا كأنه متن حجر أملس ،
 بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين
 إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهم^(٢) بنسبته إليه لجودة نظامه
 وحسن كلامه ، فأظهره مبهما غفلا في أعراض أصول الكتب التي لا يعرف
 وضاعها ، فينبهون عليه^(٣) انهيار الرَّمْل ، ويستيقون إلى قراءته سباق
 الخليل يوم الحلبة إلى غايتها .

وحسد الجاهل أهون شوكة وأذل يحنا ، من حسد العارف الفطن ؛
 لأن الحاسد الجاهل يتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه ، من

(١) ذكره ابن التديم في الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب
 خزنة الحكمة ، وسعيد بن هارون شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهم » ، خلافا لما في الأصل .

(٣) في الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقة واحدة : ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده ^(١) . وليس تدبئه مفصلاً مفصلاً ، ولكنه يحمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، وبحسب أنه كلما ازداد إغراقاً ^(٢) وطعناً وإطناباً في التحلل على واضع الكتاب ^(٣) ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم أن السمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به ، وبكته بالجليل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

١٢٥ و

والحاسد العارف الذي فيه تقية ومعه سُكَّة ، وبه طمَّ أو حياء ^(٤) ، إذا أراد أن يقتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرتة وجلسائه ، من الثبّت والتأني حبالاً يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعى به ألبابهم ^(٥) ، وسُلماً يرتقى به إلى مراده منهم ، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخلدع . فيوم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استرعى ^(٦) بهذه الحائل والخلدع قلب السيّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفي الكتب إذا كان العارض

(١) في الأصل : « وحروفه » . وانظر ص ١١ .

(٢) في الأصل : « غرقاً » .

(٣) في الأصل : « وضع الكتاب » .

(٤) الطعم : [العقل] . وفي الأصل : « طعمة » .

(٥) في الأصل : « يستدعى » .

(٦) في الأصل : « استدعا » .

لها على السيد الذي منه تربي أئمانها ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتها من الحسد والحقد بأسبابه ، وللعرفه بالوجوه التي تظم الحسود وتهذه ، وتضع منه ومن كتبه . لاسيما إن كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء ، والدكا ، جليسا لازما ، وتابعا لا يفارق ، ومحدثا لا يريم ، وليست له رعة^(١) تحجره عن الباطل ، ولا معه حذر يبعثه على الفكر في المواقب ؛ فإن هذا ربنا وافق فترة السيد بطول تردد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه^(٢) ، ونصرتة قوله ، وزياده عنه ، واحتجاجة فيه ، فيؤثر في قلبه ، وبضجع رأيه^(٣) . فليس للسيد الذي يجب أن يصير إليه الأمور على حقائقها ، ونصوره الأشياء على هيئاتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يعمل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقر على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الظمن الذي كان منه في ١٢٥ ظ الكتاب عن سب وغلظة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همة راجع ما كان^(٤) بدر منه ، لظن به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع ، ودبر خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء

(١) الرعة: التقي والتخرج ، يقال ورع برع وورع رعة وورعا ، وورع يورع وورعا ووراعة . وفي الأصل : « رعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت في ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضييع : التوهين .

(٤) في الأصل : « وكان » .

قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقة على مواضع ، ويعمل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبين له ^(١) خلاف ما قال ، أو ثبوت أسباب عدالته ، وأحكم عرى نصّفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعي به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي [لا ^(٢)] يشك فيه .

وكان يقال : من غمض الرياء أن ترى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ العطن على ما تريد العطن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة ^(٣) ، ثم تمودّ لعطن هو أعظم منه وأطم من الأول ؛ ليوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسدٍ مارجع عن العطن الأول .

وقد قيل : ذو الرّيبة المشهور بها للنسوب إليها بقلّ ضرره ، ويضعف كيد ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنيناً متهماً ، ومعلبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتأذّبه ، من غير قبول ^(٤) ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حُذّاق المغتابين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يشكّمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ويدعون الله

(١) في الأصل : « عند التبين له » .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : « ثم تتمهل فترة » .

(٤) في الأصل : « قول » .

بالتصالح بقول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعوا له قول فيه ،
وأؤكدوا قول القائل^(١) ؛ لأنه لو حلّ عنده محل البراءة مما قيل له لجبه
القائل وردع عن قوله .

ومظهر التوثق قليله عند العامة كثير . والنورّد المتفهم لا تسكاد العامة
تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إن غيب الله^(٢) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
كان من نبلاء اللتائين وحذاقهم حيث يقول :

مَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خَلِقْنَا وَفِيهَا لِلْعَادُ وَالصَّيرُ إِلَى الْخَشِيرِ
وَلَا نَعْمَجَا أَنْ تُؤْتِيَا وَنَعْظِيَا فَاخْشَى الْإِنْسَانُ شَرًّا مِنَ الْكَبِيرِ^(٣)
فَوَشَّتْ أَدْلَى فَيْسِكَا غَيْرَ وَاحِدٍ عِلَالِيَّةٌ أَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي سِرِّ^(٤)
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَّهُ عَنَّا ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى بَلَغَ فَيْسَتَشْرِ
وَمِنْ هَذَا سَرَقَ الْعَنَابِيُّ^(٥) الْمَنَى حَيْثُ يَقُولُ :

إِنْ كُنْتَ لَا تَحْذَرُ شَخْصِي لِمَا نَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآكده إيكادا .

(٢) في الأصل : « عبد الله » ، صوابه من اليان ١ : ٣٥٦ وانظر العيون
١ : ١٤ .

(٣) في الخبر ٣٩٧ : « لاتعجا أن تؤتيا وتكلما » . وفي اليان والعيون :
« ولا تأتعا أن ترجما فتلصبا » .

(٤) في الأصل : « أدلى فيسكا » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كاثوم بن عمرو العنابي ، من شعراء النبوة البغاسية ، كان منقطعاً إلى
البرامكة فوصفه الرشيد ووصلوه به ، بلغ عنده كل مبلغ . الأغاني ١٢ : ٢ - ٩
وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت في الحزارة
٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاحشٌ سَكُوتِي سَامِعاً ضاحِكاً فبكِ لَشَنُوعٍ مِنَ التَّفَانِي
مَقَالَةُ الشَّوْءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مَنَحْدِرِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
وَسئل القاسم بن معن عن ابن أبي نبيلى ، فَقَابَ كَفْيِهِ^(١) وقال :

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْفَى أَبُوهُ وَجَدُّهُ وَجَدُّ أَبِي لَيْلَى لِكَالْبَدْرِ ظَاهِرُ
فَلَمْ تَتَبْتَ عَلَيْهِ بِهِ حِجَّةً فِي ذَمِّهِ وَلَا مَدْحَ . وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرَادَ .

وَسئل يوماً عَنْ عِلْمِهِ فَقَالَ : أَوْعُوهُ وَطَلَبًا ، فَإِنْ كَانَ مُحَصًّا أَوْ مُشَوَّبًا
أَظْهَرَهُ الْوُطْبُ وَمَا خُضُّهُ^(٢) .

فَإِنْ قَدَحَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - بِالْحَسَدِ قَدَحٌ فِيهَا أَوَّلُهُ مِنْ كِتَابِي لَكَ ،
وَسَبَقَ إِلَى وَهْمِكَ شَكٌّ فِيهِ ، أَعْلَمَتْنِي التَّسَكُّنَةُ الَّتِي قَدَحَ فِيهَا ، ثُمَّ قَابَلَهُ
بِحَوَائِي ، فَإِنِ أَرَجُوا أَلَّا نَعْتَاجَ إِلَى حَاكِمٍ عِنْدَ تَجَانِّي الْقَوْلَيْنِ بَيْنَ بَدِيكَ ،
لَعَلَّ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَدَمُوعُهُ إِثْبَاهُ .

١٣ ظ

وَالْحَسَدُ أَذَلُّ نَفْسًا مِنْ أَنْ يُجَانِيَ أَحَدًا ، وَالْعِدَاوَةُ إِنَّمَا قَدَمَتْ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
عَزِيزَةٌ نَمِيعةٌ .

وَيُقَالُ : الْحَسَدُ لَا يَبْدُو إِلَّا فِي الْعَيْنِ وَعَلَى اللِّسَانِ الْقُصُورُ عِنْدَ أَهْلِ
الْمُؤْتَلِفِينَ عَلَى . . .^(٣) وَالْعِدَاوَةُ تَبْدُو وَتَنْجُمُ قُرُونُهَا وَتَبْسُطُ أَسْنَانُهَا عِنْدَ
الْمُؤَاقِبِينَ لَهُ وَالْمُخَالَفِينَ عَلَيْهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَفَيْهِ » .

(٢) يَتَنَبَّهُونَ الْوُطْبُ .

(٣) يَأْمُرُ فِي الْأَصْلِ بِتَقْدَارِ كَلِمَةٍ .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شبيب فقال : ذلك امرؤ سيطاً بالحسد وجبيل عليه ، فليس له أخٌ في السرِّ ولا عدوٌّ في العلانية^(١) .

وسئل القَتَّابِيُّ عن أهل بغداد فقال : حُتَّاءٌ ، إخوانُ العلانية ، وأعداءُ السَّريَّة ، يعطونك الكلَّ^(٢) ويمنعونك القلَّ .

ومما يندبك على أن الحسد أخسُّ وأعْيَنُ من العداوة ، أنَّ المِثْلَ كُلَّهَا ذُنُفُهُ وعابته . ولا نعلم أنَّ شاذَّاً من الشواذِّ ، وشارداً من الشرَّاد ، فضلاً عن جيلٍ من لأجيال ، أمرٌ بالحسد ؛ كما قيل : « عَادِ مَنْ عَادَكَ ، وقَارِعْ بِالْعَدَاةِ أَهْلَهَا » . ثم عَفَلَمُ شَأْنُ العداوة عندهم ، وجلَّ قَدْرُهَا لديهم ، حتَّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم مَنْ أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبيُّ لبشر بن مرون : لو وُجِّهَتْ إلى عمرو بن محمد بن عقيب مولى آل الزُّبَيْرِ - وكانَ شتمه - مَنْ بَاتَيْكَ بِهِ سَجَباً وجراً ! فقال بشر : إني مستعملٌ في عدوِّي قولَ القائل :

وعَادِ إِذَا عَادَيْتَ بِالْحَزْمِ وَالنَّهْيِ تَنْلُ ظَفَرًا مِمَّنْ تُرِيدُ وَتَقْلِبُ

فكانَ بهذا ممن يرى المعاداةَ بالحزم ، ويقتالها بالعقل والتأنِّي .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما شتر بالمدارات ، وأشقاها للأَنْفُسِ ما قُرِعَ بِمِثْلِهَا يَاديًا . وكان ينشد :

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ . والحيوان ٥ : ٥٩٢ . وعيون الأخبار

لا أنقَى حَسَكَ الضَّعَّانَ بِالرُّقَى فِعْلَ الدَّلِيلِ وَلَوْ بَقِيَتْ وَحِيداً^(١)
 ١٢٧ و لكنْ أَعِدُّ لَهَا ضِفَائِنَ مِثْلِهَا حَتَّى أَدَاوَى بِالْحُقُودِ حُقُوداً
 كَأَنَّمَنْ خَبِرَ دَوَانِهَا مِنْهَا بِهِيَ تَشْفَى السَّقِيمَ وَتُبْرِئُ الْمَنُجُودَ^(٢)
 فَانْهَى قَوْلَهُ إِلَى ابْنِ شَبْرَةَ فَقَالَ : « اللَّهُ دَرْعُ رَوْعَةٍ ، هَذِهِ أَنْفُسُ
 الْعَرَبِ ! » .

فَهَؤُلَاءِ رَأَوْا كَشْفَ الْعَادَةِ وَلَمْ يَرَوْا الثَّانِي .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْعَادَةَ بَعْدَ الْفِرَارِ مِنْهَا وَالْإِعْذَارِ فِيهَا ، فَإِنْ هِيَ أَتَتْ
 إِلَّا الْمَقَارَنَةَ قَارَنُوهَا بِمِثْلِهَا .

قَالَ شَيْبِ بْنِ شَبِةٍ : إِذَا رَأَيْتَ الشَّرَّ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكَ فَطَافَنَّ لَهُ حَتَّى
 يَتَخَطَّكَ ، وَلَا تَهَيِّجْهُ وَلَا تَبْحَثْ عَنْهُ ؛ فَإِنْ أَتَى إِلَّا أَنْ يَبْرُكَ عَلَيْكَ فَكُنْ
 مِنَ الْأَرْضِ نَاراً سَاطِعَةً تَتَلَفَّى^(٣) . وَأُنْشِدَ :

إِذَا عَادَاكَ مَحْتَمِكٌ لَيْبٍ فَعَادِ النَّوْمَ وَاحْتَرِسِ الْبَيَانَ
 وَلَا تُثِرِ الرِّبَوضَ وَخَلَّ عَنْهَا وَإِنْ ثَارَتْ فَكُنْ شَبْحاً مَوَاتَا

(١) الْعَسَكُ : جَمْعُ حَسَكَةٍ ، وَهِيَ الشُّوْكَةُ .

(٢) الْمَنُجُودُ : الْمَكْرُوبُ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ :

دَعِ عَنَّا لَوْمَى فَإِنَّ الْيَوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوَى بِأَلْقَى كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
 وَأَصْلُ الْمَعْنَى لِلْأَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَمَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

انْظُرْ سَرَقَاتِ أَبِي نَوَاسٍ لِمَهْلَبِ بْنِ يَمْرُوتَ ص ٧٠ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « سَاطِعَةً سَلَقَى » .

تَجُزُّكَ إِلَى سِوَاكَ وَنَحَّ عَنْهَا غَيْرَ الشَّرِّ أَسْرَعَهُ قَوَاتًا^(١)
 وَإِنْ مَالَتْ عَلَيْكَ وَخَفَتْ مِنْهَا فَوَاجْهَهَا بِجَاهِرَةٍ صَالِحَةٍ^(٢)
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِقَبُولِ الْإِنْصَافِ وَتَرْكِ الْحَاسِبَةِ . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 بْنُ [عَتِيبَةَ بْنِ] مَسْعُودٍ : إِنَّ الْمَلَامَاتِ وَالْمَذَمَّاتِ كَأَهَا قَبِيحَةٌ ، وَأَقْبَحُ التَّلَامَةِ
 وَالْمَذَمَّةِ مَا كَانَتْ فِي تَرْكِ نَصْفَةٍ أَوْ شِدَّةِ مَنَافَسَةٍ فِي تَعْدَادِ الذُّنُوبِ . وَأَنْشَدَ :
 مَنَافَسَةُ الْعَدُوِّ أَوْ الصَّدِيقِ تَجِيرُ إِلَى الْمَذَمَّةِ وَالْمَلَامَةِ
 إِذَا أَعْطَاكَ نِصْفًا ذُو وَدَادٍ وَبَعْضَ النِّصْفِ فَاتَهَزَّ السَّلَامَةُ^(٣)
 وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا تَرْضَ مِنْ عَدُوِّكَ إِلَّا بِالْقُلَمِ ، وَلَا تَقْبَلْ إِنْصَافَهُ
 وَنَافَسَهُ فِي ذَلِكَ^(٤) . قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ :

أَبَا طَالِبٍ لَا تَقْبَلِ النِّصْفَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنْصَفُوا حَتَّى تَعْقَّ وَتَنْظَلَا
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِمَعُونَةِ الدَّهْرِ عَلَى الْعَدُوِّ إِذَا حَمَلَ عَلَيْهِ . قَالَ : حَدَّثَنِي
 إِبْرَاهِيمُ بْنُ شُعْبَةَ الْحَزْرَوِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ مِنْ حَكِي لِي عَنْ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ
 قَالَ : إِذَا رَأَيْتَ يَدَ الدَّهْرِ قَدْ أَلَمَتْ عَدُوَّكَ فَبَادِرْهُ بِرَجْلِكَ ، فَإِنْ سَلِمَ مِنْ
 الدَّهْرِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ . وَأَنْشَدَ :

إِذَا بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَى عَدُوِّكَ بَنَكَبْتَهُ أَعْنَتَ لَهُ الزَّمَانُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَنَحَّ عَلَيْهَا » .

(٢) مَصْدَرُ صَالَتْ ، وَالْفِعْلُ وَمَصْدَرُهُ لَمْ يَرَدْ فِي الْمَعَاجِمِ لِلْعِدَاوَةِ . وَمَادَّةُ (صَلَتْ)
 تَدُلُّ عَلَى الظُّهُورِ وَالسَّرْعَةِ .

(٣) النِّصْفُ ، بِالْكَسْرِ : الْإِنْصَافُ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « مِنْ ذَلِكَ » .

قال العتصامي : قات لطوق بن مالك^(١) : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حلت الأيام على عدوك ثِقْلاً وأمكنك منه فزده ثِقْلاً إلى ثقله . قال : فقال لي طَوق : من لم ينتهر من عدوه انتهر منه ، وحالت الأيام التي كانت يبغض عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظننت بشائر حَرَّانٍ ليس على الثَّرابِ براقِدٍ
أُحَدِّثُهُ نِمَ اضْطَجَعْتَ ولم يَمِ أسفاً عليك وكيف نَوْمُ الحاقِدِ
إِنْ تُمْكِنَ الْأَيَّامُ مِنْكَ ، وَعَلَيْهَا ، يَوْمًا تُؤَفِّكُ بالصَّوْاعِ الزَّائِدِ^(٢)
وَلَنْ سَلَمَ لَأَتْرَكَكَ عَارِضًا بَعْدَى لِكُلِّ مُسَالِمٍ وَمَعَانِدٍ
ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَرَى جَبَرِ كَسْرِ الْعَدُوِّ وَإِفَالَةَ عَثْرَتِهِ ، وَنُصْرَتِهِ عِنْدَ
وُثُوبِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة^(٣) : كانت الحرب يوم

(١) في الأصل : « مالك بن طوق » وفي هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتي بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما في جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتاني في الأغاني ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغاني ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رجة مالك بن طوق ، أنشأها في عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كلما

يلاحظني من حيثنا أنلت

(٢) وعليها ، أي ولعلها . في الأصل : « تؤفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي ، أبو شبرمة الكوفي القاضي ، ولله أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة في الحديث ، شاعراً حسن الخلق جواداً . ولد سنة ٧٢ وتوفي سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صَفَيْنَ بين العربِ نَحْصَةً لا شوبَ فيها ، فَكَانَتْ مَحَارِبَتَهُمْ كِدَامًا وَاعْتِنَاقًا ،
وَكَانُوا إِذَا مَرُّوا بِرَجُلٍ جَرِيحٍ كَانُوا يَقُولُونَ : خَذْلَهُ قَوْمُهُ فَانصروه ،
وَأَلْقَاهُ دَهْرُهُ بِمُضْمَةٍ فَرَدُّوهُ إِلَى أَهْلِهِ .

وَقَالَ ابْنُ شُرَيْمَةَ : مَا زِلْنَا نَسْمَعُ أَنَّ الْمَصِيبَاتِ تَنْزَعُ السَّجِيَّاتِ .

قَالَ : وَأَنْشَدَنِي بِمَعْنَى أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

فَقَرُّ بِي بِدَأْتُمْ قَبْلَ مَنْ قَدْ دَعَوْتُمْ لَدَرْجَتِهَا وَحَدَى وَلَوْ بَأَتْ جَهْدِي
إِذَا الْمُرء ذُو الْقُرْبَى وَذُو الْحَقْدِ أَجْعَلَتْ بِهِ سَنَةً سَلَّتْ مَعِيبَتُهُ حَقْدِي ^(١)
وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْإِفْضَالَ عَلَى عَدُوِّهِ وَتَرَكَ مَجَازَاتِهِ . وَهَذَا كَثِيرٌ لَا يُحْتَاجُ
فِيهِ إِلَى اسْتِقْصَاءِ شَوَاهِدِهِ .

قَالَ غِيْلَانُ بْنُ خَرْشَةَ الصَّبِيُّ ^(٢) — وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلِ الْأَخْنَفُ
ابْنُ قَيْسٍ ^(٣) — لَا تَزَالُ الْعَرَبُ بِغَيْرِ مَا لَيْسَتْ الْعَامَّةُ وَتَقَلَّدَتْ السُّيُوفَ
وَرَكِبَتْ الْخَيْلَ ، وَلَمْ تَأْخُذْهَا حِمَاةُ الْأَوْغَادِ . قِيلَ : وَمَا حِمَاةُ الْأَوْغَادِ ؟ قَالَ :

(١) نَسَبَ هَذَا الْبَيْتَ فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ ٣ : ١٠٧ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ .
وَلَيْسَ فِي دِيْوَانِهِ الْمَشْهُورِ فِي نَفَائِسِ الْمُخَطَّوْطَاتِ . وَالسَّنَةُ : الْعِدْبَةُ وَالْقَسْطُ .

(٢) غِيْلَانُ بْنُ خَرْشَةَ ، كَانَ سَيِّدَ بَنِي ضَبَّةَ بِالْبَصْرَةِ ، وَكَانَ مِنَ الْبُلَّاقِ . الْإِشْتِقَاقُ
١٩٤ وَجُمُهورية ابْنِ حَزَمَ ٢٠٤ . وَكَانَ غِيْلَانُ أَحَدَ أَصْحَابِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ .
ثُمَّ انْقَضَى عَلَيْهِ وَكَانَ سَيِّئًا فِي أَنْ يَحْزَلَ عُثْمَانَ أبا مُوسَى الْأَشْعَرِي وَيُوَلِّي مَكَانَهُ عَبْدَ اللَّهِ
ابْنُ عَامِرٍ . الْجُمُهورية ١٤٧ .

(٣) الَّذِي فِي الْبَيَانِ ٢ : ٨٨ وَ ٣ : ٩٨ أَنَّ الْقَوْلَ لِلْأَخْنَفِ . وَالتَّصْلُحُ فِيهِ :
« وَقَالَ غِيْلَانُ بْنُ خَرْشَةَ لِلْأَخْنَفِ ، يَا أَبَا بَحْرٍ ، مَا بَقِيَ مَا فِيهِ الْعَرَبُ : قَالَ :
إِذَا تَقَلَّدُوا السُّيُوفَ ، وَشَدُّوا الْعَامَّةَ ... » . فَتَقَوَّى وَالْجَوَابُ إِنَّمَا هُوَ الْأَخْنَفُ .

أَنْ يَرَوْا الْحِلْمَ ذُلًّا ، وَالتَّوَاهُبَ ضِيًّا^(١) .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عاداك ونصب لك ؟ فقال :

ليست الأحلامُ في حال الرضا إنما الأحلامُ في حال الغضب
وأشدني بعض العلماء يبتين وقال : إن الزبير^(٢) كان كثيراً ما يتعطل
بهما : أ

وإني لأعدائي على الفتى والقتلى بنى العم منهم كاشح وحسود
أذنب وأرمى بالحصى من ورائهم وأبدأ بالحقى لهم وأعوذ
وكان عبد الملك بن مروان إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً لمرأجم من دونه وورائه^(٣)
ومعيره نصرى وإن كان امرأ مترحزحاً في أرضه وسمائه^(٤)
وإن اكتسى ثوباً نفيساً لم أقل ياليت أن على حسن ردائه^(٥)

(١) في حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه الرومة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فترك حية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن صعب . كما في تاريخ الطبري ١٠ : ١١٢ . وكان عادلاً للرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لمزيد بن مشجعة البولاني ، كما في الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقي . والكاشح : المضرر العداءة . وفي الحماسة : « غائباً نقاذف من خلقه » .

(٤) في الحماسة : « ومعيده نصرى » .

(٥) في الأصل : « ثوباً نفيساً » ، تحريف . وفي الحماسة : « ثوباً جيلاً » .

وَإِذَا تَخَرَّقَ فِي خِصَاءٍ وَفَرَّتْهُ وَإِذَا تَفَعَّلَكَ كَفَتْ مِنْ قِرْنَاهُ^(١)
 قَالَ : هَذَا وَاللَّهِ مِنْ شَعْرِ الْأَشْرَافِ . نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْحَسَدَ وَالْهَوْمَ
 وَالْإِنْتِقَامَ عِنْدَ الْإِمْكَانِ ، وَالسَّأْلَةَ عِنْدَ الْحَاجَةِ .
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِالسُّفْهِ فِي الْعِدَاوَةِ وَاسْتَعْمَلَ الْخُرْقَ فِيهَا .

حَدَّثَنِي نُوحُ بْنُ أَحْمَدَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ النَّابِغَةُ الْجُمُعِيُّ
 إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : هَلْ مَعَكَ مِنَ الشَّعْرِ مَا عَفَا اللَّهُ
 عَنْهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَتَشَدُّقِي مِنْهُ . فَأَنشَدَهُ :

وَإِنَّا نَقُومُ مَا نَمُودُ خِيَانًا

إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحْيِيْدَ وَتَنْفِرَا^(٢)

وَتَنْكِرُ بَوْمَ الرُّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا

مِنَ الظُّلْمِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا

١٢٨

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا

بِحَاثَا وَلَا مُتَنَكِّرَا أَنْ تَعْقُرَا

بَنَفْنَا السَّمَاءَ مَحْدُنَا وَسَقَاؤُنَا

وَإِنَّا لِنَبْنِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

(١) التخرق : التوسع في الإلتحاق . ويقال وفره . ناله : جملة وأمرام
 ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في حجة أشعار العرب ١٤٥ — ١٤٨ .
 وهي أول الشذوبات . ورويت أيضاً في الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ :
 ٥١٣ — ٥١٤ واللاتي ١٤٧* ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .
ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمرَ أضدرا
ولا خير في حليمٍ إذا لم تكن له بواذرُ تحمى صفوه أن يكذرا^(١)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لافضَّ الله فاك ! » . قال : فانت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سنٌ انقُرت أخرى مكانها ؛ للدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُصان بها الحليم .
وقال الشاعر الجاهلي^(٢) :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ نَحْنُ حَيًّا كَالَّذِي كَانُوا^(٣)
فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ وَأَمْسَى وَهُوَ عُزْبَانُ

(١) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب ، كما في اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو اللند الزماني ، واسمه شهل بن شيان . شاعر جاهلي قديم . كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وغلب وقد قرب المائة . الخزانة ٢ : ٥٨ — ٥٩ والأغاني ٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤ والآلئ ٥٧٩ . والقصيدة هي ثاني مقطوعة في حسانة أبي تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفي الحانسة :
« قوما » .

مَسِينًا مِثْلَ الْإِثْمِ بَدَأَ وَالْإِثْمُ غَضَبَانِ^(١)

بَضْرِبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَضْجِيعٌ وَإِذْعَانٌ^(٢)

وَطَعْنٌ كَكَمِّ الزُّقَى وَهِيَ الزُّقَى مَلَأَتْ^(٣)

وَفِي الشَّرِّ نَجْمَةٌ حَيْثُ لَا يُدْجِيكَ إِحْسَانٌ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مَعَ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ^(٤) فِي غَزَاةٍ ، فَكَانَ مَتْرَاجُ لَنَا الْمِيرَةَ
وَيَقُومُ بِمَوَائِحِنَا ، فَإِذَا أَقْبَلَ قُلْنَا : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَغَضِبَ لِدَعَاؤِنَا ، فَشَكُونَا
ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصَاحِهِ الْخَيْرُ أَصْلَحَتْهُ
الشَّرُّ ، فَاقْبَلُوا لَهُ . فَكُنَّا نَقُولُ لَهُ إِذَا أَتَانَا بِالْحَوَائِجِ : جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا وَغَرًّا^(٥) ،
فِيضْحَكُ لَذَلِكَ .

وَأُنْشِدُنِي رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

أَرَى الْحَمْلَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذَلَّةً وَفِي بَعْضِهَا عِزًّا يُشْرَفُ فَاعِلُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحَمْلِكَ جَاهِلًا سَفِيهَاً وَلَمْ تَقْرِنْ بِهِ مَنْ يُجَاهِلُهُ
لَيْسَتْ لَهُ ثُوبٌ الْمَذَلَّةُ صَافِرًا فَأَصْبَحَ قَدْ أَوْدَى بِحَمْلِكَ بَاطِلُهُ

(١) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » .

(٢) فِي الْحَمَاسَةِ : « وَتَضْجِيعٌ » ، وَهُوَ اخْتِلَاطُ الصَّوْتِ .

(٣) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، أَيْ سَالٍ

(٤) صَاحِبِي جَلِيلٍ ، وَهُوَ نَظْفَةُ بْنُ عَبْدِ الْأَسْلَمِيِّ ، مَشْهُورٌ بِكَتَبِهِ ، نَزَلَ
بِالْبَصْرَةِ وَشَهِدَ مَعَ عَلِيِّ قِتَالَ الْخَوَارِجِ بِالتَّهْرَوَانِ ، وَأَتَى خُرَاسَانَ فَنَزَلَ مَرَّةً . وَوَلَّى
بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٠ . الْإِسَابَةُ ٨٧١٠ وَالْإِسْتِعَابُ ٣٨٧٢ وَالْإِسْتِثْقَاءُ ١٠٦ .

(٥) الْعَرَبُ : الشَّرُّ وَالشَّيْنُ ، وَأَصْلُهُ مِنْهُمَا الْجَرْبُ .

فَأَبَقِ عَلَى جَهْمَالِ قَوْمِكَ إِنَّهُ لَسَكَلَى حَلِيمٍ مَوْصُنٌ هُوَ جَاهِلُهُ ^(١)
 وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصوا بالقوغة خيراً ،
 فإنهم يطفئون الحريق ، ويسدّون البثوق ^(٢) » .

وقال أبو سلى ^(٣) فى الجاهلية :

لَا بَدْءَ لِّلشُّوَدَدِ مِنْ رِمَاحٍ ^(٤) وَمِنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ ^(٥)
 * وَمِنْ كَلَابٍ بَجَّةِ النَّبَاحِ *

وقال مسلم بن الوليد ^(٦) :

حَالَتْ لَنِّ لَمْ نَأْتَنِ سَفَهَاؤَهَا خُرَاعَةُ وَالْحَيَّانِ عَوْفٌ وَأَسْلَمُ
 لَا تَجْمَعُ الْوَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِقَافِيَةِ تَفْرِى الْمَرْوَقِ فَتَحِمُ
 مِنَ اللَّاءِ لَا يَرْجِعُنِ إِلَّا شَوَارِدًا لَهْنٌ بِأَفْوَاهِ الرِّجَالِ تَهْتَهُهُمْ
 أَصَابُوا حَايِمًا فَاسْتَمَدُّوا بِمَاعِلٍ إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَمْنَعَكَ فَالْجَلُّ أَحْزَمُ
 وَلَمْ نَسْتَقْصِرِ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا بِالْمَعَارِضَةِ ^(٧) فِى هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَوْ اسْتَقْصَيْنَا

(١) أى لسكل حلیم موطن يجب أن يحبل فيه وينزع عن حمله .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبت الماء يخرقه اليل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ : ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماع » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا لمعلقاته ، وفى الديوان ١٧٧ - ١٨٣
 نصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

أعطت بنا الأديم وتراخت الليالي إلى بلوغ الغاية في تكم الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرض فيه ما دلّ على معناه الذي إليه قصد .

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حال من الأحوال ، ولا ندب إليه وتبه عليه . وقد نبّه على العداوة وفعل بين أحوالها بما قد يفتأه ، فظهر فضأها على الحسد بذلك .

وكنتم أمراً قليل الحساد حتى اعتصمت بعروتك ، واستمسكت بحبلك واستندرت في ظلك^(١) ، فتراكم على الحساد وازدحموا ، ورموني بسبابهم من كل أوب وأفق ، وتاتبعوا على نتائج الدّبر^(٢) على مُشار القمل . ونحن كثروا لقد كثّر بهبوب ريحك إخواني ، وبتفثرة أهلك وزهرة دولتك ٩ خلّاني . وأنا كما قلت :

فأكثر حُسادى وأكثر خلّتى
وكنْتُ وحُسادى قليل خلّانى

فما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل على عشرة نفر من من الكتاب قد شنهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك ، فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً

(١) استندى بالشجرة : استظل بها ومار في دفتها . واستندى بفلان : التجأ إليه . وفي الأصل : « واستندرات » .

(٢) تابع على التبع : تهاقت فيه وأسرع وتساقت . وفي الحديث : « ما يعملكم على أن تاتبوا في الكذب . كما يتابع امرأتان في النار » . وفي الأصل : « تاتبوا على تابع » ، صوابه بالياء . والدير : جماعة الصل .

افشوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة أناسية^(١) من الحساد فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتعذير والتخويف ، لأظعن على ما ألفت^(٢) من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى عليّ ، فدفعت رُقعَتهم إلي من قُرب إلى منهم ، فقرأها ثم قال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ! أَبْظِلُّ يَوْمَونَ النَّيْلِ وَيَلْتَمِسُونَ الشَّرْكَهَ فِي الْمَرْوِفِ ! كَنَزَعُ الرُّوْحَ بِالْكَلَالِيْبِ أَهْوَنُ مِنْ بَذْلِ مَعْرُوفٍ بِتَرْهِيْبٍ » . وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

أَبْقِ الْحَوَادِثَ مِنْ خَلِيٍّ لَكَ مِثْلُ جَنْدَلَةِ الرَّاجِمِ^(٣)
 قَدْ رَامَنِي الْأَعْدَاءُ قَبْلَكَ فَامْتَنَعْتُ مِنَ الْمُلْطَامِ
 وَدَفَعْتُهَا إِلَى مَنْ قُرْبَ مِنْهُ فَقَرَأَهَا . وَقَالَ الثَّانِي : « صَكَّةَ جُلُودٍ ، لِكُلِّ مُرْعِدٍ حَسُودٍ ، يَمْتَطِرُ الْعُرْفَ بِالتَّهْدِيدِ . خَلَّ الْوَعِيدُ ، يَذْهَبُ فِي الْيَدِ » .
 وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

أَبْرِقْ وَأَرْعِدْ لَا يَزِيْ دُفَا وَعَيْدُكَ لِي بِضَائِرٍ^(٤)
 وَدَفَعْتُهَا إِلَى الثَّالِثِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : « سَأَلُوا خَلْعًا ، وَخَوَّفُوا هَضْمًا ، أَتَقْوَا حَرْبًا وَلَقِيْتَ سِلْمًا » . وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

(١) أناسية : جمع إنسي أو أناس . وفي اللسان (أنس) : « وبين جواز أناسي بالتخفيف - يعني تخفيف الياء - قول العرب : أناسية كثيرة والواحد إنسي وأناس إن شئت » .

(٢) في الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، في أمالي القلي ٢ : ٣١١ . وفي الأصل : « أما الحوادث » و « الزاجم » ، صوابهما في الأمالي وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ٣٢٩ .

(٤) البيت للسكريت ، كما في اللسان (برق ، رعد) وجمالس العلماء ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدق أن سيفتل مريباً أبيض بطلول — سلامة ياربنع^(١)
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذليل وبوله سيئان » .
وأنشأ يقول :

ماضراً تغابَ واتلَّ أهوتها أم بُلَّتْ حيث تناطعَ البحرين^(٢) ١٣٠ و
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودُم الأعيار جُبَّارَ
جُبَّار^(٣) » . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبُ بالخرن تبسْ أم لَحَساني بظهر غيبٍ لنيم^(٤)
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عاقبتك الأجداد ، فليهن عليك
الحُساد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوانَ من اللُثامِ
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الشرعة ، من هو في ذى
المَنعة » . وأنشأ يقول :

(١) البيت لجرير في ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعر ٤٦٦٠ .
ومربع ، هو مربع بن وعوة بن سعيد ، كما في جمهرة أنساب العرب . وسرج هذا هو
راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقنته .

(٢) لفرزدق في ديوانه ٨٨٢ والبيات ٣ : ٢٤٨ والخزاة ٢ : ٥٠١ .
وهو من قصيدة يذكر فيها تفصيل الأخطال إياه ، « ادحا في ذلك بي تغلب » ،
ويجوز فيها جريراً . وتغلب هم قوم الأخطال . تناطع البحرين : تقابلا . وانظر
الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع غير بالفتح ، وهو الحمار الوحشي . والجبار : المهدر . وكذا
وردت الكلمة مكررة .

كم تنبحون وما ينسئ نباحكم
ما يملك الكلب غير النبح من ضرر
ودفعها إلى العاشر^(١) فقرأها وقال : « نوكى هلكى ، لم يعرفوا خبرك ،
ولا دروا أمرك » . وأنشأ يقول :

فَوَ عِلْمِ الْكِلَابِ بَنُو الْكِلَابِ بِحَالِكَ عِنْدَ سَيِّدِنَا لَذُلُّوا
وعندى صديق لي من الشوق له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مُسِرًّا :
إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكِتَابَ قَدْ أَظْهَرُوا الْاسْتِخْفَافَ بِقَوْلِ الْحُسَّادِ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ
فِي هَوَانِهِمْ عَلَيْكَ ، وَعَرَفُوا أَنَّكَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ عَزِّ أَبِي الْحَسَنِ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ،
وَمَعْقِلَ لَا يُسَاسَى وَلَا يُنَالُ . وَأَنَا أَقُولُ بِالشُّفَعَةِ^(٢) :

تَوْقٌ قَوْمًا مِنَ الْحُسَّادِ قَدْ قَصَّدُوا لِحِطِّ قَدْرِكَ فِي سِرٍّ وَفِي عِلْنٍ
فقلت له : إِنِّي أَقُولُ بَيْنَ مَا جَوَابَكَ وَجَوَابِ الْحُسَّادِ :

إِنَّ ابْنَ يَحْيَى عَيْبِدَ اللَّهِ أَمَنَنِي

من الحوادث بعد الخوف من زمي^(٣)

فَلَسْتُ أَحْذِرُ حُسَّادِي وَإِنْ كَثُرُوا

مَادَمْتُ مُمِكَ حَبِيلٍ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ

فلما رأى صديقي القضاة آثار الكتاب ، باستهانتي للحساد عند اعتلاق

(١) كذا في الأصل بدون أن يذكر قبله ما قل الثامن والتاسع ، فقد يكون
إغفالاً من الجاحظ لها ، وقد يكون سقطاً من النسخة .

(٢) في الأصل : « بالشفعة » .

(٣) يعني عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتد . انظر مروج
الذهب ٢ : ٣٧١ والتهيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأثير ١٥٨ ،
١٦٢ والآخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

٣٠ حَبَائِكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ ، أَنشَأَ مَقْتَلًا يَقُولُ نصر بن سيار^(١) :
 إِنِّي نَشَأْتُ وَحُشَادَى ذُوو عَدَدٍ إِذَا لِلْعَارِجِ لَا تَنْقُصُ لَمْ أَحْدَا^(٢)
 إِنْ يَحْسُدُونِي عَلَى مَا قَدْ بَتَّيْتُ لَمْ فَنَلَّ حُسْنَ بِلَاقِي جَرٍّ لِي الْحَسَدَا
 وليس العجب أن يكثرُوا وأنا أُنَقِّ بِحَسَنِكَ ، وَأَهْتِفُ بِشُكْرِكَ ،
 وَلَكِنَّ الْعَجَبَ كَيْفَ لَا تَنْفَقَتْ أَكْبَادُهُمْ كَمَا .
 وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : اللَّهُمَّ كَثُرْ حُسَادَ وَلَدِي ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُرُونَ
 إِلَّا بِكَثْرَةِ النِّعْمَةِ .

فَإِنْ كَانَ وَالِدِي سَبَقَ مِنْهُ هَذَا الدُّعَاءُ ، فَإِنَّ الْجَازِبَةَ كَانَتْ مَحْبُوءَةً إِلَى
 زَمَانِ عَزَّكَ ؛ فَقَدْ رَأَيْنَا تَبَاشِيرَهَا ، وَبَدَتْ لَنَا عِنْدَ عَنَائِكَ غَايَتُهَا .
 وَكَانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ وَلَدِي مُحْسُودِينَ ، وَلَا تَجْعَلْهُمْ
 مَرْحُومِينَ ؛ فَإِنَّ يَوْمَ الْحُسُودِ يَوْمٌ عِزَّةٌ ، وَيَوْمَ الْحَاسِدِ يَوْمٌ ذُلٌّ .

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاقنة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠
 ولاء هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيرا ، وعمل
 أيضا على خراسان مروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة
 العباسية فكتب إلى بني مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى هُزم
 وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومس ، واستمر في كداحه
 إلى أن لحقه المرض في ليلة بين الري وحمدان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفي
 الأصل : « يقول بشعر »

(٢) في الكتاب العزيز : « من الله ذى العارج » قال قتادة : ذى العارج :
 ذى القواضل والتم ، وقيل معارج الثلاثكة ، وهى مساعدتها التى تسعد فيها
 وتخرج فيها . وقال القراء : ذى العارج من نعم الله ، لأن الثلاثكة تخرج إلى الله
 فوصف نفسه بذلك .

ويقول : إنه ثلثامات الحجاج سمعوا جارية^(١) خلف جنازته وهي تقول :
 اليوم يرحلنا من كان يحسدنا . واليوم نبع من كانوا لنا تبعاً .
 ويقال : إن زياد بن أبيه قال لِحُرَّة ابنة النعمان^(٢) : أخبريني بحالك .
 قالت : إن شئت أجلت وإن شئت فمُتت . فقال لها : أجلى . فقالت :
 « بنتا نحسد ، وأصبحنا نرحم » . فخطبها زياد وكانت في دبر لها فكشفت
 عن رأسها ، فإذا رأس مخلوق ، فقالت : رأس عروس كاترى يازياد ؟
 وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزّتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا جزّتك
 يد استفتت بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين »^(٣) : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) في البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت محبوز من داره وهي تقول » .

(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن السدسر بن أمية القيس بن عمرو بن عدى
 ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عهم بن نمارة بن الحزم . المؤلف ١٠٣ .
 ولها مقطوعة في الحماسة ١٢٠٣ بشرح الرزوقي رويت أيضاً في المؤلف . وبعض
 أخبارها في البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ . ١٦١ . وحرقة بضم الحاء لليلة
 وفتح الزاء ، كما في اللسان والقاموس . قال في اللسان : « وحرقة ابن النعمان
 ابن السدسر . وحرقة بنته » ، ومثله في شرح الحماسة للشبريزي لكنه جعل أخاها
 « حرق » كزفر . وفيها يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلم الحلقة ولا حريقاً وأخته الحرة

(٣) أى كنا في نعمة محبوسين بالأدس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن
 في موضع الرثاء .

(٤) في الأصل : « اثنتين » ، صوابه في صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ :

٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ - ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١

ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

١٠

رِسَالَةٌ

فِي صِنَاعَاتِ الْقَوَاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .

وفي مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً « طبائع القواد » .

وجاء في جمع الجواهر للحصري ١١٦ : « وللجاحظ في هذا النوع رسالة كتبها إلى العتصم ، وقيل إلى المتوكل ، في الخس على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصري طرفاً من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص . وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بكليتها . وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

(١) أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك ١٣٣ ظ
جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عز الأدب كما تعرف زوائد الفنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين
المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أدائه يظهر
بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق
يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تذكرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ،
وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزّ يُرَدُّ به الأحران (٢) ، وخاصة يُرعى
بالصنعة (٣) ، ومُلَوِّ يوثق الأسماع .

وقال الحسن البصرى : إن الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من
الأعضاء شىء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شىء للرجل عقل يؤلده معه ، فإن فاتته ذلك

(١) قبله فى الأصل : « هذه رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » . منسوبة
فى نسخة إلى ذم القواد ، وفى أخرى إلى كتاب صناعات القواد . وفى أخرى إلى
كتاب طبائع القواد .

(٢) فى الطبوعة من الطراز : « ومُردّ ترد به الأحران » . تحريف .

(٣) فى الأصل : « يذهب بالصنعة » . وأثبت ما فى النسخة الطبوعة من الطراز .

فَالْإِنْسَانُ بِهِ ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَمَلَأَ بِمِيشْ بِهِ^(١) ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ ثَوْبٌ
يَحْتُ أَصْلَهُ .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالّة .
أو بهيمة مرسلّة ، أو صورة ممثلة^(٢) .

وذكر الصّمت والنطق عند الأحنف فقال رجلٌ : الصّمت أفضل
وأحمد . فقال : صاحب الصّمت لا يتعداه نفعه ، وصاحب النطق ينتفع به
غيره . والنطق الصّوابُ أفضل^(٣) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصاب
من لسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلم فبالغ في
حاجته ، فقال عمر : هذا والله السّعرُ الحلال .

وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل ليسانى الحاجة فتستجيب نفسى له
بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها .

و ١٣٣

وتقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إن أئمتنا هلك ، وإن
أخوانا غصبنا ميراثه . فقال زياد : الذى ضيعت من لسانك أكثر مما ضيعت
من مالك^(٤) .

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) فى الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر فى البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء، لأولاده : يا بني أصاحوا من ألسنتكم ، فإن
الرجل لننوبه النابتة فيستعير الهداية والنياب ، ولا بقدر أن يستعير اللسان .

وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً يتكلم فأساء القول ، فقال :
يا ابن أخي ، الأدب الصالح خير من المال المضاعف .

وقال الشاعر^(١) :

وكان ترى من صامت لك معجب زبائنه أو نقصه في التكلم
لسان القتي نصف ونصف قواذه فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
نقذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب ؛ فإنك إن
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .

وذلك أني لقيت حزاماً^(٢) حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم ،
فسأله عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيتهم في مقدار تحن الإصطبل ، فما كان بقدر ما ينس^(٣) الرجل دابته
حتى تركناهم في أضيّق من تمرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابيب يبرحين^(٤) ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كما في العلاقات برواية الزوزني ، وليس في رواية
ابن الأباري أو البرزني أو ديوانه بشرح تعلق وبشرح الشنمري .

(٢) في الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع
الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سأله عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حن الهداية بحسب حساً : تنفض عنها التراب . وذلك إذا فرجها بالهسة .
وفي مطبوعة الطراز فقط : « يحش » بالشين .

(٤) الأنابيب : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نير بالكسر .

فلوطرحت رَوْثَةً مَاسَقَتَتْ إِلَّا عَلَى ذَنْبِ دَابَّةٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إِنْ سَدِمَ الصَّدُّ مِنْ جِسْمِي مَعَالَفَهُ

فَإِنْ قَلْبِي بَقَتْ الْوَجْدُ مَعْمُورٌ^(١)

إِنِّي أَمْرُو فِي وَثَاقِ الْحَبِّ يَكْبِجُهُ

لِجَسَامٍ هَجَرَ عَلَى الْأَسْقامِ مَعْدُورٌ^(٢)

عَلَّنَ يَجْلِي نَيْلِي مِنْ وَصَالِكَ أَوْ

حُسْنِ الرِّفَادِ فَإِنَّ التَّوَمَ مَأْسُورٌ^(٣)

أَصَابَ حَبْلَ شِكَاكِ الْوَصْلِ حِينَ بَدَأَ

وَمِبْضِ الصَّدِّ فِي كَفِيهِ مَشْهُورٌ^(٤)

لَبِثْتُ بَرَقَ هَجْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي

إِصْطِلَبِ وَدِّ فَرَوْتِ الْحَبَّ مَنثورٌ^(٥)

(١) التقت : التصفصة ، وهي من علف النواجب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذي يكون عليه اللجام .

وفي جمع الجواهر : « ومع امرئ » في وثاق الحب .

(٣) في جمع الجواهر : « أنك خليتك نيلا من وصالك » ، والثأسور : للشدود بالإسار ، وهو الجبل .

(٤) الشكال ، ككتاب ما تشد به قوائم الدابة . وفي جمع الجواهر : « أمنت فتل شكال حين ودعني ومبضع الحب » .

(٥) في الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيشُوعَ [العليّيب^(١)] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْنِ البِيارِستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل ١٣٣ :
مَقْعِدِينَ^(٢) حتى تركناهم في أَضيقِّ من عِجْفَةٍ ، ففتناناهم فلو طرحت مِيفِضًا
ما سقط إِلَّا على أكَفَلِ رَجُلٍ^(٣) .

وعمل أَيْبَاتًا في الغزل فكانت :

شَرِبَ الوصلُ دَسْتَحَ الحِجرِ فَاسْقَطُ أَقْ بَطْنُ الوِصالِ بِالِإِسْهالِ^(٤)
ورماني حَيِّ بِقَوْلَنِيحِ بَيْنِ مُذْهَلٍ عن مَلَامَةِ الشُّدَّالِ^(٥)
فَقَزَادَ الحِيبِ يَنْحَلُهُ الشُّدُّ لَنْ وَقَلْبِي مَعْدَبٌ بِالْمَلَالِ^(٦)
وفؤادى مُبْرَسَمَ ذُو سَقَامٍ يَابْنَ ماسُوءَةَ ضَلَّ عَنِّي احْتِيَالِي^(٧)
لو يبقراط كان مابى وجالي غُوسَ بَاتَا مِنْهُ بِأَكْثَفِ بَالٍ

- (١) الشكيلة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل
ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يباهى التوكل في اللباس والقرش ،
وكان عظيم الثروة عنده ، ثم إنه أفرط في إدلاله عليه فنبهه . وكان موته سنة ٢٥٦ .
طبقات الأطباء ، ١ : ١٣٨ - ١٤٤ والقفطى ٧٢ - ٧٣ .
(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى التوضأ إذا أخذ بطنه .
(٣) الأكمل : عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .
(٤) الدستج ويقال الدسليج : آنية تحول باليد .
(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .
(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا في الأصل وإحدى مخطوطات الطراز . يريد «ماسويه» . وفي سائر
نسخ الطراز : « يابن السوء » . وفي جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم
به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا ، خدام الأمويين والعباسيين
والوائق والتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ - ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفرًا أنليطاً عن مثل ذلك فقال :

لقيمهم في مقدار سوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يحيط الرجل درزاً^(١)
حتى قتلتهم وتركناهم في أضيق من جربان^(٢) ، فلو طرحت إبرة ما سقطت
إلا على رأس رجل .

وعمل آياتاً في الغزل فكانت :

فتت بالهجر دروز الهوى إذ وخزني إبرة الصد
فألقب من ضيق سراويلي بعثر في بايكة الجهد^(٣)
جشمتي يا طيلان النسوى منك على شوزكتي وجدى^(٤)
أززار عيني فيك موصولة بمروة الدمع على خدى
يا كتبان القلب يا زيقه عذبي التذكار بالوعد^(٥)
قد قعن ما يبعد من وصله مقراض بين مرهف الحد^(٦)

(١) الدرز : موضع الخباطة ، كما في شفاء الغليل ، ويقال للعامل والصبيان :
بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص : جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية
« كريان » .

(٣) في جمع الجواهر : « بعثرني في تكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : « على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً « حشدني » بدل :
« جشمتني » .

(٥) في جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يَا حُجْرَةَ النَّفْسِ وَيَا ذِيْلَهَا مَالِي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدِّ^(١)
 وَيَا جِسْرِيَّانَ سُرُورِي وَيَا جَيْبَ حَيَاتِي خُلْتُ عَنْ عَهْدِي^(٢)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ - وَكَانَ زَرَّاعًا^(٣) -
 فَقَالَ :

لَقِينَا فِي مَقْدَارِ جَرِيْبَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَقِي الرَّجُلُ
 مَشَارَةً^(٤) حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ ، فَتَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ بَابٍ ، وَكَأَنَّهُمْ أَنْثَايِرُ سُنْدِيلٍ^(٥) ،
 فَلَوْ طُرِحَ قَدْآنُ^(٦) مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ رَجُلٍ^(٧) .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فِي الْغَزْلِ فَكَانَتْ :

زَرَعْتُ هَوَاءً فِي كِرَابٍ مِنَ الصَّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ^(٨)

(١) الحجرة ، بالنضم : «عقد السراويل والإزار وفي الأصل والطرارز الطبعوع .
 » يا حجرة النفس » ، وفي المخطوط : « يا حيرة النفس يا ويلها » ، صوابه من جمع
 الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان في ص ٣٨٤ . وفي جمع الجواهر : « جيب غرامي » .

(٣) في جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) للشارة . بفتح الليم : الدبرة ، وهي البقعة من الأرض تزرع . وفي طراز
 المجالس : « من ساية » .

(٥) الأنثاير ، سبق تفسيرها في ص ٣٨١ .

(٦) القدان : الذي يجمع أداة التوربين في القران للحرث ، والآلة التي
 يحرث بها .

(٧) في طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفي جمع الجواهر :
 « إلا على رأس رجل » ويعد في جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكرام التبن » .

(٨) في جمع الجواهر : « في جريب مثلت » .

وسرجنته بالوصل لم آكل جاهدًا ليجرزه السرجين من آفة الصد^(١)
 فلما تعالى الثبوت واخضرَّ يانما جرى يرقان البين في سبل الود^(٢)
 قال : وسألت فرجًا الرخجي^(٣) عن مثل ذلك — وكان خبازًا —
 فقال :

لقيناهم في مقدار بيت الثنور ، فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة
 أرغفة حتى تركناهم في أضيق من حَجَر تنور ، فلو سقطت جرة ما وقعت
 إلّا في جفنة خباز^(٤) .

وعمل أبيانًا في الغزل فكانت :

قد عَجَنَ المجرُّ دقيقَ الهوى في جَفْنَةٍ من خَشَبِ الصدِّ
 واختمرَ البينُ فنارَ الهوى تَدُكِّي سرجين من البُمدِ^(٥)
 وأقبل المجرُّ بمحراصِهِ بَمَحْصٍ عن أرغفة الوجدِ^(٦)

(١) السرجين : السباد تدل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقات : دود يكون في أزرع ثم يسلخ فيصير فراشًا وفي جمع
 الجواهر : « وأفرك حب الحب في سبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أنته أكف المجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالصد
 فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا ويأوج ثورى صار مغلته كبدى
 (٣) نسبة إلى رنج ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحي كابل .

(٤) فى جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقًا لما وقع إلا فى خوان الخبز على
 كثرة القلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفى جمع الجواهر : « تزجى بشوك المجر
 من بمدى » .

(٦) المحراك أداة تحرك بها النار . وفى جمع الجواهر : « وأقبل الصد
 مهوراته »

جَرَادِقُ للوَعْدِ مَسْمُومَةٌ مَثْرُودَةٌ فِي قِصْعَةِ الْجَهَنَّمَ^(١)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ أَبِي ذَلُودٍ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ
 — وَكَانَ مُؤَدِّهَا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَخْنِ الْكِتَابِ^(٢) ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَقْرَأُ الصَّبِيُّ
 إِمَامَهُ^(٣) حَتَّى الْجَنَانَهُمْ إِلَى أَصْبِقٍ مِنْ رَنْمٍ^(٤) فَتَنَلْنَاهُمْ ، فَنَسَقَطَتْ دَوَاةٌ
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا فِي حِجْرِ صَبِيٍّ .

وَعَمِلَ آيَاتًا فِي الْفَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدَأَمَاتُ الْمَجْرَانِ صِبْيَانٌ فَنَبِيٍّ فَزَوَادِي مَعْدَبٌ فِي حَبَالٍ^(٥)
 كَسَرَ الْبَيْنَ لَوْحٍ كَبَدَى فَمَا أَمَّا مَعَ مِمَّنْ هَوَيْتُهُ فِي وَصَالٍ^(٦)
 رَفَعَ الرَّقْمَ مِنْ حَبَالِيٍّ وَقَدْ أَمَّا لَمَتَّى مَوْلَايَ حَبَلَهُ مِنْ حَبَالِيٍّ
 مَشَقَّ الْحُبِّ فِي فَوَادِيٍّ لَوْحَةٍ مِنْ فَاغْرَى جَوَانِحِي بِالسَّلَالِ^(٧)

ط ١٣٤

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسي معرب . وفي جمع
 الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصخن : الساحة وسط الدار . والكتب : موضع تعليم الصبيان . وأصل
 الكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الكتابة . ثم أطلق الاسم مجازاً على الموضع الذي
 يتعلمون فيه . وفي اللسان : « والكتب : موضع تعليم الكتاب » . وفي جمع
 الجواهر : « في مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبي : ما يتبعه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .

(٤) في جمع الجواهر : « من فم الرنم » . والرغم : يسكون القاف : الرنم
 السكابي المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خيال »

(٦) في جمع الجواهر : « لوح وصلي » .

(٧) الشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف في الكتابة . والسلا : السلا .

لَاقَى قَلْبِي بَنَانُهُ فَمَدَادُ الدِّمْعَيْنِ مِنْ هَجْرٍ مَالِكِيٍّ فِي انْتِهَالٍ^(١)
 كَرَسُفُ الْبَيْنِ سَوْدُ الْوَجَةِ مِنْ وَصْدٍ عَلَى فُقَابِي بِالْبَيْتِ فِي إِشْعَالٍ^(٢)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ بْنِ يَزِيدٍ^(٣) — وَكَانَ صَاحِبَ خَمَامٍ —
 عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مِثْلِ بَيْتِ الْأُنْبَارِ^(٤) ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَفْسِلُ الرَّجُلُ
 رَأْسَهُ حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ هَابِ الْأَثُونِ ، فَلَوْ طَرَحْتَ لَيْفَةً مَا وَقَعْتَ
 إِلَّا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ .

وَعَمِلَ أُيُوتَانَا فِي الْغَزْلِ فَكَانَتْ :

يَا نُورَةَ الْحَجَرِ حَاقَتِ الصَّفَا لَمَّا يَدَتْ لِي لَيْفَةُ الصَّدِّ^(٥)
 يَامِيزُزُ الْأَسْقَامِ حَتَّى مَتَى تَنْقَعُ فِي حَوْضٍ مِنَ الْجُهْدِ
 أَوْ قَدْ أَتَوْنَا الْوَصْلَ لِي مَرَّةً مِنْكَ يَزِيدُ بَيْسَلٍ مِنَ الْوَدِّ^(٦)

(١) أسله من لاقى الدواة . أصلح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاقى قلبي
 مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاقى كبدى دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف في الدواة .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعني البيت الذي تحفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت
 التاجر الذي يتصد فيه متاعه » . وبعده في جمع الجواهر : « فقلنا ناهم بمقدار
 ما تحلق النورة ، ثم ألقناهم إلى أضيق من الأذن ، فهزناهم بصدور ما يفسل الرجل
 وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . »

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأثون : الورد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفه من لغة العامة . والزنبيل
 بكسر الزاي كفتديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فَالْبَيْتُ مُذْ أَوْقَدَ حَمَامُهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسَاحَ الْوَجْدِ^(١)
أَفْسَدَ خِطْمِي الصَّفَا وَالْهَوَى نُحَالَةً النَّاقِصَ لِلْمُهْدِ^(٢)
قَالَ : وَسَأَلْتُ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي قِشَاشَةَ^(٣) عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ — وَكَانَ
كَثَاثًا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنُسُ الرَّجُلُ
زَبِيلًا^(٤) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْبَقِ مِنْ جُحْرِ التَّخْرُجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ
مَا يَشَارِطُ الرَّجُلُ عَلَى كَنْسِ كَنْيفٍ ، فَنُورِمِيَتْ بَابَتُهُ وَرَدَانَةٌ^(٥) مَا سَقَطَتْ
إِلَّا عَلَى فَمِ بِالْوَعَةِ^(٦) .

وَعَمَلُ أَيْيَاتِنَا فَكَانَتْ :

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرَزْجَنًا لِلْهَوَى تَسَاحَجَ فِيهِ فَتْحَةُ الْهَجَرِ^(٧)
بَنَاتِ وَرْدَانَ الْهَوَى لِلْبَلَى أَصْبُرُ مِنْ دَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي^(٨)

(١) فِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « هَيْجَ قَلْبِي ، مَشَلَحَ الْوَجْدَ » .

(٢) جَمْعُ الْجَوَاهِرِ : « بِحَالَةِ النَّاقِصِ » .

(٣) جَمْعُ الْجَوَاهِرِ : « الْحَسَنُ بْنُ أَبِي قِشَاشٍ » .

(٤) الزَّيْلُ : الزَّبِيلُ ، وَهُوَ الْقِنْدَ . وَفِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « زَبِيلًا » .

(٥) بَنَاتُ وَرْدَانَ ، هِيَ الْمَعْرُوفَةُ فِي مِصْرَ بِالْحَنْفَسِ . مَعْجَمُ الْمُعْلُوفِ ٣٦ . وَانْظُرِ
الْمِوَانَ ٢ : ١٥٣ وَ ٣ : ١٣ ، ٣٧١ وَ ٤ : ٣٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٠ . وَابْنَةُ وَرْدَانَةٍ ،
لَهَا مِنْ لُغَةِ الْعَامَةِ فِي عَصْرِه .

(٦) فِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَتِيلٍ » .

(٧) الْبَرِجُ : مَجْرَى الْبُولِ . يَنْسَلِجُ ، مِنْ السَّلَاحِ بِالْفِصْمِ ، وَهُوَ التَّجْوِ . وَفِي جَمْعِ
الْجَوَاهِرِ : « لِلْهَوَى غَرْجًا » .

(٨) الْبَيْتُ سَاقَطٌ مِنْ جَمْعِ الْجَوَاهِرِ .

خَنَافِسُ الْهَجْرَانِ أَشْكَلْنِي يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَبْرِي^(١)
أَسْقَمَ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَاحَ الْيَبْنُ عَلَى عُمَرَى
قال : وسألت أحدَ الشُّرَافِيَّةِ عن مثل ذلك فقال :

١٣٥ و

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ مَحْنِ بَيْتِ الشُّرَابِ ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ مَا يَصْنُقُ الرَّجُلُ
دَنَا^(٢) حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ رَطَلِيَّةٍ^(٣) فَتَقْتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتُ تَفَاحَةً
مَا وَقَعْتَ إِلَّا عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .
وعمل أبياتًا في الغزل فسكانت :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا وَدَفَرْتُ نَحْرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ^(٤)
فَسَالَتْ دِينَانُ الْبَيْنِ يَدْفَعُهَا الصَّبَا فَكَسَّرْنَ قَرَابَاتِ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي^(٥)
وَكَانَ مِزَاجُ الْكَأْسِ غُلَّةَ لَوْعَةٍ وَدَوْرَقِ هَجْرَانٍ وَقَيْنِيَّتِي غَسَدِرِ
قال : وسألت عبد الله بن طاهر^(٦) عن مثل ذلك — وكان طليخا —
فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَخْنِ الطَّبِيخِ ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ مَا يَشْوِي الرَّجُلَ حَمَلًا حَتَّى

(١) جمع الجواهر : « نومي فولي معرُشًا » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرهما : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده في جمع الجواهر : « ثم سألت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا في كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهب من راحة الهوى » .

(٥) القرباب : ضرب من الآواني ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده في المعاجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهري » .

تركانهم في أضيق من موقد نار ، فقتلناهم فلو سقطت يفرقة ما وقعت إلا في قدر^(١) .

وعمل أياتنا في الغزل فكانت :

يا شبيهة الفالوذ في حمرة الخد ذئ ولوزينج النفوس الظأ .
أنت جوزينج القلوب وفي آلي ن كايين الخبيصة البيضاء^(٢)
عدت مسهرا بسكاج وذئ بعد جودآية بحجب شواء^(٣)
يا نسيم القدور في يوم عرس وشبهها بشهدة صفراء^(٤)
أنت أشهى إلى القلوب من الزئ د مع الرسيان بعد الفداء^(٥)
أطيم الحاسدون ألوان غمر في قصاع الأحران والأدواء^(٦)

(١) جمع الجواهر : هـ قينام في مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذية ، حتى تركامهم في أضيق من أنافي القدر . فلو طرحت ملهقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) في جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكاج : لحم يعالج بالخن والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والذئاب . محاضرات الرافع ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبخ للبغدادي ٩ . والجوداب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقي صفته في كتاب الطبخ ٧٠ - ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « شهدة بيضاء » .

(٥) الرسيان : ضرب من أجود القمح . وفي اللسان : « وأهل العراق يضربون الزئ بالترسيان مثلاً لما يستطلب » .

(٦) في جمع الجواهر : « والصفراء » .

قد غلا التلب مذنأت عنك دارى غليان القدور عند الصلابة^(١)
 هام قلبى لثما كسرن غضاراً ت سرورى مغارف الشحناء^(٢)
 فتفضل على العيد بيوم جود بوصلي يكت به أعدائى^(٣)
 وتفضل على الكتيب بزما وزد وصلي بشئى من الأدوا^(٤)
 قال : وسألت — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسى عن مثل
 ذلك — وكان فراساً — فقال :

ظ ١٣٥

لقيناهم فى مقدار صحن بساط^(٥) ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل
 بيتاً^(٦) حتى تركناهم فى أضيى من منصة فقتلناهم ، فلو سقطت تحدة ما وقعت
 إلا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

كسح المهجر ساحة الوصل لثما غبر البين فى وجوه الصفاء^(٧)
 وجرى البين فى مرافق ريشى هى مذخورة ليوم الاقضاء^(٨)

(١) فى الأصل وطراز المبالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .

(٢) النشارت : السحاف للتخذه من القطار ، وهو الطين الحر .

(٣) العيد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأشتاه .

(٤) البرء اورد : ضرب من الحيز يحشى بشواء ، يدقق ، يضاف إليه الحلو والأقارب .

وانظر بقية صفته فى كتاب الطببخ ٥٩ .

(٥) جمع الجواهر : « فى مثل تربع القسطاط » .

(٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .

(٧) الكسح : الكس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تعريف وفى

جمع الجواهر : « كس » ، وهى بمعنى كسح .

(٨) الرافق : جمع مرفقة ، وهى المدة .

فرشَ الهجر في بيوتِ همومٍ تحت رأسي وسادةَ البرحاء^(١)
 حينَ هيأت بيتَ خيشٍ من الوص لي لأبواه ستور البهاء^(٢)
 فرشَ البحرُ لي بيوتَ مُسوح مُتسكها مطارح الحصباء^(٣)
 رِقٌّ للصَّبِّ من براغيثٍ وجدٍ تعترى جلده صباح مساء^(٤)
 قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ، ثم دعا مؤدّب ولده فأمره أن يأخذهم
 بتعليم جميع العلوم .

ثم كتاب الجاحظ وثه لثة ، ويده الحول والقوة ، والله سبحانه اليرفق للصواب .
 والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
 بعده زيادات ليست للجاحظ^(٥)

- (١) في الأصل ومخطوط الطراز : « لي بيوت » ، صوابه في مطبوع طراز
 المجالس . والبرحاء : الشدة ، ولثقة . وفي جمع الجواهر :
 فلقد بث في فراش همومي تحت خدي وسائداً لثنائي
- (٢) الخيش : ثياب رفاق التسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشافة الكنان .
- (٣) التكنأ : ما يتركب عليه ليطعام أو شراب أو حديث . وفي الأصل وطراز
 المجالس : « متكأها من الحصباء » ، صوابه في جمع الجواهر . والطارح : جمع
 مطرح ، بالكسر ، وهو للفرش ، كما في المعجم الوسيط .
- (٤) في جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تحالسنه » . وبعد هذا البيت في
 جمع الجواهر بدلا من الكلام التالي هنا : « يا أمير المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما
 يتصور الجنان ، ويظهر في الكلام ما يخفى على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئا
 واحدا لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثرت خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب
 هزل أضع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس
 عليه . والسلام » . ثم قال الحصري معقباً على هذه الرسالة :
- « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قد برأ على الشعر
 سراناً له » .
- (٥) وهي في مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

ص	
١	مناقب الترك
٨٧	المعاش والمعاد
١٣٥	كتان السر وحفظ اللسان
١٧٣	نحر السودان على البيضان
٢٢٧	في الجد والمزل
٢٧٩	في نفق التشبيه
٣٠٩	كتاب الفتيا
٣٢١	إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب
٣٣٢	فصل ما بين العداوة والحسد
٣٧٥	في صناعات القواد

أبو سلوم المعتزلي

